أوراق سياسية

سيد مرعى

الثانية



من القرية إلى الاصلاح

- المهندس سيد مرعى مساعد رئيس الجمهورية .
- من مواليد محافظة الشرقية - أغسطس ١٩١٣ .
- تخرج من كلية الزراعة عام ١٩٣٧ .
- بدأ حياته العامة عضوا فى البرلمان (مجلس النواب) سنة ١٩٤٤ .
- اختارته الثورة ليشرف على تطبيق أول قانون للأصلاح الزراعى .
- تم اختياره وزيرا ونائبا لرئيس الوزراء للزراعة لسنوات عديدة ما بين ١٩٥٦ و ١٩٧١ .
- شغل فى السنوات الأخيره مناصب أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى .. فرئيس لمجلس الشعب فمساعدا لرئيس الجمهورية .
- اختارته الأمم المتحدة سكرتيرا لمؤتمر الغذاء العالمى نتيجة لخبرته الدولية الواسعة .
- أصدر ١١ كتابا ، تناول فيها عديدا من القضايا الزراعية والغذائية .

المكتب المصرى الحديث

أوراق سياسية

سيد مرعي

الجزء الأول

من القرية إلى الاصلاح

مقدمة

ترددت كثيراً قبل أن أقدم هذه الصفحات إلى القارىء . . . صفحات تحمل تاريخ حقبة عامرة بالأحداث السياسية التي أثرت في مسار العمل الوطني في مصر وستظل تؤثر فيه خلال الأجيال المقبلة .

ولقد كان مبعث ترددي هذا ، ما شعرت به ولمسته بوضوح من بلبلة فكرية تسرى هذه الآونة بين المواطنين بصفة عامة وشباب هذا الجيل بصفة خاصة . . . هذا الشباب الذى لم يعاصر الكثير من الأحداث . . . ولا أظنني بحاجة إلى أن أوضح أن مرد هذه البلبلة كان التناقض الواضح بين كثير من الاقلام التي تصدت لتسجيل هذه الحقبة من تاريخ مصر .

ولقد تداولت فى هذا الخصوص مع كثيرين من أصدقائى وزملائى الذين أثق فى رأيهم ففضلوا فكرة النشر ، وكان منطقهم فى ذلك أن قدرى السياسى قد فرض على أن أكون من القلائل الذين مارسوا العمل السياسى فى مصر قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثم استمروا فى ممارسة هذا العمل منذ قيام الثورة وحتى الآن .

فقد عاصرت إذن فترات ثلاثاً : فترة الحكم الملكى والأحزاب السياسية والاحتلال البريطانى ، ثم فترة ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، وأخيراً ثورة مايو ١٩٧١ . ومن هذا المنطلق جاء إصرار من أخذت رأيهم على أن أنقل إلى شباب هذه الأمة — وبأمانة — ما عاصرته من أحداث .

واعتبار آخر كان له كذلك أثر مباشر فى حسم ترددى . . هو أن عندى قناعة قد تحيرنى أحيانا ، وهى أن القارىء فى بلادنا كان فى كثير من الأحوال أكثر ذكاء من الكاتب . . . فإذا كان الكاتب يسجل شهادته للتاريخ بموضوعية وانصاف كان القارىء وعلى الفور يرحب بالشهادة — شخصا وموضوعا — ويظل متمسكا بها داعياً لمضمونها . . . أما فى الأحوال الأخرى التى لم يكن القارىء يحس فيها بتلك الأمانة الضرورية فى رواية التاريخ فإنه لم يكن يعلن ذلك عند السطر الأول ولكنه كان بالتأكيد يعلنه عند قراءة السطر الأخير . . . ان القارىء يستطيع بفطرته السليمة أن يميز بين الخطأ والصواب بين الحقيقة والباطل ، بين رواية التاريخ على حقيقته والرواية التى يختلط فيها ادعاء البطولة أو اشباع شهوة الانتقام .

ولقد حرصت — أول ما حرصت — فى تدوين هذه الصفحات أن اسجلها كما عشتها فعلا . . فلم أدع لحماس سنوات الشباب حكمة الشيوخ . . . بل جعلت القلم يسجل رؤيتى فى كل مرحلة كما كانت فعلا حتى لو أثبتت الأمور فيما بعد خطئى فى التقدير . . . وحرصت دائماً على أن أسجل مع وجهة نظرى وجهة النظر الأخرى ، كى أترك للقارىء حرية الاختيار والتقدير بين ما هو صواب وما هو خطأ .

وحرصت كذلك على أن احتفظ أمام القارىء بعلاقة النسبية بين تصورى للأحداث وبين الأحداث ذاتها . . . أننى فى روايتى لهذه المشاهدة أمام التاريخ

كنت نادراً صانعاً لبعض الأحداث ، ولكننى كنت غالبا مشاركا فيها ، وأحيانا متفرجا عليها . . . ولا أريد أبداً أن تختلط الفواصل بين هذا كله فتتناقص نسبة المتفرج أو المشارك كى ترتفع نسبة الصانع أو البطل لسبب بسيط هو أننى من البداية لم أكن هذا البطل .

لقد كان هدفى من كتابة هذه الصفحات أن أقدم إلى هذا القارىء ... الشاب . . خبرة شاءت الظروف أن أكتسبها ، أننى أنقلها إليه بغير أن ألزمه بها .

وفى تسجيلى لهذه الشهادة عبر حقبة زمنية امتدت من ثورة ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢ ، إلى ثورة مايو ١٩٧١ ، أريد من القارئ أن يتذكر فى هذه الشهادة أننى لست مؤرخاً ولا راوياً وإنما شاهد على أحداث حاولت أن أكون أمينا فى تسجيلها .

ولقد كنا أبناء لمصر عندما نخطئ وعندما نصيب ، فلم نكن نتلقى الوحى من قوى سحرية حينما نصيب ولم نكن مدفوعين بفعل قوة شيطانية حينما نخطىء . . . لقد اجتهدنا غالباً فكان نصيبنا هو الخطأ أحيانا والصواب فى أحيان أخرى ، وكل خطأ يحدث يجب أن نخصمه من رصيدنا . . . وكل صواب استطعناه يجب أن نضيفه إلى بلدنا .

وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح ، ولا يبقى بعدنا سوى هذه الأرض التى أعطتنا القدرة على الصواب والخطأ : مصر . . .

الفصل الأول

سنوات الصبا

« لما كانت رغبتنا هي منح بلادنا نظام حكومة يكون موافقاً للأفكار النيرة وكافلا لحسن الإدارة ولصيانة الحرية الشخصية وضامناً لاتساع نطاق التقدم والعمران وملائماً لهذه البلاد بنوع خاص . .

ولما كانت هذه الغاية لا يتسنى نيلها إلا بتعاضد جميع الطبقات تعاضداً مبنياً على الولاء، وبامتزاج جميع المرافق امتزاجاً يؤدى إلى ترقية نظام الحكومة بطريقة تجمع بين السكينة والتروى ، بحيث لا يكون هذا النظام عبارة عن مجرد تقليد ومحاكاة للأساليب الغربية ، بل يكون داعياً إلى تمهيد السبيل لرفاهة الأمة المصرية وإسعادها .

ولما كانت بغيتنا حينئذ هي تعديل القانون النظامى تعديلا يكون من ورائه تحسين الأسلوب التشريعى . . . . فقد أمرنا بما هو آت . . . . إلخ » .

تلك هي مقدمة القانون النظامى الذى انشئت بموجبه الجمعية التشريعية فى مصر سنة ١٩١٣ ، لكى تكون قريبة الشبه بالبرلمانات الأوروبية .

وفى تلك السنة أيضاً كانت توجد فى مصر ثلاثة أحزاب سياسية هى الحزب الوطنى . . وحزب الأمة . . وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية . ولكنها - بتعبير المرحوم عباس محمود العقاد - كانت أقرب إلى « أندية سياسية يجتمع فيها بعض الاصدقاء والزملاء المتعارفين ، ولا تتعدى حدود القاهرة والعواصم الكبرى » .

وكان المظهر الآخر لضعف تلك الأحزاب هو زيادة عدد الذين رشحوا أنفسهم

مستقلين عنها ، لعضوية الجمعية التشريعية الجديدة فى سنة ١٩١٣ وعلى رأسهم « الوزير السابق » سعد زغلول ، الذى قال فى برنامجه الانتخابى :

« . . . أقرأ فى الجرائد عبارات الشكوى الدائمة من سكان العاصمة ــ القاهرة ــ ولا سيما سكان الشوارع الوطنية . . تارة من قلة النور وتارة من قلة الكنس والرش ، وتارة من قلة التنظيم والرصف . فإذا انتخبت عضواً فى الجمعية التشريعية ، فإنى لن أدخر وسعاً فى عمل ما أستطيع عمله ضمن الحدود القانونية لحمل الحكومة على إزالة شكوى الأهالى من هذا القبيل » .

إن تركيز سعد زغلول فى برنامجه الانتخابى على سكان « الشوارع الوطنية » كانت له دلالة كبرى ، لأن شوارع القاهرة كانت اما « شوارع أفرنجية » للخواجات والإنجليز . . وسكانها لا شكوى لهم . . واما « شوارع وطنية » لأهل مصر . . وهؤلاء لهم بدل الشكوى ألف . . ولـكن لا أحد يستجيب لهم .

كان سر هذا مجرد مظهر واحد من مظاهر الاحتلال البريطانى لمصر . . وهو الأمر الذى لم ادرك معناه إلا فيما بعد .

المهم . . إن هذا لم يكن سوى انعكاس بسيط لحالة مصر فى سنة ١٩١٣ .

كانت مصر ــ اسميا ــ تحت السيادة العثمانية . . وفعلياً تحت الاحتلال العسكرى البريطانى من قبل ذلك بـ ٣١ سنة . وكانت إيطاليا قد احتلت ليبيا عسكرياً فى ١٩١١ ، كما احتلت فرنسا الجزائر منذ ١٨٣٠ . . . الخ . . . . . الخ .

أما الحالة الداخلية فى مصر نفسها فيكفى لتصويرها مقياس واحد : أن معظم الأساتذة فى المدارس المصرية كانوا من الانجليز . و « . . كانت العلوم كلها ، خلا اللغة العربية ، طبعاً ، تدرس بالإنجليزية . كانت الرياضة . حسابا وهندسة وجبرا ، وكانت الطبيعة والكيمياء ، بل كانت الجغرافيا وكان التاريخ ، ومنه تاريخ مصر وجغرافية مصر ، تدرس كلها فى المدارس باللغة الإنجليزية[1] .

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية : د. محمد حسين هيكل .

وكان أشد ما يتدخل فيه الإنجليز ، غير التعليم ، هو مجالين أثنين بالذات الحياة البر لمسانية ، والزراعة . أما الأولى فقد كان خديوى مصر ، فى سنة ١٩١٣ وهو الخديوى عباس الثانى ، لا يستطيع التصرف إلا بموافقة السلطة الفعلية فى البلاد ، وهى الاحتلال البريطانى . ولذلك فإن صدور القانون النظامى فى سنة ١٩١٣ كان بناء على مشورة اللورد كتشنر مندوب الاحتلال فى مصر .

أما فى الزراعة فكان مفتش الرى الإنجليزى هو كل شىء فى نظارة (وزارة) الأشغال فإذا جاء مفتش الداخلية أو مفتش الرى إلى مديرية من المديريات أو مركز من المراكز ، ارتجت المديرية وارتج المركز ، واضطرب الموظفون المصريون كبارهم وصغارهم . . فزعا من ملاحظة يبديها هذا المفتش الإنجليزى يسوء أثرها فى مستقبل حياتهم كله . فإذا آن لهذا المفتش أن يغادر المركز أو المديرية بعد أن يمسك مأمور المركز بركاب الجواد الذى يمتطيه حتى يعلو جناب المفتش ظهره . وهنا قبل أن استرسل فإن هناك واقعة نذكرها اطفالا ونتوارثها جيلا بعد جيل ، وهى شجاعة شيخ قريتنا (الشيخ حسن زاهر) وكان الرجل أشقر اللون شعره أبيض وعمامته دائماً بيضاء نظيفة وكان لا يقرأ ولا يكتب ولكنه كان يتمتع بحب أهل القرية له وكان للرجل مهابة خاصة ، وتذهب الرواية أن مفتش الرى الإنجليزى جاء للتفتيش على بعض الشئون فى البلد ممتطيا حصانه ، ومعه ويحيط به عدد من الخفراء بزيهم المعروف فى ذلك الوقت اللبدة الطويلة بنية اللون وعليها الشارة بالطول بلون آخر وبالطو بنى بزراير صفراء والبندقية فى كتفه ، وذهب الشيخ حسن زاهر بصفته نائباً للعمدة لمقابلة المفتش وكان المفتش يقف بجوار ترعة صغيرة قد اطلقت المياه فى مجراها فى غير الدور المحدد لذلك ، وكان الذى أمر بفتحها هو الشيخ حسن زاهر نفسه دون انتظار للدور تلبية لطلب الفلاحين لحاجتهم إلى المياه فسأل المفتش وهو فوق الحصان من الذى أمر بفتح هذه الترعة ومن هو المجرم الذى أمر بذلك ونظر إلى نائب العمدة طالبا منه القبض على هذا المجرم فوراً ، وقال الشيخ حسن : « طول بالك يا خواجه . . أنا الذى أمرت بفتح هذه الترعة بناء على طلب الأهالى وحاجة الأرض » . وهنا رفع المفتش كرباجا فى يده وأراد

أن يهوى به على الشيخ نائب العمدة . بل ودفع الحصان نحو الشيخ الذى سارع للدفاع عن نفسه بأن أمسك بلجام الحصان وفى نفس الوقت قبض على رجل المفتش وهوى المفتش على الأرض بين صيحات أهل البلد إعجاباً ودفاعاً عن شيخهم وتجمهر الناس وأخطر العمدة وكان المرحوم حسنين بك مرعى وقتئذ وكان هو الآخر محبوبا ومحترما من الأهالى الذى سارع بالذهاب إلى هناك ورأى التجمهر والتحرش وقد بدأ بالمفتش وسارع لتهدئة الموقف وسارع بأخذ المفتش إلى الدوار لتهدئة خاطره وخاطر الأهالى وحصر المشكلة فى أضيق الحدود وتنفس الكل الصعداء وحمدوا الله على سلامتهم وسلامة بلدتهم وسلامة المديرية كلها .

فى إحدى تلك المديريات توجد قريتى التى ولدت فيها فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩١٣

إن المديرية هى الشرقية ، والقرية هى العزيزية .

إن القرية تقع على ضفاف بحر مويس ، وفى بيت والدى أحمد مرعى تفتحت عيناى على الدنيا لأول مرة . أن البيت نفسه كان مبنياً من الدبش الأبيض ، ويتكون من طابقين وسط حوش صغير ملىء بأشجار التوت .

فى هذا البيت التقطت إذنى أول خيط عن تاريخ عائلتنا : من أين جاءت جذورها ؟ . . وكيف تكونت فروعها ؟ . . أننا لا نسمى عائلة مرعى . . ولكن اسمنا الأصلى « عائلة نصر » لأننا ننتسب إلى جدى الأكبر شيخ العرب « نصر إبراهيم نصر » الذى نزح من شبه الجزيرة العربية . . وكان موطنه فى نجد . . وجاء إلى منيا القمح فى أوائل القرن الثامن عشر . . ولكنه لم يستقر فى منيا القمح طويلا وانتقل بعمله وثروته إلى العزيزية . . وكانت هذه الثروة تتمثل فى قطيع الجمال والأبقار التى يقوم بالتجارة فيها .

واستطاع الجد الأكبر أن يجمع ثروة صغيرة من تجارته . . ولكنه اكتسب فى نفس الوقت حب قريته لأمانته واخلاقه لدرجة أن أهلها اختاروه أول عمدة

للعزيزية ، وجاء بعد شيخ العرب نصر ابنه الذى اسماه « مرعى » وكان أسعد حالا من جدى الأكبر ولكنه اختار طريقاً آخر غير التجارة ، وركز جدى « مرعى إبراهيم نصر » على تجارة الأخشاب فى البداية والصورة التى يروونها عنه :

أنه كان يذهب إلى القاهرة ويشترى الأخشاب من تجار الجملة فى روض الفرج ثم يشحنها بالمراكب عبر بحر مويس إلى قريتنا ، وهكذا مضى فى تجارته طوال سنوات شبابه حتى تكونت عنده ثروة معقولة ، واجتذبه الأزهر وترك القرية وذهب إلى رواق بالمسجد العريق لكى يتلقى أصول الدين والعلم والمعرفة ، ولكنه لم يحصل على شهادة العالمية ولم يسر فى الشوط حتى آخره ، وعاد إلى العزيزية مرة أخرى بعد أن وصل إلى ما يعادل المرحلة الثانوية .

وأنجب جدى مرعى أربعة أبناء منهم أبى « أحمد مرعى إبراهيم نصر » وهذا هو اسمه بالكامل — وورث كل واحد منهم جانباً من الثروة وكان تتراوح بين خمسين فدانا وستين فدانا لكل ولد .

وأتوقف هنا قليلا لكى أعطى صورة الواقع فى ريف مصر خلال تلك الفترة :

كانت الملكية الزراعية وقتها بلا حدود . . ولكنها متركزة فى أيد قليلة ، بحيث يمكن أن تصل ملكية أسرة واحدة إلى عدة آلاف من الأفدنة ، وكانت مساحة كل تفتيش تصل من سبعة آلاف إلى عشرة آلاف فدان .

ولذلك كانوا ينظرون إلى ملكية الخمسين فدانا كما لو كانت نصف فدان — الآن — ولكن الوضع فى قريتنا كان مختلفا لأن زمام العزيزية كله لا يتجاوز خمسة آلاف فدان ، وكانت هذه المساحة موزعة على عائلات القرية وكانت ملكية الواحد منهم لا تزيد على الستين فدانا — فى أحسن الأحوال — وكانت قريتنا تمتاز بعدالة توزيع الملكية حتى قبل الإصلاح بسنوات طويلة وكانت هناك ظاهرة أخرى تمتاز بها العزيزية هى أن نسبة الأمية فيها كانت ضئيلة بالنسبة لغيرها لأن معظم أهلها كانوا قادرين على تعليم أولادهم فى المدارس وكان هناك سباق بينهم فى هذا الاتجاه . . ويمكن أن يقال أنهم فلاحون متنورون بالفطرة . . كل هذه

الملامح الاجتماعية المميزة خلقت نوعاً من صلة القربى والترابط بين العائلات وبعضها . . كانت الحياة تمضى على هذه الصورة فى قريتنا وكانت أراضى الزمام محدودة وشبه موزعة بين العائلات التى تعيش فيها ، وكانت اهتمامات أهلها تنحصر فى الزراعة . . ولذلك كانت تواجههم مشكلة عندما يفكرون فى الانطلاق بجهدهم ويتطلعون إلى شراء أراض زراعية جديدة ، واتجه أبى — مثل غيره — إلى الصعيد واشترى مساحة من الأراضى الزراعية — فى « أبى قرقاص » فى المنيا .

فى تلك الآونة ، وفى إطـــار تلك البيئة الريفية وتقاليدها الموروثة كانت تعيش عائلة « أحمد مرعى نصر » كنا سبعة اخوة نعيش تحت سقف واحد فى ذلك البيت . . أكبرنا أمينة . . ثم حسن ، ثم أنا ، ثم مرعى ، ثم عزيزة ، فعمر ، فعائشة .

ومثل كل الأطفال ، دخلت كتاب العزيزية لكى أتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وما زالت صورة « سيدنا » والفلكة واللوح الاردواز محفورة بعمق فى ذكريات طفولتى .

ولكننى ، عندما بلغت السابعة من عمرى انتقلت إلى القاهرة لكى أواصل دراستى ، بعد الكتاب ، وكان أخى الأكبر حسن قد سبقنى إلى المدرسة الابتدائية . ولم يكن الانتقال صعبا ، لأن القاهرة تبعد ٤٠ كيلومتراً فقط عن قريتنا .

ولقد كان الانتقال إلى القاهرة ، فوق أنه ضرورة تعليمية ، يمثل أيضاً ضرورة حضارية .

فى القـــاهرة لأول مرة :

لقد جئت القاهرة ، مع أسرتى ، لأول مرة وعمرى سبع سنوات تقريباً كما ذكرت ، أى فى سنة ١٩٢٠ ، لأن أقرب مدرسة ابتدائية إلى قريتنا كانت فى القاهرة . فى تلك المرة الأولى التى جئت فيها إلى المدينة الكبيرة كان أول ما بهرنى بالذات هو : الكهرباء . . وعربات الحنطور . . والترام .



مع اخي مرعى الذى يظهر الى يسارى فى شرفة أول منزل انتقلنا اليه من القرية الى القاهرة سنة ١٩٢٣ . وفى الصورة يظهر كلانا حاملاً العلم المصرى الاخضر ذو الهلال والنجوم الثلاث .



مع اخـــى مرعى الذى يظهر الى يســـارى ونحن تلامذة فى مدرســـة العباســـية الابتدائيـــة ١٩٢٨ .



فى مدرسة العباسية الابتدائية سنة ١٩٢٨ ، والثلاثة الذين فى المقدمة هم من اليمين الى اليسار : بهجت أفندى مدرس الألعاب البدنية ، ثم الناظر ، ثم الشيخ عبد العظيم مدرس اللغة العربية .

أما الكهرباء ، فكانت بالنسبة لى . . فى طفولتى المبكرة تلك . . اختراعا مدهشا يستعصى على الفهم . ان أقصى ما رأيته فى قريتنا هو الكلوب الذى تعتبر إضاءته من قبيل الوجاهة . . لأن القاعدة هى انتشار لمبات الجاز .

أما هنا فى القاهرة ، فالقاعدة هى تلك اللمبات المدلاة من أسلاك . . وتضىء من مجرد ضغطة على زرار ، وبغير حاجة إلى وقود أو كيروسين .

وأما عربات الحنطور ، فلأن قريتنا كلها لم تكن فيها أكثر من عربة حنطور واحدة ، هى بالصدفة التى نملكها . ولكن هنا فى القاهرة ، توجد المئات منها . . وتستطيع أن تسمع أجراسها فى كل شارع . . حيث هى إحدى الوسائل

الرئيسية للمواصلات . لقد كانت وسائل المواصلات الأساسية ثلاثة : الحمير . . وعربات الحنطور والترام .

أما الحمير فهي الوسيلة الشعبية لانتقال الناس . . ولها مواقف معينة أكبرها عند فندق شبرد القديم . أما عربات الحنطور فهي وسيلة متوسطي الحال أو أعلى قليلا . . بعد أن كانت من قبل هي وسيلة الأغنياء . . ثم جاء الترام لكي يصبح هو وسيلة الانتقال العصرية .

لقد بهرني في الترام سرعته المدهشة ، ولمعان قضبانه . . إلى درجة أنني كنت أقضي وقت فراغي في الركوب من محطة إلى أخرى والعودة إليها قبل أن أضل الطريق لأن كل هذا سوف يصبح مادة مدهشة ومسلية ومبهرة لزملائي من صبيان القرية ، عندما أعود في الإجازة الصيفية . . وأحكي لهم عن كل هذه الاختراعات العجيبة في القاهرة .

وحتى تلك الآونة ، لم تكن القاعدة هي إقامتنا في القاهرة . . وإنما الأساس هو أننا نقيم في قرية العزيزية ، ولكن الأسرة تأتي معنا إلى القاهرة سبعة أشهر ، هي مدة السنة الدراسية ، تتخللها زيارات متقطعة يقوم بها والدي إلى القرية .

في ذلك الوقت كانت أحياء القاهرة تكاد تكون منعزلة عن بعضها البعض ، بحيث أن الأسرة لا تنتقل من حي إلى حي – حتى باستخدام الترام ، إلا في المناسبات والأعياد الهامة . وكان مستوى الأحياء نفسها يخضع لتطور وتغيير اجتماعي مستمر ، ففي البداية كنا في القرية نسمع عن القاهرة باعتبارها هي « السيدة زينب » . . . والذين يسكنون فيها هم مجاورون لـ « أم هاشم » . بعدها بدأ صيت حي « البغالة » . . وبعده منطقة « **العباسية** » . .

ولقد كانت إقامتنا نحن هي في الحي الأخير (العباسية) . وعندما انتقلنا إليه لأول مرة ، استخدمت الأسرة في هذا الانتقال كل وسائل المواصلات القديمة والحديثة . فمن العزيزية إلى القاهرة استخدمنا المراكب النيلية ، نظراً لضخامة « العزال » الذي جئنا به . إن الأسرة الريفية وقتها كانت معتادة على أنها عندما

تأتى من القرية إلى القاهرة . . إنما تأتى معها بكل لوازم الحياة من الملبس إلى المأكل إلى القمح والسمن والدقيق والخبز . بل إن والدى أصر على أن نقيم فى منزلنا بالعباسية فرنا لكى تصنع فيه الأسرة خبزها بنفسها . . حيث أن شراء الخبز من الأفران الخارجية هو فى نظر الأسرة الريفية وقتها — عيب .

هكذا جئنا بحاجياتنا كلها إلى القاهرة بالمركب ، ثم بعربات الكارو إلى العباسية ، إلى أن بدأنا بعد الاستقرار نسمع عن الترام ونألفه ونطمئن إليه . . وأخيراً ، نستخدمه .

استقرت الأسرة فى القاهرة إذن فى سنة ١٩٢٠ ، فى أول إقامة مؤقتة ، وبهدف محدد هو إتاحة الفرصة لأخى حسن ، ولى ، ثم لمرعى ، لدخول المدرسة الابتدائية . .

حياة المدرسة والشارع :

كان اسمها مدرسة السيدة نفيسة .

وكانت مدرسة السيدة نفيسة تغييراً كبيراً بالنسبة لنا على الأقل بها حجرات . . أكثر من حجرة . . وبها تخت كل طالبين تختة وكرسى لكل واحد « حاجة عظمة » .

وفوق ذلك كله . . أننا هنا نرى سبورة لأول مرة ونجلس على تختات ، ومواعيد بدء ونهاية اليوم الدراسى منتظمة ، والدراسة فيها على فترتين يومياً .

وكان الذهاب إلى المدرسة متعة كبيرة لى ، بالرغم من أنه لم يكن كذلك بالنسبة لأخى الأصغر مرعى . لقد كان مرعى أكثر شقاوة منى ، وكان يرفض من الأساس أن يذهب إلى المدرسة إلا « محمولا على الأكتاف » . أن عصيانه كان يدفع بواب المنزل الطيب ، عم محمد ، إلى أن يحمله على كتفه حتى قبيل المدرسة ، بينما مرعى يصرخ ويصر على رفض الذهاب إلى المدرسة . . ويظل على هذه الحال إلى أن يقترب عم محمد من المدرسة فيطلب منه مرعى إنزاله ، لكى لا يدخل المدرسة محمولا على الأكتاف فيسخر منه زملاؤه .

مع ذلك ، لم تكن المدرسة حكومية ، ولكنها كانت أهلية بمصروفات بسيطة . وكنا ندرس فيها الدين واللغة العربية والحساب . وكانت الأناشيد دينية ، فالأناشيد الوطنية ممنوعة حتى لا تثير الحماس فى النشء ، وكانت المدرسة قريبة من الشارع الذى كنا نسكن فيه بالعباسية — شارع ماهر .

وفى هذا الشارع اكتشفنا نوعاً آخر من الحياة يختلف عن الحياة فى قرية العزيزية ، وان كان أقرب ما يمكن منها ، لأن معظم الأسر هنا أيضاً ريفية ، أو جاءت من الريف منذ مدة قصيرة ، أو لها جذور ما زالت ممتدة فى الريف .

فى هذا الشارع مثلا ، كان من التقاليد الاحتفال بكل وافد جديد للإقامة . أنها جزء من تقاليد شرقية كاملة للمجتمع وقتها ، بحيث إذا وفد ساكن جديد فى المنطقة ، يتناوب السكان القدامى تقديم وجبات الطعام إليه ، فتخرج صوانى الغذاء من هذا المنزل ، وصوانى العشاء من منزل آخر ، وغداء اليوم التالى من منزل ثالث . . وهكذا ، وفى كل مرة يقدم له السكان القدامى أنفسهم لأنه من الآن فصاعداً بدأ الساكن الجديد يصبح واحداً من الأسرة الكبيرة التى يضمها الشارع .

وكانت الحكمة من هذا التقليد ، كما عرفت فيما بعد ، هى أن كل وافد جديد يكون مرهقاً فى أيامه الأولى بعملية الانتقال وترتيب المنزل ، بحيث أن فى توفير الطعام له تخفيفا لجزء من العبء والإرهاق . . له ولأسرته . . ومن ناحية أخرى كان معروفاً فى الشارع كله أن لكل منزل يوماً فى الأسبوع يسميه « يوم الاستقبال » . فى هذا اليوم يكون المنزل مفتوحاً للضيافة ، سواء ضيافة المعارف من سكان نفس الشارع ، أو المعارف من أحياء أو شوارع أخرى فى المدينة .

وكان أكثر البيوت ضيافة فى هذا الشارع هو بيت محمود أفندى حلمى . لقد كان يعمل كاتباً فى التجنيد ، ومن ثم فهو موظف فى الحكومة ، أو ربما بالنسبة لسكان الشارع هو الحكومة نفسها ، ويفترض فيه أنه يلم بكل ما يتعلق بالحكومة .

وكان يوجد أمام منزل محمود أفندى رصيف كبير مغطى بالرمل . . وبعد ظهر كل يوم تصف الكراسى فوق هذا الرصيف ، ويتوافد أعيان الشارع ، يجلسون معاً ويتشاورون أو يتناقشون فى الموضوعات العامة . وكان مكان والدى فى هذا المجلس ثابتاً دائماً . . لأن والدى كان متنوراً بما يجعله شغوفاً باستمرار بمناقشة المسائل والمشاكل العامة .

لقد تعلم والدى حتى ما يقرب من المرحلة الثانوية ، كما كان يذهب إلى الأزهر من وقت لآخر ، وله أصدقاء من الذين يدرسون فى الأزهر ، يحصل منهم على كتبهم الدراسية فى الآجازة الصيفية ، وحتى سنوات طويلة تالية كنا نحب دائماً أن نرجع إلى الكتب التى كان يحتفظ بها ، ومنها كتب فى الفلك والزراعة واللغة الإنجليزية .

ولأن الآباء فى شارع ماهر كله ، وبالتالى الأبناء ، كانوا يعرفون بعضهم بعضا بالاسم وبالاسرة . . فإن الشجار وسوء التصرف كان نادراً نظراً لأن الواحد منا كان يخشى بشدة أن يشكوه أحد إلى أبيه . ولكن هذا لم يجد طبعاً من النشاط الاجتماعى لنا كصبية ، سواء فى المدرسة أو فى الشارع . فى الشارع مثلا كنا نخرج معاً إلى مص القصب ، فالعود بملاليم ، وأحيانا نشترى « لبشه » القصب ، وهى حوالى أربعين عوداً بثلاثة قروش . . أو نشترى نوعاً من الشمام اسمه « الشمام السنطاوى » ، كان حلو المذاق جداً ، والواحدة — كبيرة وضخمة — ثمنها قرش صاغ ، ولم يكن يحلو لنا أكل الشمام أو مص القصب إلا فوق كوبرى السكة الحديد فى الزيتون أو المطرية لكى نستمتع برؤية القطارات وهى تمر من تحت الكوبرى .

أما النزهة الحقيقية لنا كصبية فى تلك الأيام ، فكانت هى ركوب الترام ، وقتها كانت التراموايات مكشوفة وغير مغطاة ، فكانت فى الصيف جميلة جداً وفى الشتاء صواريخ من البرد . وكانت تذكرة الدرجة الأولى بقرش صاغ والدرجة الثانية بستة مليمات ، كان الترام المفضل لنا فى تلك الفترة هو رقم ٢٢ ، وهو الذى يعمل من العباسية إلى السيدة زينب والمدبح والسلخانة .



وقت تسجيل هذه الصورة لم يكن فن التصوير قد تطور التطور الذى نلمسه اليوم .. هذه الصورة ترجع الى بداية هذا القرن وهى لأبى فى قرية العزيزية يتجول فوق حماره ومعه مجموعة من الفلاحين فى الأرض .

ولأننا كنا تلامذة قادمين من « الأرياف » فلقد كان يبهرنا من تلامذة القاهرة أنهم يستطيعون القفز من الترام أثناء سيره . وبرغم مرور المدة على إقامتنا بالقاهرة ، إلا أننا لم نجرؤ أبداً على ممارسة هذه المهارة السحرية.

ولقد حدث مرة أن المدرسة قررت القيام برحلة إلى الهرم . واستأجرت لنا المدرسة تراما خاصاً من شركة الترام لكى يضم تلاميذ الرحلة كلهم وعليه يافطة « مخصوص » فلا يقف فى المحطات . . ولا يركبه الناس .

وفى طريق عودتنا من الرحلة كان الترام سيعود إلى منطقة البداية ، وهى أبعد كثيراً من شارعنا . وتشاورنا . مجموعة تلاميذ شارع ماهر ، ومن بينهم أخى مرعى وأنا . . ما الذى يجعلنا ننتظر فى الترام حتى محطته الأخيرة ؟ لماذا لا نقفز أمام شارعنا ونوفر بذلك مسافة من السير على الأقدام ؟ . . وفى نفس الوقت ، نتعلم تلك القدرة السحرية على القفز من الترام أثناء سيره .

وبدأ الجميع يقفزون واحداً بعد الآخر ، إلى أن جاء الدورعلى أخى مرعى . واستعد مرعى ، قرأ الفاتحة ، وقرأتها أنا معه فى سرى . . ثم توكل على الله . .

وقفز من الترام ، ويبدو ان مرعي خلط بين أرض الشارع وبين حمام السباحة ، لأنه فى الواقع سقط على وجهه فى أرض الشارع ، وعندما عدت أنا إلى المكان – سيراً على الأقدام بالطبع– كان الناس ملتفين حوله ، وهو نفسه . . أقدامه متسلخة ووجهه جريح وكلماته التى يتمتم بها لى قليلة ، ولـكن معبرة : توبة . . توبة إن كنت أعمل طرزان تانى . .

أما فى المدرسة فقد كان فشلى أنا فى الدراسة يتساوى مع فشل مرعى فى القفز من الترام . كان عيبى أننى كنت أسرح مع خواطر بعيدة خلال الحصص ، بحيث لا أفقه شيئاً مما يقوله المدرس . . ولذلك توالى رسوبى عدة مرات – وأصبح هذا الرسوب قاعدة معروفة فى المدرسة – حتى وصلت بصعوبة إلى الشهادة الابتدائية . . وعندما دخل المدرس الفصل نظر لى وقال : لا أريد أن أرى وجهك ثانية هنا . . وكانت هذه الكلمة بمثابة التحدى الشخصى وكانت قسوتها أشد من الضرب المبرح . . وأخذتها بطبيعة الفلاح وصممت بينى وبين نفسى على قبول التحدى وقلت :

لابد أن أثبت له خطأ نظريته . . ولابد أن أحول هذا الفشل إلى نجاح . .

كانت هناك امتحانات شهرية – وقتها – لاختبار قدرات التلاميذ أولا بأول ومتابعة تحصيلهم . . وركزت ذهنى أستذكر دروسى ليل نهار ودخلت امتحان الشهر الأول وجاء ترتيبى الأول . . ولـكننى فوجئت بأن نفس المدرس يدخل الفصل ويقول لى أمام زملائى :

حقيقى أن سيد مرعى طلع الأول . . ولـكننى متأكد أنه لن يكون كذلك فى امتحان الشهر القادم .

وازدادت درجة التحدى الصامت من جانبى وقررت أن أؤكد للجميع جدارتى بهذا التفوق . . واجتهدت أكثر وأكثر . . وجاء ترتيبى الأول أيضا . . ولـكن عندما دخل المدرس الفصل قال :

أنا أعلم أن سيد مرعى يحاول التقدم . .ولـكنه لن يحافظ على هذا المستوى . .

ووصل التحدى إلى ذروته ، وفى الشهر الثالث كنت الأول . . وهكذا حتى نجحت بتفوق فى الامتحان العام للشهادة الابتدائية .

ورأيت السينما :

وكانت أول مكافأة لى على نجاحى هى أن أدخل السينما . . لأول مرة . .

كنا نسمع عن السينما فى المدرسة ، ولم يكن يوجد سوى سينما الظاهر وسينما « أولمبيا » . . وسينما « إيديال » . . ثم سينما « رمسيس » فيمابعد وكانت كل سينما ترسل كل يوم خميس أحد عمالها ، ومعه مجموعة مطبوعة من الإعلانات ينتظر بها أمام المدرسة لكى يتخاطفها التلاميذ ساعة خروجهم . وأذكر أننى حصلت مرة على إعلان مطبوع عليه صورة جريتا جاربو وهى ممثلة شهيرة وقتئذ . . كنا من المعجبين بها وقتها ، رغم أن أحداً منا لم يدخل السينما . إن الصورة كانت طباعتها قبيحة للغاية ، ولكن خيالنا تكفل بتعويض ملامح الصورة .

المهم . . ذهبت إلى السينما ، وكان اسم الفيلم « الغواصـــة الغامضـــة » الذى كانت شهرته مدوية ولأن السينما وقتها كانت ما تزال صامتة . . فلقد كان هناك شخص يقف بجوار الشاشة اسمه « المفهماتى » . . كل مهمته هى أن يشرح لنا أحداث الفيلم ، ويتنبأ لنا بما سيحدث منها ، على الأقل ليعوض ثمن التذكرة ، وهو قرشان للبريمو وقرش فى الترسو .

علماً أن الشيء الذى كان يسلينا فعلا أكثر من السينما هو السيرك . وكان بطل السيرك المشهور وقتها هو عبده سليمان ، وفى حفلاته تذكرة البريمو بثلاثة قروش و « السكندو » بقرشين . . وفى الخلف بقرش صاغ .

وكانت المصارعة هى اللعبة المفضلة فى هذا السيرك ، وفى كل مرة يقدمون لنا المصارع باعتباره « بطل البنغال » . . بغير أن نعرف أين توجد البنغال هذه . . بل وبغير أن يعرفها البطل نفسه .

فى تلك الفترة بدأت هوايتى لأول مرة تتجه إلى الموسيقى، وبالذات عزف الكمان وكان السبب فى اتجاهى إلى تلك الهواية هو زميلى فى الدراسة صلاح طاهر — الفنان صلاح طاهر فيما بعد . لقد استهوانى مشهد صلاح وهو يعزف ، وبالصدفة كان مدرس الرياضة فى المدرسة يعزف هو الآخر ، فسألته عما إذا كان العزف سهلا فشجعنى على ذلك تماماً .

وكنت أتوقع معارضة من أبى ، إلا أنه وافق على الفور ، واشترى لى « كامنجه » بـ ١٢٠ قرشاً وجاء لى بمدرس اسمه الياس . .

ولكن السيد / الياس صمم على أن أبدأ تعليمى بتعلم النوتة . وكانت النوتة صعبة على . . فبدأت أعزف سماعى . . بعد عودتى كل مساء من حصة الموسيقى ، وهى حصة اختيارية ، الاشتراك فيها شهرى يتراوح بين ١٥ و ٢٠ قرشاً . . والشىء الذى استطعت أن أتبين معالمه من عزفى هو أننى أعزف شيئاً يمكن أن يكون قريباً من « السلام الملكى » الذى كنا نتعلمه .

وتأكد لدى فعلا أننى أعزف السلام الملكى، كان يأتى الينا ضيوف فى المنزل فينادى على أبى ليطلب منى أن أعزف لهم : السلام .

وبعد العزف يسأل الضيوف : إيه ده ؟

فيرد أبى : ده . . السلام الملكى . .

ويقتنع الضيوف ، بأن أى شىء سيسمعونه غير هذا فيما بعد لن يكون هو السلام الملكى . . حتى لو كان فعلا هو السلام الملكى الحقيقى . . إلى هذا الحد كان الفرق بين طريقة عزفى وبين النغم الحقيقى — فلاح يبتدىء ينقل نقله كبيرة إلى الكمان دون أن يمر بطريق الربابة مثلا .

* * *

عـودة إلى الريف :

كان الصيف قد بدأ والاستعدادات للعودة إلى القرية قدتمت بعد أن نلت الشهادة الابتدائية ، عندما عدنا فعلا إلى العزيزية فى تلك السنة لكى نقضى هناك أشهر الصيف كما اعتدنا كل سنة .

وكما اعتدنا كل سنة أيضاً كان لنا فى القرية مجتمع آخر . . ورفاق آخرون وحياة أخرى ولكننى فى هذه المرة ذهبت إلى الصنافين بدلا من أن أذهب إلى العزيزية كما فعلت الأسرة . كان ابن عم والدى – واسمه الحاج أحمد عبد الله يمتلك عزبة فى الصنافين مساحتها أربعمائة فدان ، وكان شخصية محببة إلينا جميعاً – إلى الدرجة التى جعلتنى أتأثر بشخصيته إلى حد كبير . إنه ابن عم والدى وفى نفس الوقت متزوج من عمتى – أخت والدى .

وكان الحاج أحمد رجلا من أعيان الشرقية ، يرتدى جبة وقفطانا وكريما بدرجة غير معقولة وله طريقة خاصة فى التعامل مع الناس ومع الحياة . فى مدخل عزبته يوجد بيت صغير مكون من حجرتين بلا أبواب . وفى أى وقت من أوقات الليل أو النهار هناك دائماً فى هذا البيت نور مضاء وكنكة وفناجيل نظيفة وكمية كبيرة من البن والسكر وصبى يتولى تقديم القهوة لكل من يدخل هذا البيت أو يمر بالقرب منه . إن كل عابر يستطيع أن يدخل فى أى وقت ، وبغير أى علاقة أو معرفة ، ويتناول فنجان القهوة ويتركه لينصرف . . بينما الصبى يتولى غسل الفناجين وإعداد القهوة لوافد جديد . . فى الوقت الذى يوجد فيه بالحجرة الأخرى صبيان آخران أحدهما يحمص البن القادم من اليمن فى « مقاطف » . . والآخر يطحنه .

وفى المواسم أو الأعياد يتحول هذا البيت إلى مطبخ يقدم الطعام واللحوم للأهالى ، الذين تعتبر دعوتهم مفتوحة فى أى وقت وبنفس طريقة فنجان القهوة . أما فى رمضان على وجه الخصوص فإن الحاج أحمد كان يشترى البندق واللوز

وقمر الدين والحلوى بكميات ضخمة لكى يوزعها على الأهالى . . وكانت الكميات من الضخامة بحيث أن جزءاً منها يتبقى للعام التالى .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحاج أحمد عبد الله كان نموذجاً مبكراً للاشتراكية بالسليقة أو بالطبيعة ، ولهذا كانت شعبيته فى المنطقة واسعة وبلا حدود . لقد كان يوزع أرضه بنظام المشاركة . فكان يقسم المزارعين إلى مجموعات . . كل مجموعة من عشرة أو خمسة عشر فلاحا . . وتخصص لهم مساحة من الأرض يزرعونها ويشرفون عليها ولهم نصيب محدد من محصولها . . بخلاف كل احتياجاتهم المعيشية والاستهلاكية . وبخلاف مسئوليته عنهم فى حالات الأفراح والمآتم .

ولقد كان الحاج أحمد متعلقاً بالأرض والريف إلى الدرجة التى كان يرفض معها تماماً مغادرتها ، فهو باستمرار يقيم مع أولاده فى الريف ، متفرغاً لأرضه ولرعاية الفلاحين فى عزبته ، فكان يعرفهم بالاسم واحداً واحداً . . والجميع يعتبرونه كبير الأسرة الذى لا يمكن أن يصدهم بالنسبة إلى أى مطلب ، أو يتخلف عن تأدية أى واجب . وعند أى مشكلة يستطيع الشخص أن يجده فى مكانه المعتاد دائماً . . جالساً أو نائماً على مصطبته فى مدخل « الدوار » وواضعاً يده على وسادة بجانبه وفى اليد الأخرى مسبحته .

وأخيراً عدت إلى « العزيزية » لكى أنضم إلى أخوتى واستكمل الإجازة الصيفية قبل أن نعود إلى القاهرة لدخول الثانوى .

وفى تلك الفترة توقفت الحياة فجأة عن هدوئها ومتعتها بعد أن تدخلت فى حياتنا « مأساة مروعة » . . ملأت الدموع عيون أمى لفترة طويلة . . وشحنت منزلنا بالحزن والأسى .

فعلى عادتنا فى الريف وقتها ، كان المألوف من الصبيان أن يتجمعوا معاً فى وقت الفراغ . . ويستحموا فى « بحر مويس » وفى تلك المرة انضم إليهم أخى محمد ، وكان عمره وقتها هو ١٦ سنة . وفجأة جرفه التيار وغرق فى النهر خلال لحظات .

ودخل السواد بيتنا لأول مرة . . وتحول كل ركن فيه إلى ذكرى مؤلمة ترتبط بالفقيد الراحل فى ريعان الشباب .

وحاول أبى أن يخرج بأمى وبنا وبنفسه من هذا الإطار الحزين . . بغير جدوى فلقد كانت لمحمد فى كل ركن من المنزل ضحكة أو صحبة أو ذكرى ولم يكن هناك حل إلا القرار الذى أتخذه أبى . . فخرجت الأسرة كلها من قرية « العزيزية » إلى « كفر الأربعين » وتركت ذكرياتها المؤلمة فى البيت الحجرى القديم – الذى تبرعنا به فيما بعد للخدمات الصحية والاجتماعية فى قريتنا ، فأصبح جزء منه عيادة طبية وجزء آخر عيادة بيطرية وجزء ثالث للرعاية الاجتماعية .

كانت « كفر الأربعين » هى مزرعة مجاورة لقريتنا اشتراها أبى ولم يقم فيها ، وسوف تكون هى فيما بعد نقطة الانطلاق لكل المشروعات الزراعية الجديدة التى دخلتها .

أما فى تلك الفترة فلم تكن « كفر الأربعين » أكثر من مكان نفر إليه من حزننا الكبير . ونستقر فيه قليلا قبل أن نعود إلى القاهرة اضطراريا لاستئناف الدراســة .

* * *

الفصل الثانى

سنوات الشباب المبكر

كانت قضية جيلنا هى الاحتلال . . والتخلف .

أما التخلف فكانت مظاهره واضحة فى انتشار الفقر والجهل والمرض ، وفى عدم وجود صناعة محلية ، وفى مظاهر أخرى كثيرة فى حياتنا اليومية.

أما الاحتلال فقد كان أكثر بروزاً هو الآخر فى حياتنا اليومية .

لم تكن سنى تسمح لى بعد بالتعمق فى القضايا السياسية ، فأنا مازلت طالباً فى السنة الأولى من مدرسة فؤاد الأول الثانوية فى العباسية . . ولكن وجود الاحتلال العسكرى البريطانى كان يفرض نفسه على عقل ونفس كل مصرى مهما كان وعيه محدوداً .

فى العباسية ، الحى الذى نسكن فيه ، كانت توجد واحدة من الثكنات العديدة لجنود الإنجليز فى القاهرة . وكانوا يخرجون يومياً فى طابور سوارى ، وهم يمتطون الخيل ، ويسيرون بها مسلحين فى استعراض صباحى يبدأ من شارع السرايات (أمام كلية هندسة عين شمس الآن) . . ثم أمام المستشفى الإيطالى ، والمستشفى اليونانى . . ثم يعودون إلى ثكناتهم .

وكانت لهم ثكنات أخرى فى باب الحديد ، وفى قصر النيل ، لأن تجمعاتهم العسكرية كانت متركزة فى نقاط ومواقع محددة .

وقبل أن نأتى إلى القاهرة ،كنا نسمع عنهم فى قريتنا . فخلال سنوات الحرب العالمية الأولى كانوا يأتون إلى القرى ويجمعون الناس والجمال والحمير بغير إذن

أو تعويض . . ثم يخرجون بالجميع . . الجمال والحمير فى سيارات نقل ، والناس فى حبال وسلاسل سيراً على الأقدام . . وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم الإنجليز : المتطوعون المصريون للحرب فى جانب الإمبراطورية البريطانية .

والآن ونحن طلبة فى الثانوى .. ومواطنون فى مطلع الشباب . أصبحنا نراهم بالعين المجـــردة هنا . . فى القاهرة فى ثكنات قصر النيل مثلا ، كانت منخفضة عن مستوى الشارع ويحيط بها سور كبير . . كنا نراهم جالسين فى النوافذ بملابسهم الداخلية مجرد ملابسهم الداخلية ، وأسلحتهم . . بينما أقدامهم مدلاة من النوافذ .

وفى الشوارع كنا نراهم صباحاً فى طوابيرهم المسلحة . . أما مساء فكنا نراهم وهم خارجون من البارات سكارى . أو جالسون فى السينما ـ سكارى أيضاً وعندما يصبحون سكارى . . فلا ضابط لهم ولا وازع . إنهم يخطفون ويسرقون ويضربون ويدمرون . دون أن تستطيع قوات الأمن المصرية أن تتدخل .

ليس هذا فقط ، بل إن المواطن المصرى العادى . . لو أوقفه جندى بريطانى فى الشارع وجرده من النقود ، لا يستطيع أن يفعل معه شيئاً . إنه لو عارض سيواجه بالرصاص . ولو ذهب يشكو فلا يسمع أحد شكواه .فى تلك الفترة كان هناك ما يسمى بـ « الامتيازات الأجنبية » .

وبمقتضى تلك الامتيازات كان كل الرعايا الأجانب فى مصر تقريباً وليس الإنجليز فقط ، متمتعين بالاعفاء الشامل من الضرائب . . ومحصنين ضد الاستدعاء أو المحاكمة أمام المحاكم الوطنية . إنه يستطيع أن يسرق وينهب ويدمر ويقتل . . ثم يقول لك : أنا مالطى . . أو يونانى . . أو فرنسى . . أو إنجليزى . . أو طليانى . . يعنى : « أنا حماية » .

يعنى : لا تستطيع أن تفعل معه شيئاً سوى أن تشكوه إلى المحاكم المختلطة التى لا يمكن أن تقف بدورها فى صف المصرى ضد الأجنبى ـ أى أجنبى .

أما بالنسبة لنا – ونحن ما نزال طلبة فى الثانوى – فقد كان مظهر الاحتلال الأجنبى يبدو فى المكانة الخاصة التى تأخذها اللغة الإنجليزية إنها – فى تدريسها والاهتمام بها والتفتيش عليها والامتحان فيها – أهم مائة مرة من اللغة العربية أو أى مادة أخــرى .

وما زلت أذكر أول كتاب وزع علينا باللغة الإنجليزية ، حيث فى صفحته الأولى رسمت جاموسة فوقها صبى صغير ، وتحت الرسم جملة :

I am on a buffalo.

تلميــذ فى السياسة :

وكان كل مدرسينا من الإنجليز ، ومدرس اللغة الفرنسية فرنسى . . والجميع يأتون إلى المدرسة مرتدين قبعاتهم ، ولكن قبل دخول الفصول يرتدون الطربوش وكان معظمهم لا يستطيع أبداً أن يخفى نزعته الاستعمارية التى تحتقر كل ما هو مصرى وتمدح فى كل ما هو إنجليزى . . والقليلون هم الذين كانوا يظهرون بمظهر المعلم وحسب .

وأذكر أنه فى تلك الفترة انطلقت دعوة وطنية لمقاطعة البضائع الأجنبية مبتدئة بأبسط شىء ، وهو **الطربوش** . كانت الطرابيش لا تصنع فى مصر ، وإنما تستورد من النمسا التى تصدرها خصيصاً إلى مصر ، وتجاوبنا نحن فعلا مع تلك الدعوة الوطنية . . إلى أن فوجئنا بالمدرس فى الفصل وكان اسمه « مندرسن » يترك المــادة الدراسية ويكلمنا فى مبدأ مقاطعة البضائع الأجنبية .

كان مندرسن هذا يهودياً إنجليزيا ، وقد دخل الفصل فوجدنا نرتدى « **اللبدة** » الصعيدى مكان الطربوش . . فبدأ يتناقش معنا .

وحتى اليوم لا أنسى كلماته ، التى ارتدت ثوب المناقشة الهـادئة ، وإن كانت تقطر سما وتثبيطا للهمم .

قال مندرسن : أنتم منفعلون جداً بمقاطعة البضائع الأجنبية . حسناً لمـاذا تركزون على الملابس فقط ؟ لمـاذا لا تقاطعون المأكولات المحفوظة . وكلها أجنبية ؟ لمـاذا

لا تقاطعون الشيكولاتة .. وكلها أجنبية ؟ لماذا لا تقاطعون السيارات . . وكلها أجنبية ؟ لماذا لا تقاطعون التليفونات . . والقطارات والأوتوبيسات . . وكلها أجنبية ؟ .

ومع تلك التساؤلات والقضايا . . بدأ يتفتح وعيي السياسي . وساعد على ذلك أن السياسة نفسها كانت من البداية جزءاً لا يتجزأ في الحديث في بيتنا .

كانت ثورة ١٩١٩ فى الواقع ثورة كل مصرى ، أخذت معها الريف المصرى من الأعماق ، وخرج معها سعد زغلول بطلا يتمتع بدرجة ضخمة من الشعبية إلى درجة تحويله إلى أسطورة . . فكنا نسمع من الفلاحين فى قريتنا مثلا أن محصول الفول فى قرية مجاورة قد نما وكل ورقة مكتوب عليها « يحيا سعد » . .

ولكن الثورة أجهضت فى النهاية ، وصدر دستور سنة ١٩٢٣ ، وأصبح فؤاد ملكا على مصر ، وتعددت الأحزاب السياسية . . وبدأت دائرة الصراع على السلطة بين الأحزاب . . وهى سلطة وهمية لأن الجميع يعرفون أن الحاكم الفعلى فى مصر هو قوات الاحتلال .

كان سعد زغلول وقتها هو زعيم الأمة ورئيس حزب الوفد المصرى ، الذى هو حزب الأغلبية . وكان أبى ـ أحمد مرعى ـ وفدياً متحمساً . . يرى فى سعد زغلول النموذج الأصيل للسياسى الوطنى الشريف ، والصراع فى تلك الفترة عنيف للمحافظة على دستور ١٩٢٣ الذى أصبح أهم مكسب ديمقراطى للثورة .. بعد كفاح مرير وفى أعقاب ثورة ١٩١٩ ــ ومن هنا كان مبعث الحرص عليه والتمسك به فى مواجهة محاولات القصر وبعض السياسيين لإلغائه، ولم تدم فرحة الشعب طويلا بهذا الدستور وسرعان ما عطله محمد محمود « باشا » ومن بعده اسماعيل صدقى « باشا » الذى جاء وألغاه واستبدل به دستور ١٩٣٠ ، وسط هذه الدوامة من الصراعات السياسية والمعارك الحزبية كان الشد والجذب يدور بين الوفد والأحزاب الأخرى وكانت الانتخابات تمثل المرآة فى التعبير عن

الإرادة الشعبية ، ولذلك كانت محاولات تزويرها تجرى فى كل الدوائر لإسقاط مرشحى الوفد .

مشكلة فى الانتخابات :

وجاءت انتخابات سنة ١٩٢٤ — وكان المفروض أن يدخلها أبى عن دائرة العزيزية — باعتبارها من أكبر دوائر منيا القمح — ولكن حزب الوفد رشح حسن « بك » مرعى وهو ابن عمى مباشرة وقد تزوجت ابنته فيما بعد — بينما رشح أبى فى دائرة أخرى اسمها « الصنافين » المجاورة للعزيزية .

كانت المشكلة الكبرى أن « الصنافين » هى دائرة يحيى إبراهيم « باشا » رئيس الحكومة الذى يقوم باجراء الانتخابات . . ومعنى ذلك أن المعركة الانتخابية ستكون معركة ضارية . . وحدث خلاف كبير فى العائلة لأن حسن مرعى كان أصغر من أبى وكانت وجهة النظر السائدة : كيف يترك أحمد مرعى بلده ويذهب إلى دائرة أخرى وينافس رئيس الحكومة . . ؟ ولكن أبى حسم الخلاف وقبل التحدى ورشح نفسه أمام يحيى إبراهيم « باشا » . . وكان هناك مرشح ثالث وهو الأستاذ توفيق دياب — الكاتب المعروف — وكان صديقه . . وكان نظام الانتخابات فى ذلك الوقت يقوم على الأصوات الثلاثينية — بمعنى أن كل ثلاثين ناخباً يختارون واحداً يمثلهم ويعبر عن أصواتهم جميعاً لصالح المرشح الذى يقع اختيارهم عليه — وكانت عمتى تقيم فى الصنافين بعد زواجها من إحدى عائلاتها وكان اعتماد أبى على سمعته الطيبة وصلة القربى التى تربطه بأهل الصنافين .

كان عمرى وقتها حوالى إحدى عشرة سنة . . وكنت اسمع الأحاديث المستمرة عن المعركة الانتخابية وكنت المح القلق والترقب فى العيون . . كانت أمى لا تنام . . وكانت عمتى ساهرة بجوارها طوال الليل . . ومازلت أذكر تلك الليلة الحاسمة قبل الانتخابات بيوم واحد عندما ذهبت إلى الصنافين مع الأسرة .

ولم يكد يحل الظلام حتى رأيت أبى يهمس فى إذن زوج عمتى بحديث خافت غير مسموع ، ثم يأخذ حصانا من الأسطبل ويختفى من الدائرة ، ونظرت إلى

عيون أمى بلفهة وجزع . . وعرفت بعد ذلك سبب الاختفاء : كان رئيس الحكومة قد استصدر أمراً بالقبض على« أحمد مرعى » بتهمة العيب فى الذات الملكية . . وكان الهدف من ذلك هو التأثير على مجرى الانتخابات ولذلك قرر أبى أن يختفى فى قرية مجاورة ويفوت عليهم الفرصة وبذلك يتمكن من الاتصال سراً بأنصاره ويخوض المعركة الانتخابية .

وكانت النتيجة أن الفلاحين التفوا حول مرشح الوفد أكثر وأكثر وتحدوا الحكومة ونجح أبى وسقط رئيس الوزراء . . وكان لهذه المعركة مغزاها السياسى الكبير لدرجة أن سعد زغلول ألقى خطابا فى شبرا بعد انتهاء الانتخابات وقال : أن أحمد مرعى مرشح الوفد فى دائرة الصنافين قد تحدى رئيس الوزراء وأسقط الحكومة .

عنـــدما رأيت ســـعد :

كان سعد زغلول أسطورة وطنية . . تعيش فى كل بيت . . وتملأ قلب كل مصرى . . كان نموذجاً رائعاً للزعامة المصرية ورمزاً للوطنية .

ومن كثرة الأحاديث عنه فى بيتنا . . تمنيت أن أراه وأقترب منه . . وجاء اليوم المنتظر فى إحدى المناسبات الوطنية . . وخرجت المظاهرات الشعبية من العباسية ــ الحى الذى نسكنه ــ ومن كل أحياء القاهرة فى طريقها إلى بيت الأمة . . واتفقت مع أخى مرعى على السير فى تلك المظاهرة حتى نرى بعيوننا زعيم الأمة .

كنا أطفالا صغارا ولكن الحماس كان يختلج فى وجداننا ويملأ علينا مشاعرنا . . وسرنا فى المظاهرة حتى ميدان باب الحديد ــ محطة مصر ــ وتدخل البوليس وفرق المتظاهرين ولكنهم تجمعوا مرة أخرى بعد الميدان واتجهنا إلى بيت الأمة ، وكانت أول مرة اخطو داخله . . وما زالت الصورة ماثلة فى ذهنى بكل تفاصيلها كما لو كانت قد حدثت بالأمس . . كان البيت له سور حديدى وامتلأ الفناء عن آخره وتعلق المئات بالسور والأعمدة لرؤية الزعيم . . واحتشد الشعب يهتف

له . . وظهر سعد زغلول فى الشرفة واشتد الحماس وتعالت الهتافات . . وما زلت اذكر طلعته المهيبة ووجهه الوقور وشعره الأبيض . . ووجدت نفسى اصفق مع الناس وأهتف لسعد ووقف الزعيم يحيي الشعب بيده . . وانفضت المظاهرات وتركت بيت الأمة وبحثنا فى جيوبنا عن أى ملاليم لكى نركب الترام إلى العباسية ولكننا لم نجد ولا مليما . . واضطررنا إلى العودة سيراً على الأقدام . . ولم نشعر بأى تعب فقد كانت السعادة تملأ قلوبنا بعد أن رأينا سعد زغلول .

ولم تكن تلك هى المظاهرة الوحيدة التى اشتركت فيها . . ولكن كانت هناك مظاهرات واضطرابات تعبيراً عن الاحتجاج عندما كنت طالبا فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية . . ولا أقول أننى كنت زعيما — من زعماء الطلبة — ولكن كنت أشارك فى بعض المظاهرات التى اقتنع بالهدف منها . . أحيانا كانت تحدث مظاهرات حزبية تأييداً لإسقاط وزارة أو احتجاجا على إقالة وزارة وكنت أرفض الاشتراك فى هذا اللون من الصراعات الحزبية . . وما زلت أذكر الغضب الذى كان يجتاح الطلاب فى الثانوى والمدارس العليا والجامعة فى ذكرى قدوم « لجنة ملنر » . . وغيرها . . وغيرها من المواقف الوطنية التى كنت أشارك بكل جوارحى فيها على أن المظاهرات لم تكن متوفرة دائماً .

فلقد جاء إلينا فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية ناظر جديد اسمه الدكتور رياض كان يؤمن بأن مهمة الطالب هى — أساسا — تلقى العلم وليس التظاهر . . وحتى إذا كان من حقه التظاهر فإننا — طلاب المرحلة الثانوية — ما زلنا صغاراً على التعرض لاضطهاد السلطة وانتقام الإنجليز . من أجل هذا كان الدكتور رياض يصر دائماً على منع طلبة مدرستنا من الخروج والانضمام إلى المظاهرات . فبمجرد أن يحاول الطلبة الخروج للتظاهر ، كان الدكتور رياض يقف عند باب المدرسة مانعاً الطلبة من الخروج .

وبالطبع لم تكن لياقة الدكتور رياض الجسمانية تسمح له بمواجهة هذا الحشد من الطلبة ، وكان الطلبة بدورهم أقل رغبة فى تحدى سلطته ، على عادة طلاب

المدارس فى تلك الأيام ، ولكن الدكتور رياض كان فى الواقع بالنسبة لنا جميعاً فى المدرسة أكثر من ناظر . كان مربياً ، ومربياً يحترمه الطلبة قبل أى شىء آخر .

كانت المدارس الثانوية وقتها بمصروفات ، وكانت تقدم لنا وجبة طعام فى الغذاء وبمجرد أن ننزل — كطلبة — إلى مطعم المدرسة — كنا نجد الناظر الدكتور رياض ، وهناك يشرف على الطعام بنفسه ويتأكد بنفسه من تناول كل طالب لطعامه . وإذا تصادف ورأى طالباً لا يتناول طعامه ، كان يضربه مرة أو مرتين بالخيرزانة التى يحملها دائماً فى يده . . ليس ضرب العقاب ، ولكن ضرب الأب الذى يريد أن يتأكد من حالة ابنائه .

واذكر مرة من المرات أن وصلت إلى باب المدوسة بعد موعد إغلاقه بخمس دقائق وكان الباب يتم إغلاقه فى الثامنة تماماً ، ثم يعاد فتحه بعد عشر دقائق وكنا ثلاثة زملاء وأصدقاء (الدكتور . . محمد صدقى محمود . . و (الدكتور) على المفتى . . وأنا وقفنا أمام الباب فى انتظار إعادة فتحه .

وعندما أعيد فتح الباب فوجئنا بالدكتور رياض نفسه ومعه عصاه المشهورة واقفا خلف الباب ، فبدأنا نجرى إلى داخل المدرسة . ولأننى ومحمد صدقى رفيعان ، بينما على المفتى كان سمينا .. فقد سبقناه فى الجرى .. وأصبحت أنا فى المقدمة ، وخلفى محمد صدقى ، وخلفه على المفتى ، وخلفنا جميعا يجرى الدكتور رياض ومعه عصاه . وعند السلالم الأربعة التى توجد فى مدخل المدرسة انكفأت على وجهى ، وانكفأ محمد صدقى بدوره ، ولكننا نهضنا بسرعة بعد أن لحق الناظر بعلى المفتى . ويومها أخذ على علقة ساخنة جدا لأنه رفض تماما أن يقر بأسمائنا .

ربما من أجل هذا أقول إن الدكتور رياض كان من القليلين الذين أثروا فى حياتى ، ربما لأننا كنا نخشاه ونحبه فى وقت واحد ، فلقد استطاع أن تجتمع فيه الشدة والطيبة ، فمع أنه كان يحمل العصا معه دائما .. إلا أنه لم يكن يلجأ لعقوبة الفصل من الدراسة مطلقا . ومع أنه كان متشددا معنا كطلبة إلا أنه كان أيضا متشددا مع المدرسين الذين يهملون فى دروسهم ومع أنه كان صارما مع الجميع ،

ويصر دائما على الانضباط .. إلا أنه كان يشجع تماما النشاط الخارج عن الدراسة المباشرة .. كالرياضة والتمثيل .

بين التمثيل والكرة :

ولقد كان الدكتور رياض هو الذى جعلنى أهوى التمثيل لأول مرة .. بل وجعلنى أمثل فعلا دوراً بارزا فى رواية اسمها « كرايتون العجيب » .

كانت الرواية باللغة الإنجليزية ، ودورى فيها كان دور خادم ، واشترك معى فى التمثيل صديقاى وزميلاى على المفتى ومحمد صدقى محمود . وقدمناها باللغة الإنجليزية على مسرح مدرسة الفنون والصنايع .. وكان دور الخادم هو الدور الوحيد الذى مثلته .

ولم يكن التمثيل هو الهواية الوحيدة — بعد الموسيقى — التى شدتنى إليها فى تلك الفترة من الشباب المبكر . كانت هناك الكرة أيضا .

كنا نتجمع عند أى شارع واسع قريب من شارعنا ونضع خشبتين أو قطعتين من الطوب هنا ومثلهما هناك .. فيكون الملعب . وكل منطقة لها بالطبع فرقة كرة مكونة من فتيانها المتقاربين فى السن . لكن المشكلة كانت هى الكرة نفسها . إن الكرة المتوفرة — فى حدود قدراتنا كتلاميذ — كانت مثل البيضة ، فهى غير كاملة الاستدارة ، ومن ثم غير مريحة فى اللعب . وكانت هناك كرة أخرى حرف « تى » مستوردة من إنجلترا وثمنها فى حدود عشرين قرشا .

لهذا كان الحل الوسط دائما هو أن نستأجر كرة حرف « تى » فى كل « مباراة» هامة داخل حى العباسية . وظل الحال كذلك إلى أن فاجأنى عمى ذات يوم بكرة من هذا النوع .. اشترتها لى كهدية . من يومها أصبحت لدى « كرة ملك » .. وأصبحت أنا ، وأخى مرعى .. نتكلم فى أى مباراة من مركز القوة . فأثناء المباراة ، إذا أغضبونى أو أغضبوا مرعى ، نأخذ الكرة و : خلاص .. مش لاعبين .



صورة عندما كنت طالبا فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية بالقاهرة سنة ١٩٢٩

وعلى الفور تبدأ مصالحات أعضاء الفريق المنافسين لنا و .. إيه اللى انتم عايزينه واحنا نعمله .

ونبدأ فى فرض شروطنا : أولا — الجون يا كاسر يا مكسور .. ثانيا — ألخ .. إلخ ومعنى ذلك أن يلعب الفريق المنافس تحت رحمة أن حارس مرماهم يجب أن يتحول إلى فدائى بدلا من حارس مرمى .

كانت الحياة فى تلك الأيام سهلة ومريحة وخالية من الهموم ومليئة بالتقاليد من « التقاليد » مثلا .. « الحذاء أبو رقبة » .. وهو حذاء له رقبة طويلة ، تشتريه برباط .. أو زراير ، وفى الحالة الأخيرة يكون معه « مزررة » . والبدلة نفسها مقفلة ولها قميص « عيرة » .. أى أنه ليس قميصا حقيقيا ، وإنما قطعة « ياقة » مزررة من الداخل فى البدلة نفسها .

ومع تقدمنا فى الدراسة والسن بدأوا يسمحون لنا بارتداء قمصان كاملة ، القميص حرير يابانى نشتريه من محل « ليون جانى » بخمسة وعشرين قرشا والكرافتة ماركة « أبو شماعة » بقرشين ، والحذاء الكموشى « أى الشمواه من محلات حامد محمود بـ ٧٥ قرشا والبدلة جاهزة من محل « سمعان أو شيكوريل » بـ « سبعة جنيهات » أو نشترى القماش الإنجليزى من « شيكوريل » المتر بسبعين قرشا ونفصلها عند أغلى ترزى بجنيه والطربوش المستورد من النمسا ماركة « النسر » بثلاثين قرشا .. وساعة الجيب ماركة « الترام » بـ ١٢٠ قرشا .

ولكننى لم اشتر ساعة ، لأننى فى الواقع قد حصلت عليها من المدرسة كجائزة لتقدمى فى الامتحان .. وما زلت أذكر تلك الساعة جيدا لأنها كانت أول جائزة ذات قيمة أحصل عليها من الدراسة ، وقد تسلمتها فى كيسها الصوف الأنيق والكبير ، لأن الساعة نفسها كانت سميكة جدا .. ومهما أدخلتها فى أى جيب فإن صوت دقاتها يظل مسموعا على بعد مترين .

وبعدها بسنة ، عندما تقدمت من جديد فى البكالوريا كان والدى هو الذى اشترى لى ساعة فى هذه المرة . ولأنه ترك لى حرية اختيارها .. فقد اخترتها

« آخر صيحة » كانت ساعة بلا عقارب . إن بها دائرة خارجية ودائرة داخلية ، والدائرة الأخيرة عليها كرة بيضاء مثل الزئبق ، والخارجية عليها دائرة أكبر والدائرتان قلبهما هو الذى يدور ، ولونهما أبيض ، بينما المينا سوداء .. بحيث أنها كانت ساعة « للفرجة » أكثر مما هى لمعرفة الوقت .

ومن وقت لآخر ، بعد الامتحان الشهرى أو امتحان الفترة فى المدرسة كنا نخرج – مجموعة الزملاء الأصدقاء فى المدرسة لكى « نتفسح » وكان وسط القاهرة هو المكان النموذجى للتنزه ، ومظهر البذخ فى التنزه هو أن نذهب إلى محل « الحاتى » خلف محل شـيكوريل ، ونجلس نطلب كباب . إن رطل الكباب وبجواره طبق سلطة طحينة وطبق سلطة آخر ورغيف خبز .. كل هذا بخمسة قروش ونصف

وعندما تجئ « المسامحة » بعد امتحان آخر السنة ، فإننا كنا نختار محلا أرقى وكان هذا المحل هو « سان جيمس » أمام سينما ديانا .. وكان عبارة عن مطعم وسينما. فى المطعم نأكل الإسكالوب – كبير وضخم – بسبعة قروش وطبق المكرونة بثلاثة قروش . أما المتعجلون على « الرجولة » فى مجموعتنا فكانوا يذهبون إلى محل « باريزيانا » القريب من سان جيمس ، ويطلبون زجاجة بيرة – ومعها طبق طعمية وطبق فول نابت وسوسيس وجمبرى وطبق جبن – وكل هذا بخمسة وعشرين مليما .

وكانت كل المحلات فى هذه المنطقة – وسط القاهرة – أجنبية .. مابين إنجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية ويونانية .. حتى دور السينما والمطاعم ومحلات الحلوى ومحلات الفاكهة .. كلها أجنبية . بل إن الفواكه نفسها كانت طازجة وأجنبية فالأقة من التفاح الأمريكانى مثلا بخمسة قروش (والأقة أكثر من الكيلو) وأقة الكمثرى الفرنسية بثلاثة قروش .. وأقه العنب التركى المستورد من أزمير بقرشين والدجاجة المستوردة من اليونان بثلاثة قروش ورطل السمن البلدى بثلاثة قروش .

كانت الحياة إذن تبدو سهلة ومريحة لأول وهلة . ومما جعلها بالنسبة لى أكثر

راحة أنني أصبحت بعد التخلف الشديد ، متقدما فى دراستى إلى الدرجة التى حصلت فيها على المجانية طوال سنوات دراستى الثانوية .

ولكن ، بصرف النظر عن الجزء الشخصى فى الموضوع ، فإن الذى يتأمل تلك الفترة من حياة مصر ، لابد أن يتخيل أنها كانت فترة رخاء وازدهار بلا مثيل .

إن الحقيقة كانت كذلك جزئيا ، ولم تكن كذلك فى الحساب الإجمالى أننى — حتى تلك الفترة من شبابى المبكر — لم أكن ناجحا سياسيا بما فيه الكفاية ولا حتى مكتملا فى وعيى العام بما يسمح لى بالربط بين هذا الذى أراه وبين الاحتلال الأجنبى مثلا . فالاحتلال الإنجليزى الأجنبى قضية وطنية ، بينما مستوى المعيشة قضية اقتصادية .

ولكن الواقع كان يؤكد أن الجانبين غير منفصلين أبدا . ولقد بدأت أنا أدرك هذا الواقع قبل موعده .. بسبب بسيط ، هو أن والدى بدأ يشركنى فى العمل معه . ويشركنى فى تحمل المسئولية مبكرا . كان هذا فى الواقع أسلوب أبى معنا جميعا ، وكان يعدنا له منذ وقت مبكر ، فيقول : أنتم عليكم الدراسة وأنا على المسئولية ، أما حينما تبدأ الإجازة الدراسية فعليكم أنتم المسئولية وعلى أنا الراحة .

هكذا بدأنا إذن نذهب إلى الريف ، ليس للمتعة ، ولكن للعمل . كنا نباشر الأرض ونتعامل مع المزارعين ونتفاوض مع المستأجرين ونتعاقد مع الموردين ... إلخ ... إلخ .

وكان الوجه الحقيقى لمصر موجودا فى الريف وليس فى القاهرة . والوجه الحقيقى هناك كان هو الفقر المدقع ، والضنك الشديد ، والمعاناة المبرحة والأمية الكاسحة والمرض المنتشر .

كان الفلاح المصرى محاصراً ما بين جشع بنوك الرهونات وبين جشع التجار

الذين يشترون المحاصيل . وقد بدأت رؤيتى لما يجرى تتضح وتتضح نظرا لتزايد إعتماد أبى على وعلى أخوتى فى تلك السن المبكرة .

وكان أبى يؤمن بأن مستقبل الأرض ليس فى استمرار زراعتها بالطرق التقليدية ، وإنما بتطويرها واستثمارها بأحدث الطرق العلمية . ربما من أجل هذا كان يقرأ كثيرا عن الزراعة ، وباللغة الإنجليزية ، فالكتاب فى يمينه والقاموس على يساره دائما .. والنتيجة هى مشروع جديد يفكر فيه ويجعلنا نفكر فيه معه . ولهذا ، فعندما قرر أبى فى سنة ١٩٢٧ أن يخصص ٢٥ فدانا لزراعة الموالح اعتبر أصدقاؤه أنه يدخل فى مغامرة غير مأمونة . فأولا هو ليس خبيرا فى الموالح ، وثانيا فإن إنتاج تلك المساحة الضخمة لن يجد من يشتريه بسبب الانخفاض الشديد فى القدرة الشرائية وقتها .

ومع ذلك .. قرر أبى أن يخوض التجربة . وكان يصر فى كل مرة على أن يشركنا — أنا ومرعى — معه فى كل الخطوات . هل كان هذا من باب زرع الحماس فينا للارتباط بالأرض — أو من باب التدريب على تحمل المسئولية ، لا أدرى بالضبط ، ولكن كلا الأمرين قد حدث فعلا ، فقد تعلمت من أبى فعلا . ضرورة البحث عن أفكار جديدة ، وتعلمت أيضا أن تحمل المسئولية هو أمر واجب التدريب عليه من سن مبكرة .

وكان لهذا التدريب العملى من جانب أبى الفضل المباشر فى أننى بدأت أنوى فعلا التخصص فى الزراعة بعد انتهاء دراستى الثانوية .

كانت مصروفات التعليم وقتها حوالى مائة جنيه فى السنة .. ولكن صدر قرار من وزارة المعارف بأن الخمسة الأوائل يتعلمون على نفقة الحكومة مجانا .

فى كلية الزراعة :

وعندما وصلت إلى مدرسة الزراعة العليا — التى تحولت إلى كلية الزراعة أثناء دراستى أيضا — كانت مجانية التفوق فى التعليم قد وصلت إليها .. وسبب القرار

أن الملك فؤاد كان مريضا جدا وعندما شفى من مرضه قررت السراى بهذه المناسبة أن يتعلم الخمسة الأوائل فى الكليات والمدارس العليا بالمجان أسوة بالقاعدة المتبعة فى الثانوى ، وكانت النتيجة أننى حصلت على المجانية طوال سنوات دراستى فى كلية « الزراعة » .

وذهبت إلى أبى وطلبت منه أن يعطينى المصروفات التى يدفعها فى الجامعة لى .. والواقع أنه كان فلاحا متفتحا بفطرته وكان متفهما لروح الشباب .. ولذلك وافق على ذلك لكى يشجعنى على التفوق المستمر فى الدراسة .. وانتهت هذه المرحلة فى سنة ١٩٣٧ عندما حصلت على بكالوريوس الزراعة بتفوق وبدأت مرحلة أخرى .

كانت رغبة أبى أن يدخل أخى الأكبر « حسن مرعى » كلية الزراعة ولكنه اتجه بميوله ناحية أخرى ودخل كلية الهندسة ، ولذلك شجعنى أبى على دخول الزراعة لأنه كان يريدنى بجانبه فى أعماله الزراعية ، وعن نفسى فقد كنت أحلم بالطب وبالبالطو الأبيض وغرفة العمليات وكنت أتخيل نفسى طبيبا مشهورا .. وهكذا كنت موزعا بين رغبة أبى واعتماده على ، وبين حلمى الجميل الذى يراودنى بالنسبة لمستقبلى .. والغريب أننى لم أفكر أبدا فى دخول الكلية الحربية أو مدرسة البوليس بالرغم من أننى كنت أقيم فى العباسية وكانت مليئة بالضباط وطلبة البوليس والحربية .. فلم تجتذبنى البدلة الكاكى العسكرية بقدر ما استهوانى سحر البالطو الأبيض .

وفى فترة الإجازة السابقة للتقديم فى المدارس العليا كان هناك معرض زراعى وفهم أبى الطريق الذى يدخل منه إلى تحقيق رغبته .. وأخذنى إلى هذا المعرض لمشاهدة الخيول والحيوانات المعروضة ــ وكان يعلم مدى هوايتى لتربية الخيول ــ وجلست بجواره فى المزاد المقام هناك .. واختار « فرستين » وبدأ المزاد عليهما .. كانت أغلى « فرسة » فى ذلك الوقت لا يزيد ثمنها على عشرين جنيها .. ولكن أبى دفع فى واحدة ٣٢ جنيها وفى الثانية ٣٧ جنيها .. ووجدت من جانبى أنه مبلغ



عندما كنت طالبا فى السنة الاولى بمدرسة الزراعة العليا التى تحول اسمها بعد ذلك الى كلية الزراعة سنة ١٩٣٣ .

باهظ بالنسبة لهما .. ولكنه دفع المبلغ وشحن الفرستين إلى كفر الأربعين وسط دهشتى وذهولى وتلا ذلك مزادات أخرى كانت تقيمها وزارة الزراعة بين الحين والآخر لسلالات جديدة من الأبقار والماشية وذهب أبى واشترى مجموعة منها .. وامتلأت المزرعة بهذا القطيع الكبير من الماشية والخيول ، وقال لى أبى : أنت المسئول عن تربيتها ورعايتها فى إجازتك .

وبالفعل انشغلت فى هذه الهواية حتى جاء موعد التقديم فى الجامعة وجلست مع أبى نبحث مصيرى وسألنى : ماذا قررت أن تدخل ؟

وعندما أبديت رغبتى فى الطب قال لى : إذا لم تدخل الزراعة سأصفى المزرعة كلها وأبيع الماشية والخيول الموجودة عندنا ..

ووجدت نفسى أمام الأمر الواقع وكانت فترة الإجازة فى المزرعة كافية لكى تربطنى بها وتحدد مسار مستقبلى وأخذت أوراقى ودخلت مدرسة الزراعة العليا عن اقتناع بالتطوير الذى يمكن إدخاله على الزراعة وتربية الماشية وتحسين الحاصلات الزراعية .. وأحسست أن هذه الأرض هى الأساس والمنبع لكل الخير فى وطنى .. وأخذ طموحى ينطلق على طريق آخر كان له تأثيره على فكرى وفلسفتى طوال حياتى .

وحتى بعد أن تخرجت من كلية الزراعة متفوقا كان هناك تفكير فى أن أكمل دراستى العليا فى الخارج لكى أحصل على الدكتوراه وكنت أرغب فى التعيين معيدا فى الجامعة حتى أتمكن من السفر إلى الخارج والوصول إلى درجة أعلى من البكالوريوس .. ولكن مرة أخرى تدخل القدر لكى يوجهنى نحو الأرض .. كان أبى يرى أن أعود إلى كفر الأربعين حتى أطبق ما درسته على المزرعة ، وصممت من جانبى على إكمال دراستى إلى الدكتوراه وصمم أبى أيضا على عودتى إلى الزراعة وظل الموقف معلقا حتى حسمه عميد كلية الزراعة وقرر فى تلك السنة عدم تعيين أى معيد فى الكلية لعدم وجود درجات فى الميزانية .. وبدأ بالتالى عملى فى الريف وتزوجت وأقمت هناك ١٢ سنة متواصلة .

الفصل الثالث

سنوات الدراسة

كانت سنوات دراستى الجامعية ، هى من أكثر الفترات غليانا فى التاريخ السياسى المصرى الحديث .. وكان لابد – بالتالى– أن يكون الطلبة جزءا من هذا الغليان .

على أنه بالإضافة إلى هذا السبب العام ، كان هناك سبب خاص ، وهو أن السياسة كانت جزءا يوميا من حياتنا العائلية . ولأن السبب فى ذلك هو أنا ووالدى – أحمد مرعى – الذى كان وفديا متحمسا وكان يرى فى سعد زغلول النموذج الأصيل للسياسى الوطنى الشريف .

وقد توفى سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، واستمرت وزارة عبد الخالق ثروت بتشكيلها الائتلافى إلى أن استقالت فى ١٦ مارس ١٩٢٨ ، وخلفه فى رياسة الوزراء مصطفى النحاس – خليفة سعد فى زعامة حزب الوفد – وكانت هذه الوزارة ائتلافية أيضا ، إلا أن استقالة أعضاء الوزارة من حزب الأحرار الدستوريين ، هيأ فرصة مواتية للملك فؤاد – بالتعاون مع الإنجليز – لإقالة وزارة النحاس الأولى بأن وجه إليه فى ٢٥ يونيو ١٩٢٨ خطابا جاء فيه أنه « لما كان الائتلاف الذى قامت عليه الوزارة قد أصيب بصدع شديد ، فقد رأينا إقالة دولتكم .. » وعقب هذه الإقالة شكل محمد محمود باشا الوزارة فى نفس اليوم الذى عطل الملك فؤاد فيه البرلمان وبعض أحكام الدستور لمدة ثلاث سنوات .

وفى بداية سنة ١٩٣٠ تكونت الحكومة مرة أخرى برئاسة النحاس .. ولكنها مرة أخرى اضطرت إلى الاستقالة بعد أشهر قليلة .. نتيجة لقطع مفاوضاتها التى

كانت دائرة مع الإنجليز بالنسبة للقضية الوطنية القائمة على الجلاء ووحدة وادى النيل .

وفى هذا يقول الأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعى : كان المندوب السامى البريطانى فى مصر وقتئذ يمثل هذه السياسة . وكان يأمل فى أن يتم عقد المعاهدة بين مصر وإنجلترا فى سنة ١٩٣٠ على يد الوزارة البرلمانية (وزارة النحاس) ولكنها خيبت آماله بالتشدد فى بعض نصوص مشروع المعاهدة ، فانقلب عليها متظاهرا بالحياد ، وتحالف مع السراى على تدبير الانقلاب الذى أقصى هذه الوزارة وادى إلى إلغاء البرلمان والحياة الدستورية ، « واستمر على هذا الحياد الكاذب وذلك التأييد المبيت لإذلال الشعب » .

كانت تلك الفترة أشد ما شهدته البلاد من محاولة لإذلال الشعب ، وهى المحاولة التى تحالف فيها الاحتلال الإنجليزى مع الملك .

وجاء الاثنان بإسماعيل صدقى لكى يكون أداة السياسة الجديدة...

واختار صدقى باشا شعارا لوزارته هو « أن يمحو الماضى بما له وما عليه » وفى اليوم التالى لتشكيل حكومته استصدر مرسوما بتأجيل انعقاد البرلمان لمدة شهر ابتداء من ذلك اليوم — ٢١ يونيو ١٩٣٠ .

وبعد قليل تقرر تعطيل البرلمان نهائيا ، وصدر مرسوم ملكى يعلن عن دستور جديد وقانون انتخابى جديد . وخرج الشعب يعلن احتجاجه على إلغاء دستور ١٩٢٣ ، وعلى هذه الديكتاتورية الصارخة لحساب القصر والإنجليز ، وتساقط القتلى والجرحى بالمئات . ودخلت البلاد كلها فى حرب أهلية ضد هذا النفر القليل الذى سخر ضميره وحياته لخدمة مصالح الاحتلال الأجنبى .

فى تلك الفترة بالضبط بدأت حياتى الجامعية فى « مدرسة الزراعة العليا » .

وكانت الجامعة وقتها ، بل مراحل التعليم كلها بمصروفات ، فأول قانون بمجانية التعليم الابتدائى لم يصدر إلا فى سنة ١٩٤٢ . وكانت مصروفات مدرسة

الزراعة العليا كذا وأربعون جنيها فى السنة ، وعدد الطلبة فيها لم يكن يتجاوز الألف .. وللمدرسة (التى تحولت إلى كلية فيما بعد) مزرعتها الخاصة بها .. والتى يكون من نصيب كل طالب فيها قطعة محددة منها يجب أن يفلحها بيده .

وبمقتضى نظام الدراسة كانت المدرسة تخصص للطلبة يوما كل أسبوع يسمى « يوم الغيط » .. حيث يرتدى فيه كل منا البالطو الأبيض فوق بدلته والفأس على كتفه ، ويذهب إلى قطعة الأرض الخاصة به . ورغم أن بعضنا كان يستأجر عاملا زراعيا على حسابه الخاص لكى يؤدى العمل بدلا منه من باب الترفع عن الفلاحة فى الأرض .. إلا أن الفائدة كانت ضخمة لمن يفلح بيديه فعلا .

وكانت « شلتنا » من الطلبة فى الكلية تضم عزيز قلدى ، والمرحوم عبد القادر العبد ، وحسين مراد ، وحافظ عوض ، ومصطفى الفار ، وعبد العظيم شحاته وغيرهم . وكان العميد هو الدكتور محمد توفيق الحفناوى ، وهو من أحسن وأفضل العمداء الذين شهدتهم الكلية على الإطلاق .

وبرغم أن الدراسة كانت تبدأ فى الثامنة والنصف من صباح كل يوم ، ورحلة الترام من بيتنا فى العباسية ، إلى الكلية فى الجيزة تستغرق ساعة على الأقل .. إلا أننى لا أذكر أننى تخلفت يوما واحدا ، أو حتى تأخرت عن المحاضرة الأولى فى الصباح .

ولم يكن هذا شيئا شخصيا ، وإنما كان فى الواقع ظاهرة عامة فى الكلية كلها ، ولا أذكر استثناء لها إلا تلك الواقعة التى كان بطلها « عباس بك » ..

لم يكن « عباس بك » وجيها اجتماعيا ، ولا كان أصلا « بك » .. وكل المسألة أنه طالب مثلنا ، ومع ذلك فالطلبة جميعا يعرفونه ، ويخلعون عليه لقب « عباس بك » .. وربما لأنه يزيد عنا فى العمر عشر سنوات على الأقل .. وربما لأنه أشاع أن له نصيبا ضخما فى وقف كبير جدا .. ولكن نصيبه يتوقف إذا زالت عنه

صفته كطالب . وبناء على ذلك فإنه اختار أن يظل طالبا إلى الأبد ولا ينجح أبدا ..

وكان « عباس بك » شخصية لطيفة وظريفة برغم اتجاهه إلى الهوس أحيانا ، وفخره الدائم بأن حذاءه « وارد إنجلترا » .. وصداقته بكثير من المدرسين فى الكلية لأنهم كانوا أصلا زملاء له فى سنوات دراسته بالكلية نفسها ..

ثم حدث ذات يوم أن دخل علينا « عباس بك » فى المحاضرة الأولى متأخرا عنها بربع ساعة . ويبدو أن المعيد الذى كان يلقى علينا المحاضرة لم يكن قد سمع بعد عن « عباس بك » .. فبدأ يوجه إليه اللوم أمامنا على حضوره متأخرا.

وما كان من « عباس بك » لحظتها سوى أن اتجه إلى المعيد وصفعه على « قفاه » أمامنا جميعا .. ووسط ذهولنا جميعا ، وهى الواقعة التى كانت بعد دقائق الشغل الشاغل للكلية كلها ..

وكان من التقاليد المفيدة لكلية الزراعة وقتها ما يسمى بـ « رحلة الدبلوم » وهى الرحلة التى يجب أن يقوم بها كل طالب لتطبيق ما درسه عمليا .. بحيث لا يجوز أن يتخرج الطالب قبل أن يقوم بهذه الرحلة .

والرحلة كانت عبارة عن خمسة عشر يوما فى الوجه البحرى ، ومثلها فى الوجه القبلى ، يهدف قيام الطلبة مع أستاذهم المرافق لهم ، بزيارة المزارع المختلفة التابعة لوزارة الزراعة أو مصلحة الأملاك ، أو مزارع كبار الملاك ، وخلال الرحلة يجب على كل طالب أن يكتب تقريرا بمشاهداته وملاحظاته واقتراحاته

وكنا فى رحلة بالصعيد بالقطار ، وبينما نحن نكاد نموت جوعا بسبب الغناء والضحك والمرح فى القطار .. تطوع زميلنا حافظ عوض بأن يدعونا إلى الغداء.

وسألناه : إيه ياحافظ ، تدعونا .. ونحن جميعا غرباء ولا نعرف أحدا بعد .

ورد حافظ عوض ، الذى لم يكن يعدم صديقا فى كل مكان : عند جماعة حزين ، ابنهم صاحبى ..

وانتدبنى حافظ مع اثنين آخرين لكى نذهب إلى منزل عائلة حزين ونخطر ابنهم ، الذى هو صديقه ، بأننا قادمون على الغذاء .

وذهبنا إلى هناك ، لكى نفاجأ بأن صديق حافظ عوض موجود فى القاهرة ، وليس فى المنزل سوى الحريم ..

ولم يرتبك حافظ ، وإنما طلب من السيدة التى خرجت لنا أن تخطر أهل المنزل ، بأن حافظ عوض وهو صديق لابنهم . . . قادم على الغذاء اليوم ومعه حوالى خمسين من زملائه ..

وحاولنا أن نثنى حافظ عن عزمه .. دون جدوى ..

وفعلا .. عدنا بالمجموعة كلها إلى المنزل فى الساعة الرابعة عصرا لكى نجد أن أهل المنزل أعدوا غذاء ضخما وفخما لحافظ عوض – الذى لا يعرفونه شخصيا – ولهذه المجموعة المؤلفة من خمسين شخصا ، لمجرد أنه يقول إنه صديق لابنهم ..

كانت الحياة حلوة .. وأيام الدراسة هى أيضا أيام المرح والنشاط والتفاؤل والحماس .

ولكنها أيضا كانت – كما ذكرت من قبل – أيام الغليان السياسى فى مصر .. فهناك صراع بين الأحزاب وبعضها البعض ، وبين الأحزاب والملك . وبين الأحزاب والاحتلال الإنجليزى .

وكان لكل حزب سياسى نشاطه الخاص داخل الجامعة ، وفى كليتنا بالذات كانت لجنة الطلبة الوفديين برئاسة أحمد الدمرداش التونى (عضو مجلس الشعب الآن) ومعه حسن سالم (وكيل نقابة الزراعيين حاليا) .

ومع وجود لجنة لكل حزب فى كليتنا .. كان النشاط السياسى مستمرا به وأحيانا طاغيا . ولسبب ما – لم أدركه بوضوح وقتها لم أجد لدى رغبة فى الانضمام إلى أى لجنة منها .. فلم تكن البرامج المعلنة للأحزاب توضح حقا خلافا حقيقيا

بينها .. وبدت المسألة كما لو أن كل الاختلاف هو اختلاف فى الأشخاص فقط . وفى تلك السن المبكرة لم يكن الإنسان ناضجا بعد بما يسمح له بالتفرقة بين البرامج والأشخاص .

ولم يكن هذا هو حالى وحدى .. بل إنه كان حال نسبة كبيرة من الطلاب .. تجد نفسها متحمسة أولا لقضية الاستقلال .. فتتحمس لكل من ينادى بالاستقلال. أو تجد نفسها مؤمنة بضرورة تمصير الاقتصاد فتؤيد كل من ينادى بهذا التمصير. وقد حدث مثلا بعد عرض أول فيلم مصرى صامت مأخوذ عن قصة زينب للدكتور محمد حسين هيكل ، وأول فيلم مصرى ناطق من بطولة يوسف وهبى .. أن كنا - كطلبة - نذهب إلى السينما لنشاهد فيلم الوردة البيضاء مثلا لمحمد عبد الوهاب وبمجرد أن يبدأ العرض بكلمة «محمد عبد الوهاب يقدم» كانت السينما كلها تدوى بالتصفيق المستمر. تصفيق موجه لمجرد أن هذه الأسماء التى تتابع على الشاشة أمامنا هى أسماء مصرية ويجب أن نشجعها ونتحمس لها لمجرد أنها تكسر موجة طغيان الأشياء الإنجليزية والأوروبية فى حياتنا .

ربما من أجل هذا أقول أن اهتماماتى السياسية فى تلك الفترة توقفت عند القضايا العامة ، ولم أجد فى داخلى ما يدفعنى إلى الانضمام إلى حزب محدد من بين الأحزاب لكى أعبر عنها .

ولكن حدث أن تبلور اهتمامى بمشروع وجدت نفسى متحمسا له ، ومتصدرا الدعوة إليه وهو مشروع يتعلق بتحسين مستقبل خريجى الزراعة العليا التى كانت قد تحولت فى تلك السنة - ١٩٣٥ - على ما أذكر - إلى كلية .

كان عدد المتخرجين سنويا من الكلية يتراوح بين مائتين ومائتين وعشرين ، ولم يكن يعين منهم فى وظائف حكومية بوزارة الزراعة سوى عدد قليل جدا وحتى هذا العدد كان يعين بيومية مقدارها أربعون قرشا ، وبغير هذا كان مستقبلهم مظلما . إن المالك العادى لم يكن مهيئا بعد لفكرة الاستعانة بخبير زراعى جامعى ، فهو يفضل عليه الفلاح البسيط الذى يعمل بالغريزة ويكلفه أجرا زهيدا

ومن ناحية أخرى فإن الملاك الكبار كانوا يقدمون فرصا محدودة فلم يبق من مجال إذن سوى الوظيفة الحكومية التى كانت ــ كما ذكرت ــ تستوعب عددا محدودا من الخريجين كل سنة على قدر ضآلة الميزانية .

وكانت الفكرة التى تحمست لها ــ مع عدد كبير من زملائى ــ هى فكرة « الإقطاعيات الزراعية » .. والفكرة تقوم على أساس استغلال الأراضى التى تمتلكها مصلحة الأملاك الأميرية ، بحيث يخصص لكل خريج من كلية الزراعة مساحة معينة منها يستصلحها أو يزرعها ويمارس عمليا ما تلقاه من علم مقابل تمليكها له بشروط ميسرة على سنوات عديدة .

وكانت الفكرة على هذا النحو تحقق غرضين فى وقت واحد .. فهى من ناحية تكفل لمصلحة الأملاك استصلاح مساحات جديدة كل سنة ، وتطوير الزراعة فيها بأسلوب علمى .. وهى من ناحية أخرى توفر مجالا للعمل لهؤلاء الخريجين المتخصصين كل سنة ، يستطيعون عن طريقه إفادة المجتمع وإفادة أنفسهم .

وعندما بدأنا نواجه معارضة لمشروعنا طرح البعض فكرة القيام بمظاهرة نفرض بها .. مطالبنا .. ولكننى شخصيا رفضت الفكرة وبعد مزيد من المناقشات قرر طلبة الكلية تشكيل جمعية تدعو إلى الفكرة ، واختارونى أنا رئيسا لها وأصبحت مهمتنا هى نشر الفكرة وإبرازها للمسئولين ومحاولة إقناعهم بتأييدها ، خصوصا بالنسبة لوزير الزراعة وقتها وفؤاد باشا أباظة مدير الجمعية الزراعية وعثمان بك أباظة مدير مصلحة الأملاك .

وبدأنا فعلا نسعى إلى مقابلة عدد من المسئولين وكبار الكتاب والصحفيين الذين تحمس بعضهم لمشروعنا وبدأوا يكتبون فى الصحف مؤيدين ما نطلبه من تخصيص خمسين فدانا لخريج كلية الزراعة و ٢٥ فدانا لخريج مدارس الزراعة المتوسطة .

وعندما وافقت الحكومة فى النهاية على مشروعنا قررت فعلا تنفيذه فورا مع بعض التعديلات ، بحيث خصصت أربعين فدانا لخريج كلية الزراعة وعشرين

فدانا لخريج الزراعة المتوسطة ، وقد كان هذا النجاح أول درس عملي تلقيته في حياتي العامة قبل أن تبدأ فعلا ، بحيث اعتقد أننا لو كنا قد سلكنا أسلوبا آخر في الدعوة إليه — غير الدعوة والإقناع — لما كنا قد حصلنا عليه ، خصوصا وأن الأسلوب السائد وقتها بالنسبة للمطالب الطلابية كان هو الاعتصام والإضراب .

وكانت الإضرابات في معظمها تتم في مناسبات معينة ، وفي أقلها تتم استجابة لأحداث قائمة .

فمثلا كانت لجنة الطلبة الوفديين على مستوى الجامعة تضم فريد زعلوك والدمرداش التوني وعبد السلام حسن وحسن سالم وغيرهم وقد حدث في تلك الفترة أن أصدر « هور » وزير الخارجية البريطاني تصريحاً ضد مصر وضد الوفد ، فذهبنا إلى الكلية في الصباح لكي نجد عبد السلام حسن واقفاً على سلم المبنى الرئيسي قبل أن يدق الجرس والوفديون حوله كخلية نحل ، وبمجرد أن دق جرس المحاضرة الأولى بدأ حسن يصيح : إضراب . . إضراب . . ثم ألقى كلمة بعد أن تجمع الطلبة ، وبعدها خرج الجميع في مظاهرة تهتف : يسقط هور ابن الطور . .

وفي مرة أخرى جاء إلى كليتنا مكرم عبيد سكرتير حزب الوفد ، ورغم أنني لم أكن منتمياً سياسياً لحزب من الأحزاب ، إلا أن مكرم عبيد كانت له سمعة مدوية كخطيب مفوه لهذا فإنني رغم أنه يوم معمل ، وفي هذا اليوم مفروض ألا نغادر المعمل ، فقد وجدت نفسي أترك المعمل وفي يدي أنبوبة اختبار ساخنة على أساس أن أسمعه دقيقة أو دقيقتين ثم أعود لمعملي .

ولكن الذي حدث أن خطاب مكرم عبيد استهواني إلى درجة أنني ظللت أستمع إليه حتى النهاية متأثراً به تماماً ، وبعد قليل بدأت أفكر في ما هي الأشياء المحددة التي خرجت بها من الخطاب فلم أجد شيئاً أكثر من البلاغة اللغوية والزخرفة اللفظية والكلمات الممتعة المسجوعة .

ربما من أجل هذا أعود إلى القول بأن الخلافات بين الأحزاب والزعماء لم تكن خلافات على برامج محددة أو مبادىء واضحة وإنما كان أساسها جميعاً هو

الانطباعات الشخصية ولعل هذا هو الذى أدى بسرعة إلى انتشار اتجاه بين طلبة كليات الجامعة فى ذلك الوقت يطالب بائتلاف الأحزاب والزعماء لأن هذا هو الذى يحقق مصلحة مصر من ناحية ومنع الإنجليز والسراى من ضربهم بعضهم ببعض من ناحية أخرى .

وبدأت مظاهرات الطلبة تخرج إلى الشوارع وتتتابع فيما سمى فيما بعد ذلك « ثورة الطلبة » ولم يكن الطلبة فى مظاهراتهم يريدون الضغط على المحتل الأجنبى فقط ، وإنما كانوا يضغطون على زعمائهم الوطنيين أيضاً ، من أجل تكوين ائتلاف وطنى بين زعماء الأحزاب .

وبدأ المصابون والقتلى من الطلبة يتساقطون بالعشرات وعندما نقل الجرحى منهم إلى مستشفى قصر العينى ذهب مصطفى النحاس باشا – زعيم حزب الوفد – لزيارتهم ولكن الطلبة نسوا جراحهم وبدأوا يرددون هتافاً واحداً : الائتلاف يا باشا الائتلاف يا باشا .

ولكن النحاس باشا لوح بعصاه لأحدهم مردداً: مستحيل . . مستحيل ، ذلك لأن النحاس كان يرفض بشدة الائتلاف مع زعماء الأحزاب الأخرى ، ويصر على أن أية حكومة يجب أن تشكل من حزب الأغلبية وحده الذى هو حزب الوفد . .

* * *

فى تلك الفترة أيضاً كان هناك موسولينى فى إيطاليا ، وفى سنة ١٩٣٣ جاء هتلر إلى الحكم – ومعه النازية – فى ألمانيا وبدأت الدولتان الأوربيتان تأخذان صورة الإنجاز والتوحد وبدأنا نقرأ عن التقدم الزراعى الذى حققه موسولينى فى إيطاليا . . والتقدم الصناعى الذى حققه هتلر فى ألمانيا .

وبدأت تنمو بيننا فكرة المستبد العادل :

كانت الفكرة التى بدأت تنتشر بالعدوى فى أوساط الطلبة ومنها إلى قطاعات كبيرة من الرأى العام ، هى أن الحل النهائى لمشاكل مصر هو فى ظهور حاكم يكون

مستبداً عادلا ، حاكم يستطيع توحيد الأمة فى حرب وطنية من أجل الجلاء ويستطيع توحيد الأحزاب فى حكومة واحدة لا يتصارع أعضاؤها على كراسى الوزارة حاكم يستطيع أن يقضى على التخلف والفساد والأمية والمرض والتفكك الذى تعانى منه مصر ويستطيع أن يخلق نهضة اقتصادية قوية وسريعة من النوع الذى يحققه كل من موسولينى فى إيطاليا وهتلر فى ألمانيا .

لأن كلا من موسولينى وهتلر بدأ يسلك منهجاً فى السياسة الخارجية معادياً للانجليز ، فقد بدأ تيار كبير بين الطلبة يؤمن بأن « عدو عدوى هو صديقى » .

بل إنه بعد فترة بدأت تنتشر بين الأحزاب تشكيلات مسلحة من نوع القمصان الزرق والقمصان الخضر . . على غرار التشكيلات المسلحة التى كانت جزءاً من الحزب الفاشى فى إيطاليا والحزب النازى فى ألمانيا . .

وفى كل يوم يمر كان الغليان الوطنى يزداد . .

كان زعماء الأحزاب مشغولين بخلافاتهم .

والانجليز مشغولون بممارسة احتلالهم .

والقصر مشغول بين الخضوع للانجليز . . والإيقاع بين الزعماء . .

والطلبة هم وحدهم القوة الوطنية النشيطة والواعية . . والتى لا تريد لبلدها سوى الاستقلال . . ولشعبها التقدم . . ولزعمائها الاتحاد .

إن دستور سنة ١٩٢٣ معطل ، والملك فؤاد أصدر فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٣٤ مرسوماً ملكياً بإلغاء دستور سنة ١٩٣٠ ، والبرلمان تم تعطيله . . والسلطات كلها ، دستورياً وسياسياً أصبحت فى يد الملك .

وهنا كان من المفارقات المضحكات المبكيات أن القوة التى عارضت ديكتاتورية الملك هى الإنجليز .

والقوة التى أرغمت الملك على الرجوع إلى الديمقراطية هى الإنجليز الذين ضغطوا على الملك من أجل إعادة دستور ١٩٢٣ وانتخاب برلمان جديد .

وكل هذا لم يكن بالطبع حباً فى الملك ولا فى الديمقراطية . . ولكن لأن الإنجليز أقاموا سلطتهم على أساس توازن القوى بين القصر والأحزاب . . وهم لا يريدون لكفة أن ترجح على الأخرى !

أما فى القضية الوطنية نفسها فقد أعلن صمويل هور وزير خارجية إنجلترا تصريحات معادية لمصر . . فى نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، وخرجت على أثرها المظاهرات الوطنية تهتف ضد الإنجليز « يسقط هور . . ابن الطور . . !

على أن الطلبة كانوا يدركون بغريزتهم أن معركتهم هى أولا مع زعمائهم هم . . قبل أن تكون مع الإنجليز . . إن تفرق الأحزاب واختلاف الزعماء ، هو ما يفتت الوحدة الوطنية فى مواجهة الإنجليز ، ويسمح للملك بالعبث بالدستور وبكل شيء غير الدستور .

إن الأساس الأول إذن هو توحيد الصفوف ضد الإنجليز ، بعد أن تفشت مظاهر الاحتلال فى كل شيء . . والمصرى هو الوحيد الغريب داخل أرضه ووطنه .

ومن هنا كان صراخ الطلبة فى وجه مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد : الائتلاف يا باشا . .

ومن هنا كانت ثورة الطلبة ضد زعماء الأحزاب الأخرى .

ومن هنا كانت المظاهرات تتجدد يوماً بعد يوم . وفى كل يوم تزداد المظاهرات حدة . . لأن الانجليز أصبحوا يضربون فى المليان . . والإصابات ، ما بين قتلى وجرحى ، بدأت تتزايد من بين الطلبة ، الذين كانوا فى تلك الأيام هم – كما قلت – قمة النشاط الوطنى .

وبدأ زعماء الأحزاب يدركون لأول مرة أن الموقف سوف يفلت من أيديهم وأن الشعب نفسه قد يستدير ضدهم ، إذا لم يتناسوا خلافاتهم بسرعة .

وأخيراً تحرك الزعماء !

لقد أرسلوا إلى الملك التماساً يحمل إسم تجمعهم الجديد، باعتبارهم « جبهة وطنية ».

وأعيد دستور سنة ١٩٢٣ بمرسوم ملكي صدر فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ .

وبدأ الإعداد لانتخابات جديدة .

وقبل أن تعلن نتائج الانتخابات مات الملك فؤاد فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ .

وأعلنت نتيجة الانتخابات . وفاز حزب الوفد طبعاً بالأغلبية ، ولكن مصطفى النحاس قرر أن يكون تشكيل الوزارة من حزب الوفد ، أما هيئة المفاوضات فكانت تضم ممثلين لجميع الأحزاب وبعض المستقلين فى صورة جبهة وطنية من أجل التفاوض مع الإنجليز وهو أساساً مطلب الطلبة ، وكانت النتيجة هى معاهدة ١٩٣٦ التى تم إبرامها مع بريطانيا فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ . . كما ألغيت الامتيازات الأجنبية بموجب معاهدة منترو فى أبريل ١٩٣٧ .

كان هذا أول انتصار ضخم تحققه ثورة الطلبة فى تلك الفترة . . الأمر الذى كان له انعكاسه الإيجابى على تطور الحركة الوطنية فى مصر . .

ووسط هذا الفوران النفسى والوطنى والاجتماعى . . كانت سنة تخرجى من كلية الزراعة تقترب وسنوات دراستى الجامعية تصل إلى النهاية .

وكان لابد قبل أن يحصل الطالب فى كلية الزراعة على البكالوريوس أن يفلح فى الأرض بيده لمدة ثلاثة أشهر بعد انتهاء السنة الدراسية ، لا يحصل على شهادة تخرجه إلا بعدها .

واخترت أن أقضى الشهور الثلاثة الخاصة بى فى مزرعة القناطر مع المرحوم الدكتور أحمد المحروق الذى كان موظفاً فى مصلحة البساتين .

وقضيت الأشهر الثلاثة لكى أكتب بعدها تقريراً عن التجربة أقدمه إلى الكلية كما هو مقرر .

وحصلت على البكالوريوس .

لقد حصلت أخيراً على شهادتى الجامعية . . التى تشهد بأننى حصلت على قدر من المعرفة . . لكى أخرج بعدها إلى الحياة العملية . . حيث كل المعرفة !

الفصل الرابع

سنوات الحب والحرب

كان ارتباطى بالأرض من البداية شيئاً بلا حدود ، إنه شىء بديهى ، أو ربما غريزى ، بحيث أننى كنت أكتشف دائماً أنه موجود داخلى من البداية ، بغير أن أحدد له ساعة أو تاريخاً .

إننى أحببت أسرتى ، التى عاشت وارتبطت من البداية بالزراعة والأرض .

وأحببت أبى ، الذى كانت الأرض بالنسبة له هى محور حياته ، والريف هو حصنه ومأواه وحبه الأخير .

وأحببت دراستى ، التى تخصصت فى النهاية عن كلية الزراعة . والزراعة لا يمكن ممارستها من داخل حجرة ، ولا من على مكتب ، ولا من التعامل مع أرقام وأوراق . إنها تعامل مع بشر ، وعلاقة عاطفية مع أرض . . لا يمكن أن تعطيك قبل أن تعطيها ، ولا أن تفى لك . . قبل أن تكون أنت وفياً لها . . وحنوناً معها .

وأحببت فتاتى ، التى ركزت بالنسبة لى كل صفات البساطة والصدق والعطاء والأصالة والوضوح والأمانة والوفاء والطيبة ، التى هى جميعاً صفات أصيلة للأرض فى ريفنا .

وفتاتى كانت بدورها هى تلخيص لكل صفات الأرض الطيبة ، وتركيز مدهش لملامح هذه الأرض . . بحيث أن الإنسان يكتشف فجأة أن عواطفه نحوها موجودة فى داخله من البداية . . بغير أن يحدد لها ساعة أو تاريخاً .

لقد عدت إلى القرية بعد انتهاء دراستي الجامعية .

وبدأت أعمل فى الأرض . . حبى الأول .

. . وبدأت أفكر فى فتاتى . . حبى الكبير .

ولكن الأمور جاءت أسرع من أفكارى . فنى أحد الأيام . . كنا نتناول الإفطار أبى وأمى وأنا وإخوتى ،حينما فاجأنى أبى بسؤال . .

— سيد . . إنت مش ناوى تتجوز ؟

قلت له وقد أصابتنى المفاجأة بالارتباك . . آه . . طبعاً عاد أبى يسألنى . .عظيم . . خلاص . . أنا حابتدى أكلم أصحابى . . ونعمل ترتيب علشان نشوف بنات العائلات وبعدين نختار منهم .

إننى توقفت عن تناول الطعام لدقيقة أو دقيقتين ، ثم أخيراً تمالكت نفسى ، واستجمعت شجاعتى وأنا أستعد لإلقاء القنبلة .

قلت لأبى . . أنا خلاص . . اخترت .

تطلع أبى إلى متفحصاً وجهى وهو يقول . . اخترت مين ؟

هنا جاءت القنبلة . . قلت له . . اخترت سعاد . . بنت حسن بك مرعى .

وعند هذه اللحظة وضع أبى المعلقة على المائدة ،وتوقف تماماً عن الطعام وساد المائدة صمت رهيب . ألم أقل وأتوقع أنها قنبلة ؟

كانت المشكلة هى أن أبى على خلاف شديد مع الأستاذ حسن مرعى والد سعاد ، إن جذور الخلاف قديمة بالإضافة إلى أسباب انتخابية . إن هذا الخلاف ، لأنه كان سياسياً يتعلق بانتماء كل منهما إلى حزب سياسى مختلف ، كان يلقى ظلاله على العلاقة بين الأسرتين ،ومع ذلك فإنه لم يكن يمنع أبداً من التزاور الطبيعى والحد الأدنى من المودة بين أعضاء الأسرتين اللتين تربط بينهما صلة القرابة . بل إن العلاقات بين الأبوين نفسيهما — أبى ووالد سعاد — كانت تسير على ما يرام إلى أن تأتى

الانتخابات . عندها تتكهرب العلاقات ، وتظل متوترة إلى أن تنتهى الانتخابات . . ثم تعود المودة ــ وتظل قائمة إلى أن تأتى انتخابات جديدة .

ولم يكن اختيارى لسعاد وليد اللحظة ــ وإنما تكون على امتداد سنوات قليلة سابقة ، حينما كنت أراها عند عمتى . إن كلا من أسرتها وأسرتى هما من الأسر الريفية المحافظة ، برغم أن سعاد نفسها كانت تتلقى تعليمها الفرنسى فى القاهرة ولا تأتى إلى الريف إلا فى الإجازة الصيفية .

ولم يكن أحد يعرف باختيارى هذا سوى والدتى وعمتى اللتين تحمستا للاختيار ، وإن كانت النصيحة التى سمعتها منهما هى الانتظار أولا حتى أتخرج من الجامعة .

وعندما تخرجت وعدت إلى « كفر الأربعين » اقترحت على والدتى أو عمتى أن تقوم إحداهما بمفاتحة أبى فى الموضوع ، ولكنهما قالتا لى . .

ــ إنت اللى لازم تتكلم . . أنت بقيت راجل . . ولازم إنت اللى تتكلم .

وقررت فعلا أن أتكلم . . ولكن بعد قليل خشيت من ثورة أبى . . أنه مختلف سياسياً مع والد سعاد برغم قرابتهما . . وهناك احتمال ، حتى لو اقتنع أبى ، ألا يوافق والد سعاد . . وعندها سوف يكون رد فعل أبى حاداً جداً .

ولقد كنت ما أزال أعيش وسط هذا التردد . . حينما فاجأنى أبى بمفاتحتى فى موضوع الزواج . . وفاتحته أنا بأننى قد اخترت فعلا سعاد بنت حسن بك مرعى .

وظل أبى صامتاً على مائدة الإفطار لمدة دقيقة ــ كانت بالنسبة لى أكثر من سنة ــ ثم بدأ يتكلم بعدها .

قال أبى . . إسمع يا سيد . إنت ربما تندهش لو قلت لك إننى أوافقك على هذا الاختيار .

قلت وقد بدأت أتمالك نفسى قليلا . . إننى لا أندهش فقط ــ ولكنها مفاجأة سارة جداً . لقد كنت أخشى أن يكون لكلماتى وقع القنبلة .

قال أبى . . بالعكس . أنا موافق . وأبارك هذا الاختيار . ومهما كان من خلاف بينى وبين حسن مرعى . . إلا أننى أعتبره رجلا ، وفى منتهى الشهامة والرجولة وأرى أنه رجل يستحق فعلا أن تناسبه . ثم . . إنت ماذا يهمك من خلافى معه أو خلافه معى ؟ أنتما ستكونان زوجان ولكما حياتكما المستقلة ولا شأن لكما بنا .

لقد جعلتنى موافقة أبى أشعر براحة نفسية شديدة فلقد كانت تلك العقبة فى حد ذاتها حاجزاً يمنعنى من رؤية العقبات الأخرى . أما الآن ، وبعد أن حصلت فعلا على موافقة أبى ، فقد بدأت أفكر بسرعة فى تلك العقبات الأخرى ، وكانت أولها تتعلق بسعاد نفسها .

إن أسرة سعاد محافظة وريفية ، وسعاد نفسها تحس بالانتماء إلى الريف بشدة ، ولكن ، بعد أن تلقت تعليمها بالفرنسية ، وذهبت إلى السينما ، وتختار ملابسها بأناقة ، واعتادت الحياة العصرية معظم السنة فى القاهرة . . هل ستقبل بعد هذا كله أن تكون حياتها الدائمة فى الريف ؟

لم أكن أستطيع بالطبع معرفة إجاباتها المباشرة على تلك الأسئلة فى تلك اللحظة ، ولكن تبين لى فيما بعد أنها هى أيضاً كانت فى حالة مماثلة من التردد .

لقد ذهب أبى إلى والدها وفاتحه فى الأمر ، وبعدها فاتح حسن بك إبنته فى الموضوع قائلا لها . . إمبارح عمى أحمد جالنا هنا وتقدم بسيد طالباً يدك للخطوبة . إيه رأيك ؟

إن سعاد لم ترد لأنها فى الدرجة الأولى لم تكن تتوقع أن والدها سوف يأخذ رأيها .

قال لها حسن بك . . على كل حال فكرى يومين ثلاثة لو وافقتى تبقى بشرة خير . . ولو لم توافقى فلا أنا حازعل . . ولا والد سيد حايزعل . . ودى حياتك إنت ولك فيها الكلمة الأولى .

وكما حدث معى فإن التردد بدأ مع سعاد فى نفس اللحظة كما تبين لى فيما بعد .

لقد قالت لها بعض قريباتها إنها إذا قبلتى زوجاً فلن يكون معنى هذا الحياة فى الريف فقط ، وإنما أيضاً الحياة وسط أسرة كبيرة يرتبط فيها الأب ، (أبى أنا) بخلاف سياسى متجدد مع أبيها . ولقد ظل ترددها هذا قائماً إلى أن حسمه والدها هى .

فبعد يومين عاد حسن بك إلى مفاتحة ابنته فى الموضوع قائلا . . هيه . . دلوقت إيه رأيك ؟ أنا عايز أرد على عمى أحمد . .

قالت سعاد . . يا بابا . . أنا مش عارفه . ده جواز ومستقبل ، وأنا حاعرف منين إذا كان المستقبل كويس ولا مش كويس ؟ طبعاً أنا شفت سيد وشكله كويس وعيلته كويسة وهو نفسه كويس . . لكن أنا مش عارفه المستقبل . إنت إيه رأيك يا بابا ؟

قال حسن بك لابنته . . أنا حاقول لك رأيى . سيد ده ابن عمى . . وكل تصرفاته فيها رجولة ، وهو نفسه كفء وجدع وأخلاقه كويسة . وأنا أسمع عنه كل خير خصوصاً وإن هوايته هى أنه يمسك أعمال والده . . وتصرفاته مع الفلاحين فى البلد ومع التجار فى البيع والشراء هى تصرفات تتميز بالرجولة ، ولذلك فلا تشغلى بالك بخلافى أنا مع أبيه . . لأنك حاتكونى فى حماية راجل . . وفى وسط أهلك . . . واختيارك فى محله .

هكذا إذن تم اتفاق الأسرتين ، وتحدد موعد الخطبة .

موقف محرج ليلة الخطوبة :

فى تلك الأثناء كنت أزاول عملى بالقرية كالمعتاد ، وسط الحقول الزراعية وبين المواشى والمحاصيل . . وفى يوم حدث أننى بينما أربت بيدى على ظهر أحد العجول لفحنى بذيله على عينى . لم تكن الضربة قاسية ولكنها كانت مؤلمة ، وبعد قليل أحسست بتعب فى عينى فبدأت أدعكها بيدى لحظات ، وانتهى الأمر عند هذا الحد .

كان هذا يوم الأربعاء ..

وفى اليوم التالى ، الذى كان هو الخميس وهو أيضاً موعد ذهابنا إلى أسرة سعاد لخطبتها رسمياً ، صحوت من النوم لأجد عينى متورمة . وبدأنا نبحث عن طبيب فى القرية المجاورة بغير جدوى كل هذا وعينى تزداد تورماً ساعة بعد ساعة .

وأثناء مواصلتنا البحث عن طبيب كان الموقف يزداد تحرجا هل نؤجل الخطوبة الليلة ؟ إن هذا سيخلق بالتأكيد أزمة عائلية بين الأسرتين ربما تؤدى إلى إلغاء الاتفاق كله . وإذا ذهبت بعينى متورمة هكذا . . هل يكون هذا شيئاً مثيراً للتفاؤل ، أو حتى منظراً مقبولا ؟

وأخيراً عثرنا على طبيب ، ورافقنى إليه أحد أقاربى . وبمجرد أن كشف الطبيب على عينى قال لى . . العملية خطيرة جداً ، وأنت عندك انسداد من الأصل فى الغدة الدمعية ولابد من إجراء عملية جراحية سريعة .

وزاد هذا من ارتباكى وقلقى . وسألت الطبيب : ألا يمكن عمل مسكنات

فكر الطبيب قليلا ثم قال مستسلماً . . زى بعضه . . ولو إن ده فيه شىء من الخطورة .

هكذا خرجت من عند الطبيب ، بكمادات على عينى . وعينى نفسها متورمة . . وتضيف إلى ارتباكى الطبيعى قدراً إضافياً من الارتباك . . وهو الأمر الذى لاحظته سعاد تماماً وأخبرتنى به فيما بعد .

كانت الخطبة بسيطة جداً ، بعدد محدود من أعضاء الأسرتين واقتصرت على قراءة الفاتحة وتبادل الدبلتين التقليديتين . . وبعدها خرجنا جميعاً لكى نتناول العشاء فى مطعم « الكورسال » بمصر الجديدة .

ومن اليوم التالى بدأ والدى يفكر فى بناء منزل خاص ، بجوار منزل الأسرة فى « كفر الأربعين » لكى يكون هو بيت الزوجية بالنسبة لى ولسعاد . وبدأت

أنا أوزع إقامتى بين كفر الأربعين والقاهرة ، فى القرية أربعة أيام وفى القاهرة ثلاثة . . لكى أرى سعاد فى منزل أسرتها أو نخرج معاً بصحبة أحد من أسرتها .

واستمرت فترة الخطوبة سنتين .

وعندما حددنا أخيراً موعد عقد القران والزفاف كنت أنا ، مثل أى عريس جديد ، متحمساً لإقامة فرح وزينات وخلافه ، واخترت البدلة التى سأرتديها ، بدلة سموكن . . بنطلون إسود وشريط حريرى لامع من فوق لتحت ، والجاكتة مثل تلك التى يرتديها قائد الأوركسترا بالضبط ، وطبعاً بابيون لونه أبيض على قميص أبيض منشى ، وصديرى أبيض من الجانبين ـ وحذاء « لميع » جديد ثمنه الشىء الفلانى وشراب حرير إسود فاخر بعشرة قروش و . . و . . . أجريت بروفة على البدلة كاملة وتخيلت نفسى لحظتها جالساً فى « الكوشة » مع سعاد ليلة الزفاف .

ولكن سعاد لم تتحمس لفكرة الفرح .. لأن والدتها كانت قد توفيت قبل أشهر .

وهكذا تم عقد القران فى حفل أبسط كثيراً مما توقعت ، وبغير أن أرتدى البدلة المشار إليها ، لا تلك الليلة ولا أى ليلة بعدها !

وفى ليلة عقد القران بكت سعاد لأول مرة ! كان بكاؤها بسبب مشاعرها الخاصة نحو والدتها ، التى كانت تتمنى أن تحضر هذه الليلة . وفى الواقع أن هذا كان شعورنا جميعاً فلقد كانت والدة سعاد من السيدات الأصيلات اللاتى يتمتعن دائماً بحلاوة الكلمة ونبل المشاعر وطيبة القلب والاحترام الكامل من الجميع . بل إننى فى الواقع أخشى أن أقول إن إعجابى بوالدة سعاد كان من العوامل الرئيسية التى جعلت إختيارى لسعاد نفسها يتأكد من البداية .

فى بيت الزوجية :

لقد عقد القران عصراً .. ثم تناول الجميع العشاء وبعد يومين سافرنا إلى الأقصر وأسوان لمدة خمسة عشر يوماً هى شهر العسل .

وعند عودتنا من أسوان ذهبنا إلى « كفر الأربعين » حيث بيت الزوجية ، وحيث تجربة سعاد فى الإقامة الدائمة بالقرية لأول مرة .

وعن تلك الفترة تقول سعاد نفسها ..

عندما دخلت البيت فى كفر الأربعين بدأت أواجه لأول مرة تجربة المسئولية بمفردى عن الحياة الزوجية . ولم تكن المسألة هى سيد وأنا فقط ، وإنما الحياة هنا – فى القرية – أوسع كثيراً من حياتنا فى المدينة .. فالأسرة أكبر .. ، والأصدقاء أكثر .. واعتبارات المجاملة أقوى .. والترابط أوسع .

ولقد جعلتنى طبيعة سيد الشخصية نفسها أحتار أكثر . إن سيد نفسه كان طيباً ومتفاهماً وطويل البال وهادىء النفس . ولكن حياته الإجتماعية عريضة وواسعة تماماً . لقد كان يعود إلى المنزل مثلا فى الساعة السادسة مساء لكى يخبرنى بأن مدير المديرية (وقتها كان فؤاد باشا شرين) والحكمدار والمأمور ومساعد المأمور قادمون الليلة على العشاء .

وأسأله مذعورة .. طيب ياسيد ما قلتليش ليه بدرى ؟ ؟

ويرد سيد مرعى .. وأقول لك ليه ؟ ما هو لازم تبقى مستعدة باستمرار ..

طبعاً لابد أن أنبه هنا إلى أنه فى أيامها لم تكن هناك ثلاجات بعد بحيث يخزن فيها الطعام . . أو المياه ، فالمياه نفسها يأتون بها من بحر مويس فى فناطيس ، ثم توضع فى « الأزيار » .. والثلاجة الوحيدة التى كانت متوفرة هى ثلاجة تديرها سربنتينة خشب عادية وأرفف فى أسفلها وصنبور تنقل إليه المياه من أحد الأزيار .. حيث الأزيار نفسها فى غرفة خاصة فى البيت الكبير .. وفوق الصنبور يوجد « برطمان » زجاج تنزل منه المياه فوق مواسير رصاص متجاورة . يوضع فوقها لوح الثلج الذى يتم شراوه من مصنع الثلج .

المهم يفاجئنى سيد بأن خمسة أو عشرة من الضيوف قادمون بدعوة منه إلى العشاء بعد ساعتين مثلا .. ويصبح على أنا أن أدير كل شىء وأذهب إلى البيت

الكبير حيث والدة سيد – التى هى فى مرتبة والدتى أيضاً – لكى تفاجأ هى بحيرتى وارتباكى . وعندما أخبرها بالسبب تأخذ الأمر ببساطة شديدة وتقول لى .. ولا يهمك . أنتم عايزين العشاء الساعة كام ؟ وأقول لها – وأنا مازلت مرتبكة – متهيألى مش قبل الساعة تسعة . وترد هى ببساطة .. خلاص .. روحى أنت جهزى حاجتك وجهزى السفرة وكل حاجة حتكون عندك الساعة تسعة !

« وكان هذا مجرد واحد من الطباع التى تتميز بها شخصية سيد والتى لم تتغير فيه – حتى بعد ٢٥ سنة زواج . أنه إجتماعى .. وأنا لى دائرة محدودة من الصديقات أنه دبلوماسى فى ملبسه وأن كان محباً للفوضى فى دولاب ملابسه . أنه دبلوماسى غالباً فى أحاديثه .. وأن كان يرفض أن يتعامل مع باب أى حجرة فى المنزل بيده ، ولكن يركله بقدمه ! إنه مرتب فى تفكيره .. ومع ذلك ففى الصباح يخرج نصف ملابسه من الدولاب إلى السرير . لكى يختار منها قميصاً وبدلة ، ويترك لى أن أعيد ترتيب الملابس بالدولاب مرة أخرى ! إنه يحب الفلاحة فى الأرض ، ومع ذلك يحب المياه أكثر من الأرض . ولو استطاع سيد أنه يأخذ « دشاً » عشر مرات فى الساعة لفعل .. مصطحباً معه فى كل مرة « البشاكير » المبتلة إلى غرفة النوم وملقياً بها على السرير . إنه دائماً مشغول بقضايا عامة .. ومع ذلك فعندما يجلس مع أصدقائه أو أسرته داخل المنزل .. لايحب الحديث فى السياسة . إنه طويل البال .. ومع ذلك فأحياناً لايحب إضاعة الوقت فى المناقشة والجدل » .

تلك إذن هى بعض آراء سعاد فى التى بدأت تتذكرها من تاريخ زواجنا – فى ٢٦ يناير سنة ١٩٤١ .

ومع أننى أقدر طبعاً أن كل ربة بيت تفضل أن تكون منظمة ومرتبة فى بيتها ، إلا أننى فعلا لم أستطع أن أروض نفسى على ذلك من البداية . وفضلا عن ذلك فإن نشأتى الريفية كان لها أثر كبير مما تراه شريكة عمرى سعاد ، وكلها أشياء صحيحة طبعاً .

من تلك الآثار مثلا أننى إجتماعى إلى درجة كبيرة – أحب التجمع والناس

والأصدقاء ، فالنشأة فى الريف تعلمك الترابط مع الآخرين ، بل وترغمك عليه أحيانـــاً .

ولم يكن ريفنا المصرى يخلو أبداً من هذا الترابط الإجتماعى ، بل إن هذا الترابط كان دائماً سمة أساسية من سمات الريف المصرى ، وهذا الترابط يبدو فى أكمل صوره .. خصوصاً فى أوقات الأزمات ولقد كانت تلك السنوات من سنوات شبابى المبكر بعد التخرج فى الريف ، هى سنوات عصيبة بلا شك .

سنوات الحرب العالميـــة :

كانت هى سنوات الحرب العالمية الثانيـــة .

لقد نشبت الحرب سنة ١٩٣٩ ، وسرعان ما دخلتها بريطانيا ، وسرعان ما بدأت آثار الحرب العالمية تبدو واضحة فى مصر التى تحتلها بريطانيا .

وفى البداية بدأت الآثار تزحف إلى مصر بالتدريج ، ولكن مع إشتداد المواجهة والقتال بين بريطانيا وفرنسا من جانب وألمانيا وإيطاليا من جانب آخر .. بدأت آثار الحرب تخرج من دائرة قوات الاحتلال البريطانى فى مصر .. إلى مصر نفسها . وبالرغم من أن مصر لم تكن – رسمياً – طرفاً فى الحرب ، ولا أعلنت رسمياً عن انضمامها لأحد الطرفين .. إلا أن الوجود العسكرى البريطانى فى مصر جعلها عملياً فى صف بريطانيا ضد دول المحور .

فمن الناحية المبدئية أخذ جنود الاحتلال البريطانى فى مصر يتضاعفون – ومع تضاعفهم بدأ عدد الملاهى الليلية ، لسهرهم وتسليتهم ، يتضاعف . وبدأنا نرى بوضوح فى كل شارع جنديين أو أربعة من القوات البريطانية وهم سكارى يترنحون فى الطرقات .

وبدأ نظام إطفاء الأنوار ليلا :

وبدأت موجة فاحشة من الغلاء فى السلع الضرورية لقوت الشعب ... وفى

مقابل ذلك بدأت تغمر الأسواق كل أنواع العلب المحفوظة والطعام المحفوظ الذى يبيعه الإنجليز للقادرين من المصريين بأسعار مرتفعة .

وبدأت القنابل تتساقط على القاهرة بعد أن إمتدت الغارات الجوية لقوات المحور إلى مصر .

وبدأ الشعب يبحث عن الخبز فلا يجده . بل إنه لا يمكن تصور نوع الخبز الذى كان الناس لا يجدون غيره . إنه خبز مخلوط بالذرة والأرز .. بعد أن حدث نقص فى كميات القمح ، نتيجة لأن مصر التى كانت تتمتع باكتفاء ذاتى فى القمح بدأت تطعم كل هذه العشرات من الألوف من قوات الاحتلال . لهذا بدأ الخبز يصنع من الذرة ويخلط بدقيق الأرز ، ولو تركت الرغيف ثلاث ساعات فإنه يصبح جامداً جداً كقطعة خشب ، وأسود كلون التراب .

وبدأ الريف المصرى يعانى بشدة من إختفاء السلع الضرورية .. ربما أكثر من المدن نفسها .

ولأننا نعيش فى القرية ، وقريتنا تقع ضمن إطار محافظة الشرقية المجاورة مباشرة لقناة السويس .. وتخترقها كل القطارات القادمة من — أو الذاهبة إلى — الإسماعيلية وبور سعيد شرقاً والقاهرة والإسكندرية غرباً .. ولأن كثيراً من معسكرات الجنود الإنجليز ،وقوات الحلفاء عموماً، موجودة فى نطاق المحافظة. فإننا بدأنا نشهد للحرب مظاهر متجددة فىحياتنا اليومية .

فنتيجة للنقص الشديد فى المواد الغذائية لأفراد الشعب .. والتكدس الشديد فى المواد الغذائية لجنود الإحتلال .. بدأ بعض الناس يتخصصون فى نهب قطارات الإمدادات والتموين الذاهبة إلى معسكرات الإنجليز بطريقة جديدة ومبتكرة . فنى كل يوم كان هناك قطاران أو ثلاثة ذاهبة إلى — أو قادمة من — الإسماعيلية وبور سعيد .. عبر مدينة الزقازيق . وفى الطريق .. حيث الصحراء أحياناً والخلاء دائماً .. كان بعض الناس يرقد حاملا فى يده « هلب » له حبل طويل بالقرب

من شريط السكة الحديد . وحينما يأتى القطار ، جاراً خلفه عشرات من حاملات البضائع تضم صناديق من مختلف أنواع الإمدادات .. كان هؤلاء الناس يقذفون بالهلب فوق أى عربة بضاعة يجرها القطار أثناء سيره .. ثم يشد الحبل فيشد معه الهلب ويشد بالتالى الصندوق الذى أمسك به الهلب . كل هذا والقطار فى سرعته المعتادة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الجنود الإنجليز أنفسهم كانوا يبيعون لأفراد الشعب كل أنواع السلع . وبطريقة غير مشروعة طبعاً . فكثيراً ما كنا نرى لورياً محملا بأنواع مختلفة من البضائع الإنجليزية . وفيه جنديان أو ثلاثة ، ويقف اللورى فى شارع أو ميدان حيث يبدأ الجنود الإنجليز فى المساومة مع الأهالى على أسعار الحمولة ، والتى قد تكون بطاطين أو ملايات سرير أو سلاحا أو إطارات سيارات (فالإطار الواحد وصل سعره إلى مائة جنيه) .. وبعدها يعود الجنود إلى معسكرهم ويبلغون أنهم فقدوا حمولتهم فى الطريق لأنهم تعرضوا للسرقة .

وفى المرات القليلة التى كنا نأتى فيها إلى القاهرة لأيام قليلة كنا نشاهد ماهو أسوأ .. ونسمع ما هو أكثر سوءاً ، فالجندى الإنجليزى كان يقضى ليله يسكر ويعربد فى أحد الملاهى الليلية ، ثم يخرج إلى الشارع ليفعل ما يحلو له طالما فى يده سلاح .. فهو ربما يوقف مواطناً فى الطريق ويستولى على نقوده ، أو لا تعجبه فاترينة أحد المحلات فيهشمها .. أو إذا رأى سيدة تسير فى الطريق بمفردها يطاردها .. وهكذا ..

وقد حدث فى إحدى المرات أن ذهبنا إلى سينما مترو بول ، سعاد وأنا وأخى مرعى وزوجته (التى هى شقيقة سعاد) وبعد خروجنا من السينما ذهبنا إلى ، سيارتنا .

وقبل أن ندير موتور السيارة فوجئت بأربعة من الجنود الإنجليز المسلحين يقفزون على « رفرف » السيارة وفوق سقفها وواضح طبعاً أنهم سكارى حتى الثمالة وحالتهم خطيرة وأفعالهم يمكن أن تكون أكثر خطورة .

وعلى الفور ، وبغير أن نفكر ، أدرت موتور السيارة وانطلقت بها بعنف، مستديراً بالسيارة فجأة إلى شارع على اليسار أو شارع على اليمين ، وفى كل استدارة حادة يهوى واحد من الجنود الأربعة إلى أرض الشارع .. تماماً كما فى أفلام السينما .. وبغير هذا لم يكن ممكناً أن نتخلص من سخافاتهم التى يمكن أن تكون أسوأ ما يمكن من شخص ثمل ويحمل سلاحاً ومحصن ضد المحاكمة أو العقاب .

وفى تلك الفترة أيضاً وقع حادث مشهور — عندما قامت دفعة من الجنود الإنجليز المسلحين والسكارى فهم دائماً خارج معسكراتهم سكارى خلال تلك السنوات قاموا بتحطيم محل « الأمريكين » فى شارع عماد الدين بالقاهرة .. ولحظتها كان يوجد بالمحل صديقنا عزيز قدرى .. وصديقنا حسين كامل .. ولولا إسراعهما بالفرار لما استطاعا إنقاذ حياتهما .

ربما من أجل هذا لم أكن أجىء إلى القاهرة كثيراً فى تلك الأيام .. وربما أيضاً لأنى أصبحت منهمكاً تماماً فى فلاحة الأرض ومباشرة أعمال والدى والإشراف على مزرعة المواشى التى أقمناها فى القرية .. وفى الارتباط بالفلاحين الذين كانوا يؤكدون لى كل يوم أن البساطة والأمانة والصدق هى أغلى ما فى الحياة .. وأن الفلاح البسيط حينما يمنحك ثقته فإنه يمنحها بغير حدود .

وكان لذلك تأثيره المباشر على تفكيرى السياسى — فيما بعد — فقد تبلورت أمامى على الطبيعة صورة المجتمع المصرى من القاع وارتباط الأوضاع الإجتماعية بالوضع السياسى العام . وكان إختلاطى مع الفلاحين عن قرب كافياً لكى أحس بمعاناتهم ومشاكلهم وآلامهم .. وشعرت لأول مرة أنه لا بد أن يحدث شىء من أجل هذا الفلاح الصامت ... ؟

وكانت علاقتنا الطيبة مع الفلاحين تجعلهم يلجأون إلينا فى أى وقت .. ومازلت أذكر واقعة صغيرة ولكن لها مدلولها .. عندما جاءنى أحد الفلاحين وأخذ يدق على باب غرفتى فى الفجر وأيقظنى من النوم ووجدته يبكى بحرارة

لأن جاموسته قد ماتت .. ومن هنا فكرت فى إيجاد نوع من التأمين على الماشية حتى لا يضيع رأس مال الفلاح فجأة .. وخصصت للطبيب البيطرى عيادة فى المزرعة وكان يجيء مرتين فى الأسبوع ليفحص الأبقار والجاموس والخيول لكل الفلاحين .

وبرغم أنه لم تكن هناك قوانين للاصلاح الزراعى — فى ذلك الوقت — تحدد العلاقة بين المالك والمستأجر ، إلا أن أبى كان يؤجر أرضه بأقل من الإيجار السائد فى الزمام ، وقد اتبعت نفس الأسلوب للتخفيف عن كاهل الفلاحين.. مثلا كانوا يؤجرون الفدان بستين جنيهاً ولكننى كنت أؤجره بثلاثين جنيهاً فقط .. ولذلك كان الفلاحون يزحون إلينا من مناطق بعيدة ويتهافتون على التعامل معنا .. وكنت حريصاً على أن يظل اسمنا نظيفاً فى المنطقة ومرتبطاً بالرحمة والعدل . وكانت هناك جمعية تعاونية فى بنها لتصدير الخضروات والفاكهة . وفى أحد الأيام جاءنى بعض صغار الزراع وقالوا لى .. إنهم لم يستطيعوا الاشتراك فى الجمعية لأن فلان وفلان — من كبار الملاك — يسيطرون عليها ويفرضون مصالحهم الخاصة .. وأخذت أفكر كيف أنقذ هؤلاء المزارعين من الاستغلال.. وكيف أعاونهم على تسويق محاصيلهم . ؟ .

وكان هناك إثنان من أقاربى — ضمن كبار الملاك — لكننى قررت أن أدخل فى مواجهة معهما وإلى جانب المزارعين الصغار :. وانتظرنا انعقاد أول جمعية عمومية .. وأسقطنا فى انتخاباتها هذا الطاقم القديم كله .. وكانت أزمة عائلية لا أول لها ولا آخر ولم أهتز على الإطلاق ومضيت بالمعركة إلى مداها ، وتوليت بعد ذلك إدارة شئون هذه الجمعية واعتبرتها التحدى الأول فى حياتى العملية — بعد التحدى السابق فى حياتى الدراسية — وكنت أعمل فيها من التاسعة صباحاً حتى الحادية عشرة مساء .. وكان وقتها ساباً حبشى وزيراً للتجارة وأبدى إعجابه بنشاط الجمعية وأمكننا تصدير الخضروات إلى إنجلترا وأوروبا .. واتفقنا مع شركة فلسطينية لتعبئة الموالح — وكانت أول تجربة فى مصر — وبدأنا إقامة محطة

لتعبئة البرتقال والموالح .. وكانت كلها جهوداً ذاتية ولكنها كانت كافية لكى يبرز إسمى فى المنطقة نموذجا للتفكير الجديد المتغير عن التفكير التقليدى السائد فى ريف مصر خلال تلك الفترة .. وبرغم أننى كنت أملك حدائق فى أرضى وكنت أدير محطة الموالح إلا أننى رفضت تصدير برتقالة واحدة من محصولى إلى الخارج حتى لا يقال أننى أستغل وضعى لتحقيق مصالح شخصية .. وبقيت على ذلك الحرص طوال العامين أو الثلاثة التى توليت فيها مسئولية هذه الجمعية الزراعية ...

هذا الأسلوب فى التفكير .. وذلك النمط فى العمل .. كان يدفعنى شيئاً فشيئاً إلى دائرة العمل السياسى .

وتشكلت عندى فلسفة معينة – ربما كانت مرفوضة من جانب التفكير السياسى العام وقتها – وكان أساسها رفع الظلم الإجتماعى عن الفلاح وتحقيق العدل فى التوزيع وكنت أحاول قدر إستطاعتى تطبيق أفكارى فى دائرتى المحدودة .. وكنت أقول لنفسى .. لا يمكن أن يكون عندى كل شىء بينما من حولى لايجدون رغيف الخبز ..

وجاءت المعركة مع كبار الملاك وكبار المصدرين لكى تزيد اقتناعى بانفصال هذه الطبقة – التى تتمثل فى طبقة كبار الملاك – عن طبقة الفلاحين ، ومن خلال مناقشاتى معهم كنت أشعر أننى أفكر بطريقة مختلفة عن تفكيرهم .. وكانت هذه مقدمات الدخول فى مرحلة العمل السياسى .

كان أبى صديقاً للدكتور أحمد ماهر « باشا » ومحمود فهمى النقراشى «باشا» وكنت ألاحظ إعجابه الشديد بالنقراشى .. وعندما انفصل الدكتور ماهر والنقراشى عن حزب الوفد كان أحمد مرعى نصر فى مقدمة الأعضاء السبعين الذين تركوا الوفد وانضموا إلى الهيئة السعدية – فى ذلك الوقت – وكنت قد التقيت بهما عدة مرات مع والدى واقتصرت معرفتى بهما عند هذا الحد

وفى سنة ١٩٤٤ تولى الدكتور أحمد ماهر رئاسة الوزراء وكانت الحكومة الائتلافية هى المكلفة بإجراء الإنتخابات وبرغم التهافت الشديد على دخولها إلا أننى لم أفكر فى ترشيح نفسى لأنى لم أكن وثيق الصلة مع الدكتور ماهر والنقراشى بالقدر الذى يجعلنى أخوض المعركة الإنتخابية .

وسافرت إلى الصعيد لمباشرة العمل فى أرضنا الزراعية فى « المنيا » ونزلت فى لوكاندة « سافوى » المواجهة لمبنى المحطة .. وفى إحدى الليالى فوجئت بجرس التليفون يدق فى غرفتى وأخبرونى بأن النقراشى « باشا » على الخط يطلبنى شخصياً .. وجاءنى صوته يسألنى ..

ــ أنت بتعمل إيه عندك ... وسايب الدائرة ؟

وأخبرته أن هنـــاك أعمالا تطلبت ذهـــابى إلى الصعيـــد ووجدته يســـألنى مرة أخرى ..

ــ لماذا لم تفكر فى ترشيح نفسك فى الإنتخابات .. ؟

وكان السؤال مفاجأة أخرى لى .. ولم يمهلنى النقراشى وطلب منى أن أذهب إلى القاهرة لمقابلته على الفور .. وركبت أول قطار فى الصباح وتوجهت إلى مكتبه فى وزارة الخارجية ولم أكد أدخل عليه حتى قال لى ..

ــ لا بد أن ترشح نفسك فى العزيزية ..

خبطت الكلمة فى أذنى لأول وهلة بغير معنى محدد .. فأنا لم أهيء نفسى بعد لممارسة العمل النيابى .. بل ولا أعرف بعد هل يثير هذا العمل حماســى أم لا ...

وقلت للنقراشى .. إذن .. أعطنى فرصة لأفكر ..

رد النقراشى . . لا وقت للتفكير . . وأحب أن أؤكد أن معلوماتى عنك طيبة وأن موقفك جيد فى الدائرة .. هذا إلا إذا كنت تخشى السقوط . ! .

الفصل الخامس

الدروس الأولى في الحياة البرلمانية

كان الموقف السياسى فى تلك السنة – ١٩٤٤ – مثيراً للتشوش والإرتباك .

إن هناك حربا عالمية كبرى – هى الثانية فى أقل من ربع قرن – وتدور رحاها منذ خمس سنوات بين دول المحور وألمانيا وإيطاليا واليابان من ناحية ودول الحلفاء وهى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة من ناحية أخرى .

وكانت مصر من الناحية العملية طرفاً فى هذه الحرب ، بحكم الخدمات التى تقدمها لجنود الاحتلال البريطانى ومن يسير فى فلكهم .. وإن كانت مصر – نظرياً فقط – دولة محايدة .

وكانت الأحكام العرفية معلنة ، وذلك بناء على طلب الإنجليز وتنفيذاً لأحد نصوص معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا .

وكانت هناك الأحزاب الخمسة الرئيسية التى تباشر العمل السياسى ، وهى حزب الوفد وحزب الهيئة السعدية وحزب الكتلة الوفدية .. والحزب الوطنى وحزب الأحرار الدستوريين .

وكان أبرز هذه الأحزاب هو حزب الوفد بالطبع ، الذى كان دائماً هو حزب الأغلبية .. إلا أن حزب الوفد كان قد بدأ يميل «للمركزيةقاهرة» ظهرت قبل ذلك مع تكوين القمصان الزرق من التنظيمات الشبابية لحماية الشباب الوفدى من الوقوع تحت تأثير الأحزاب الأخرى .. ثم تحول إلى تشكيل سياسى يتبع

الوفد ، وتفشت العصبيات والمحسوبيات فى الحزب وطرد محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر من الوفد ليكونا الحزب السعدى مع مجموعة صغيرة من الوفديين السابقين . وبالرغم من أن هذا الخلاف قام أساساً على إعتبارات شخصية ، إلا أن الحزب الجديد أعطى بعض الاهتمامات الاقتصادية ، وعندما عطل البرلمان وأجريت إنتخابات ١٩٣٨ ، ولحقت بالوفد الهزيمة نظراً لتزييف الإنتخابات .. ولدرجة ما بتأثير السخط عليه .. ولأول مرة منذ إنتخابات ١٩٢٤ — باستثناء مقاطعة الانتخابات — لم يكن للوفد أغلبية فى مجلس النواب .. فلقد أصبح للوفد معارضون — بصرف النظر عن تنظيم القمصان الزرق[1] .

وأثناء الحرب العالمية الثانية طلب الإنجليز إعلان الأحكام العسكرية إستناداً إلى معاهدة ١٩٣٦ ، ووضعت الرقابة على الصحف والسينما والإذاعة والخطابات الخاصة ، ووافق عليها البرلمان فى جلسة خاصة .. ولو أن الحرب كانت دائرة إلا أن نشاط البرلمان كان محدوداً فى المسائل الداخلية .

وهكذا .. فى عام ١٩٤٠ أرسل الوفد مذكرة قوية إلى إنجلترا يطلب فيها جلاء القوات البريطانية ، وإعادة المباحثات السودانية فور إنتهاء الحرب . وبصرف النظر عن هذه المذكرة .. التى اعتبرها الإنجليز جزءاً من المناورات السياسية فى الصراع الحزبى الداخلى .. فإن الإنجليز كانوا يعتبرون الوفد هو الحزب الأقوى فى مصر ، والذى لايؤيد الإلمان .

وقد هيأ الإنجليز الفرصة ليرأس النحاس باشا وزارة وفدية يكرهها الملك بأن أجبروه على تكليف النحاس بتشكيل الوزارة .. وعندما تردد الملك بعض الشيء لجأ الإنجليز إلى محاصرة القصر بالدبابات فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ فرضخ الملك على الفور .

---

(١) الحياة النيابيةوالاحزاب فىمصر من ١٨٦٦ الى ١٩٥٢، — جالوب لاندو، ص ١٩٣

ولكن النحاس ، من جانبه ، تبادل الخطابات فى اليوم التالى مع السير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى القاهرة قائلا له : « يا صاحب السعادة .. لقد كلفت بمهمة تأليف الوزارة وقبلت هذا التكليف الذى صدر من جلالة الملك بما له من الحقوق الدستورية . وليكن مفهوماً أن الأساس الذى قبلت عليه هذه المهمة هو أنه لا المعاهدة البريطانية المصرية ، ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة ، يسمحان للحليفة بالتدخل فى شئون مصر الداخلية ، وبخاصة فى تأليف الوزارة أو تغييرها[1] . . ورد عليه السفير البريطانى مؤيداً نفس هذا المعنى .

وبصفة عامة فإن حادث ٤ فبراير وظروفاً كثيرة محيطة به مازالت يحيطها الغموض لسنوات طويلة تالية .. إنما كان لابد من سرده بطريقة تسجيلية مختصرة هنا لأنه سوف يكون له تأثير خفى وكبير فيما سيتلو من إحداث طوال السنوات التالية من تاريخ مصر السياسى .

وفى نهاية سنة ١٩٤٤ ، عندما بدأت بريطانيا تتأكد من مركزها فى الحرب طرد الملك فاروق النحاس (باشا) — وعزل حزب الوفد لعدة سنين تالية .

وهكذا جرت الإنتخابات فى سنة ١٩٤٤ فى ظل توتر سياسى داخلى ظل يتراكم سنة بعد سنة ، وإن كان ما يزال مكتوماً بفعل الأحكام العسكرية ، وبدأت رائحة الفساد تنطلق من القصر الملكى من ناحية ، كما بدأ إنشقاق جديد فى حزب الوفد من ناحية أخرى ، عندما قام مكرم عبيد سكرتير الحزب فى منتصف سنة ١٩٤٢ والرجل المقرب للنحاس (باشا) بالانقلاب المفاجىء عليه ، منضماً إلى قائمة الذين يشهرون بحزب الوفد وبمصطفى النحاس شخصياً .

ولم تكن فكرة ترشيحى لعضوية البرلمان فى هذه الانتخابات تخلو من الجاذبية

---

(١) مذكرات فى السياسة المصرية .. محمد حسين هيكل . الجزء الثانى ص ٢٤٥

محتى تلك السنة كان والدى عضواً بالبرلمان ضمن نواب الهيئة السعدية .. إن السعديين هم أصلا جزء من حزب الوفد ، وهم فى الواقع متفقون معه فى المبادىء الرئيسية وبالتالى فإنهم أقرب إلى التيار الرئيسى فى الحركة الوطنية .

وبرغم أن السياسة كانت جزءاً من حياتنا العائلية ، وبرغم أن والدى كان عضواً فى البرلمان لفترة طويلة ، إلا أنه حتى ذلك الوقت كانت صورتى عن الحياة البرلمانية وردية تماماً .. باعتبار أن البرلمان هو المكان الذى يستطيع فيه الإنسان أن يتكلم بحرية فى أى موضوع عام أو قضية عامة .

وهكذا فإنه بعد حديث النقراشى معى . . . وجدت أن التجربة تستحق عناءها ، وأن حماسى الشديد للخدمة العامة يمكن أن يجد فى البرلمان متنفساً له .

مفاجأة فى الدائرة :

لقد خرجت من عنده إلى « العزيزية » وكانت عودتى إليها بعد فترة انقطاع فى فى كفر الأربعين ولكننى كنت على اتصال دائم بأهلها .. ورشحت نفسى فى الانتخابات عن الهيئة السعدية .. وبدأت أول ممارسة فعلية للعمل السياسى ... وأخذت أقوم بجولة بين قرى الدائرة الانتخابية .

وكانت هناك بلدة مجاورة للعزيزية لها أهمية ، وأصواتها ، لها تأثيرها فى الدائرة — واسمها كفر فرج جرجس — وذهبت إليها فى جولتى وخلال مرورى بها لاحظت فتور الاستقبال من الأهالى .. وأحسست أن هناك شيئا غير عادى وتكشف الموقف عندما سألونى : أنت جاى ليه ؟

ودهشت فى بادئ الأمر ولكننى عذرتهم بعد ما عرفت أن الحكومة قد ضمت بلدتهم إلى دائرة « منيا القمح » — وكان المرشح فيها فكرى أباظة عن الحزب الوطنى — وكان الموقف كله بمثابة الصدمة الأولى ولم تحتمل كبريائى أكثر من ذلك .. وغادرت البلدة على الفور وأنا أغلى من الغضب والغيظ من الحكومة السعدية .. كيف يحدث هذا التصرف بالنسبة لمرشح من السعديين وكيف يضحى النقراشى فى هذا المأزق ؟

وتوجهت مباشرة إلى القاهرة لمقابلة النقراشي « باشا » في وزارة الخارجية وكنت ثائراً وقلت له : — لماذا إذن طلبتم مني ترشيح نفسي في الانتخابات ؟ . . ولماذا كان الإصرار على نزولي المعركة في دائرة العزيزية عن السعديين ثم تفتتون أصوات الدائرة من وراء ظهري ؟ . . و . . و . . ومضيت أدافع عن قضيتي بحماس شديد .

وكان النقراشي مقتنعا بوجهة نظري — تماما — وقال لي : أنا معك في كل ما تقوله وكان المفروض ألا يحدث ذلك حتى لا يؤثر على الأصوات في دائرتك ولكن ماذا أفعل أمام رئيس الحكومة — أحمد ماهر باشا — الذي قرر ذلك ؟ قلت له : ولكن ضم كفر فرج جرجس إلى منيا القمح يخدم فكري أباظة فقط .. وأنا أعتبر ما حدث عدم تقدير من الهيئة السعدية لي .. وكان النقراشي هو المنظم للهيئة السعدية ولذلك كان ينظر إلى الموضوع من هذه الزاوية ومن هنا كان اهتمامه بمرشحي السعديين ووجدته يقول لي : اسمع .. اذهب إلى أحمد ماهر « باشا » واشرح له موقفك . . وحاول إقناعه بوجهة نظرك . . وتحمست بالفعل وذهبت إلى وزارة الداخلية لمقابلة الدكتور أحمد ماهر رئيس الحكومة في مكتبه .. وقابلت هناك بدوي خليفة — وكان وكيلا للداخلية وقتها — وأوضحت له ما حدث في العزيزية وأخذ الرجل يهدئ من انفعالي وقال لي طيب — اهدأ أولا .. لأن دولة ماهر باشا هو المسئول عن ذلك .. وأخذني ودخل إلى مكتب الدكتور أحمد ماهر .. ولم يرحب بي .. على عكس النقراشي — وأخذ ينصت لكلامي في هدوء .. وأنا أقول له : كيف تفعلون ذلك في مرشح السعديين ؟ ولماذا تخدمون فكري أباظة مرشح الحزب الوطني على حسابي ؟

وظهرت علامات الضيق على وجه أحمد ماهر وقال لي : من أنت ؟ أنا لا أعرفك ؟ قلت له بثقة واعتداد بنفسي : أنا سيد مرعي . .

فقال لي : كيف تقارن نفسك إذن برجل مثل فكري أباظة . . صاحب القلم الصحفي والتجارب البرلمانية والخبرة العريضة في السياسة .. ؟ إنك ما زلت صغيراً وإذا كنت تفكر بهذا الأسلوب من أول الطريق فالأفضل لك أن تبتعد عن العمل السياسي ..

قلت له : ولكن ما حدث يؤثر على موقفى فى الدائرة .. ؟

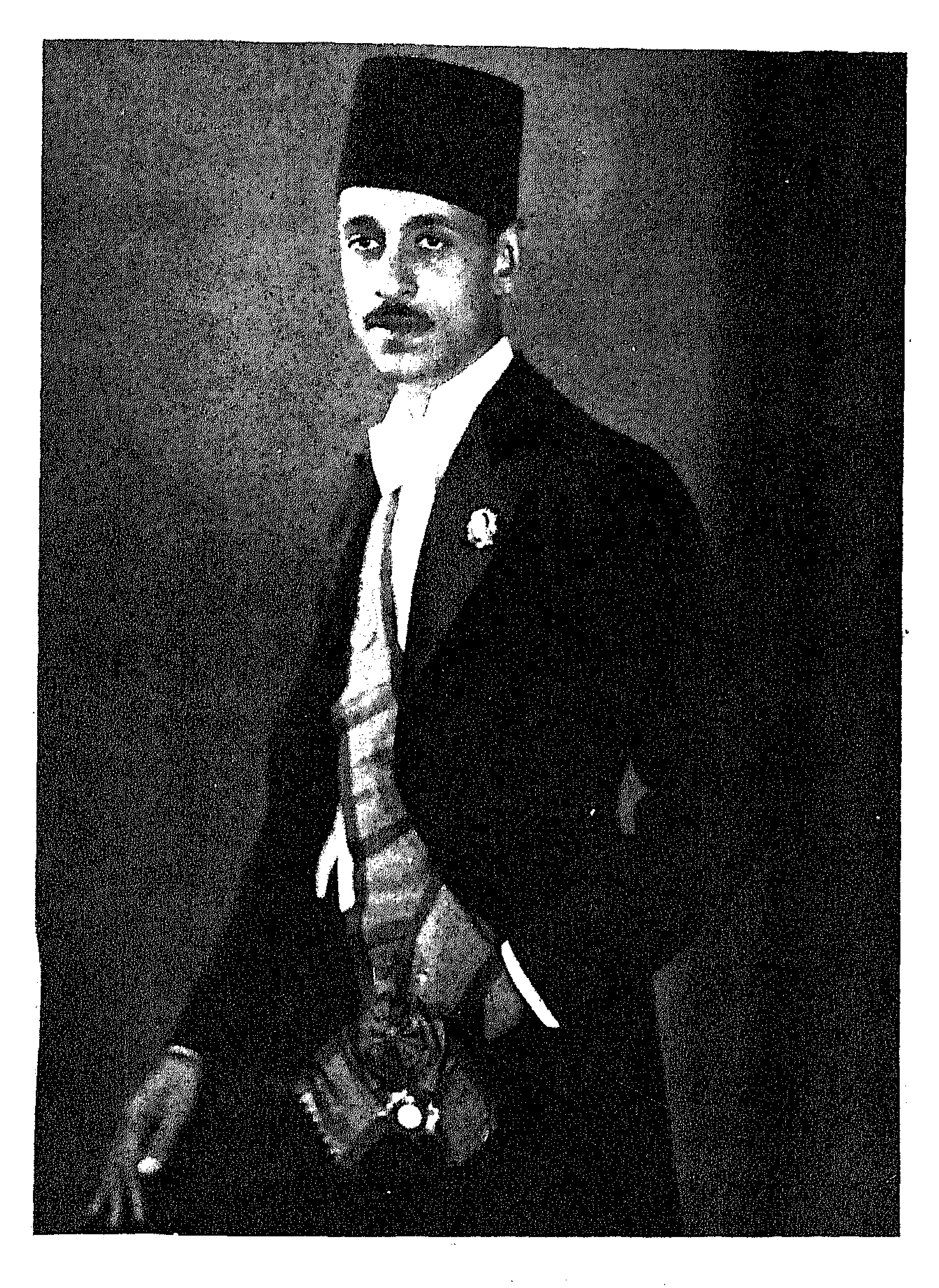
فقال أحمد ماهر : انسحب من الانتخابات .. إذا كنت غير قادر على خوضها. إما أن تكون واثقا من نفسك .. وإما أنك لن تكون سياسا على الإطلاق .

وانتهت المقابلة العاصفة .. وخرجت من مكتب رئيس الحكومة والغضب يملأ رأسى .. وصممت على قبول التحدى وتذكرت ساعتها مدرس الابتدائى والامتحان الشهرى .. وخرج ورائى بدوى خليفة وحاول أن يثنينى عن الانسحاب من الانتخابات .. وقال لى : لا لا تفعل ذلك وفكر فى الأمر بهدوء .

وكان هذا هو التحدى الأول — بل الدرس الأول فى حياتى السياسية .وعدت إلى العزيزية ودخلت المعركة الانتخابية بكل عزيمة الشباب وحماسه .. وقلت لنفسى : سوف أثبت للدكتور ماهر أنه كان مخطئا فى تقديره لى .. واستطعت أن أعوض الأصوات الضائعة من الدائرة .. ونجحت برغم الطعون التى وجهها المنافسون وادعوا أنى دون السن القانونية وأن عمرى ٢٩ سنة ونصف فقط .. فى حين أننى قد تجاوزت الثلاثين فعلا ونجح فكرى أباظة — أيضا — فى منيا القمح .. وقد عرفت فيما بعد أن الدكتور ماهر قصد معاونة فكرى أباظة لأنه كان يواجه معركة ضارية من خصومه فى الانتخابات وكان مهددا بالسقوط . وبرغم أنه لم يكن من السعديين ، وبرغم أنه كان يمثل المعارضة فى مجلس النواب إلا أن أحمد ماهر عز عليه أن يحرم المجلس من شخصية برلمانية ممتازة لذلك ضم جزءاً من دائرتى إلى دائرته حتى يساعده على الفوز .

درس من أحمد ماهر :

وبعد نجاحى فى الانتخابات ذهبت لزيارة النقراشى ، وكنت مازلت متأثراً من موقف أحمد ماهر فلم أذهب لمقابلته . . ولكن بعدها بأيام يشاء القدر أن يدبر لقاء الصدفة معه فى أوبرج الفيوم .. وكنت قد ذهبت للغداء هناك ووجدت نفسى وجها لوجه مع الدكتور أحمد ماهر وعلى عكس المقابلة الأولى أخذ يصافحنى بحرارة ويهنئنى على الفوز وقال لى :



عندما اصبحت عضوا بمجلس النواب لأول مرة وهى صورة بالملابس الرسمية .. أرتدى فيها ((الاستامبولينا)) .. التى تمثل طاقما كاملا يرتديه النواب فى الجلسة الافتتاحية للاستماع الى خطاب العرش من الملك .

أنا أعرف أنك غاضب من حديثي .. ولكنني قصدت أن أعطيك الدرس الأول في العمل السياسي .. وتأكد أنه كان يعز على انسحابك من الانتخابات وقد فكرت برهة أن الحق بك بعد خروجك من مكتبي لكي أثنيك عن الانسحاب ولكنني تركتك تقرر مستقبلك بنفسك وقد صحت نظرتي وأثبت وجودك .

وهكذا كان يفكر السياسي أحمد ماهر .. وهكذا كان يعرف أقدار الرجال حتى ولو كانوا خصومه .

وللحق والتاريخ لقد تأثرت بالدكتور أحمد ماهر وفكرى أباظة منذ بداية تجربتي البرلمانية .. وقد عاصرت الاثنين في مجلس النواب .. وكنت من أصغر الأعضاء سنا .. وتعلمت من الدكتور أحمد ماهر الاندفاع في الحق والشجاعة في إبداء الرأى . كما تعلمت من فكرى أباظة المناورة السياسية وكيفية التعبير بوضوح وبأسلوب سهل عما يريد أن يقوله .

عندما خطوت إلى قاعة مجلس النواب لأول مرة في حياتي لم يكن يدور في خلدى أن أكون شاهداً على جريمة قتل تحت قبة البرلمان . . بعد ماشكل الدكتور أحمد ماهر ، « باشا » الوزارة الائتلافية سنة ١٩٤٤ كان الصراع الدامي بين الحلفاء والمحور يقترب من نهايته . . وكان الرايخ الثالث في برلين يتداعى تحت ضربات الجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية الزاحفة من الغرب . . وكان واضحاً أن الحرب العالمية الثانية على وشك النهاية وأن النصر من نصيب الحلفاء برغم استمرار مقاومة اليابان في الشرق الأقصى — ومعنى ذلك أن مقادير العالم ستكون في أيدى المنتصرين .

وكان الدكتور أحمد ماهر بعيد النظر . . واسع الأفق . ولذلك كانت وجهة نظره التي ينادى بها :

أن مصر يجب أن تحدد موقفها وأن تكون في جانب « المنتصر » حتى تضمن الحصول على حقوقها من انجلترا . . وحتى يكون لها وضعها الدولى في عالم مابعد الحرب . . وإذن يجب أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا حتى يشعر الحلفاء أنها في جانبهم . . وينظروا إلى مطالبها بعين الصديق والحليف .

كانت مصر تقف على الحياد طيلة سنوات الحرب برغم أن الجيوش البريطانية تحتل أرضها . . وبرغم أن الطائرات الألمانية تضرب مدنها بالقنابل خلال غاراتها المتواصلة وخصوصاً بعد ماوصل روميل بجيوشه إلى العلمين . وكان الشعار الموضوع وقتها هو « تجنيب مصر ويلات الحرب » . . ومن هنا كان الموقف السلبي ولكن هتلر كان يعتبر حكومة مصر برغم ذلك فى صف الحلفاء .

وكان الدكتور أحمد ماهر قد أجرى عدة اتصالات دولية وكانت النصيحة التى تلقاها أن خطوة إعلان الحرب على ألمانيا فى هذا التوقيت — قبل أن تضع الحرب أوزارها — فى صالح مصر ولكن كان هناك — أيضاً — من يعارضون رأى احمدماهر ويعتبرونه « خيانة عظمى » لأنه يتعارض مع « تجنيب مصر ويلات الحرب » التى صارت عقيدة عندهم . . ولم يكن أحد يتصور أن يصل الخلاف فى الرأى إلى حد القتل .

مصرع أحمد ماهر فى البرلمان :

ولم يكن أحديتصور أكثر وأكثر أن يكون الرصاص لغة الحوار وأن تقع جريمة الاغتيال السياسى — للمرة الأولى فى مصر — داخل البرلمان .

ولكن القدر كان يخفى هذا الحادث الأليم للدكتور أحمد ماهر — رئيس الوزراء بعد افتتاح الدورة الأولى للهيئة النيابية التاسعة مع بداية سنة ١٩٤٥ .

وبرغم المعارضة العنيفة والتيارات المتضاربة اتخذ الدكتور ماهر قراره بشجاعة وسهر حتى الثانية صباحاً فى إعداد بيانه ومراجعته وذهب إلى الجلسة التاريخية فى مبنى البرلمان مساء السبت ٢٤ فبراير لكى يلقى البيان فى مجلس النواب وفى مجلس الشيوخ بإعلان مصر الحرب على المحور .

وكان بياناً مدعماً بالأسانيد والحجج المنطقية . . ونصه الآتى :

حضرات النواب المحترمين

فى يوم الأحد الماضى الموافق ١٨ الجارى استقبلت فى رياسة مجلس الوزراء جناب المستر أنتونى إيدن وزير خارجية إنجلترا . ومعه كل من الوكيل الدائم

لوزارة الخارجية الإنجليزية وسعادة اللورد كيلرن السفير البريطانى فى مصر . وقد أبلغنى المستر إيدن أن مؤتمر القرم قرر عقد مؤتمر دولى فى مدينة سان فرانسيسكو يوم ٢٥ أبريل المقبـــل .

كما قرر أيضاً أن لا يشترك فى هذا المؤتمر إلا الدول التى تكون قد أعلنت الحرب على المحور قبل أول مارس القادم . وزاد الوزير البريطانى بأن إعلان الحرب يتيح لتلك الدول فوق إشتراكها فى هذا المؤتمر — أن تكون من الأعضاء المؤسسين للهيئة الدولية المزمع تكوينها بعد الحرب . لكى تخلف عصبة الأمم القائمة الآن .

سمعت من المستر إيدن هذا البيان ولم أشأ أن أطلب إيضاحاً أو استفساراً خشية أن يحمل ذلك على محمل قد يحد من حرية الحكومة فى بحثها ومناقشتها ، للموضوع .

وعلى أثر تلك المقابلة إجتمعت بحضرات زملائى الوزراء وتناقشنا فى الأمر ثم قابلت صاحب المقام الرفيع رئيس الديوان الملكى . وبعد ذلك تشرفت بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك ورفعت إلى مقامه السامى تفصيل الأمر وكان جلالته قد قابل جناب المستر روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة قبل ذلك واستقبل جناب المستر تشرشل رئيس الحكومة الإنجليزية الذى عرض على جلالته الأمر فطلب إليه جلالته — بطبيعة الحال — أن يكون الاتصال فى هذا الشأن برئيس حكومته .

ولما كان للأمر أهمية خطيرة بالغة ، رأيت أن أستأنس بآراء الكثير من ذوى الرأى والساسة والزعماء ورؤساء تحرير الصحف . ولم يفتنى أن أشرك فى الرأى زعماء المعارضة فى المجلسين ، وذكرت لحضرات هؤلاء جميعاً تفصيل الأمر وما إنتهى إليه بحث الحكومة فيه وتداولنا طويلا وكنت أحياناً أجتمع بحضراتهم فرادى وفى بعض الأحيان مجتمعين . وقد رأيت فوق ما تقدم أن أضع الأمر موضع البحث أمام الهيئة التى أشرت إليها فى كلامى بمناسبة الرد على خطاب

العرش وهى الهيئة المكونة من الساسة الذين آشتركوا فى المفاوضات المصرية السابقة بطريق أو بآخر ومن رؤساء الأحزاب ورؤساء الوزارات ومجلسى البرلمان السابقين وبها كما ترون حضراتكم كل الضمانات ، التى تجعل لرأيها وزناً وأهمية فى كل ما تشير به على الحكومة مما يتعلق بمصير البلاد ومستقبلها ، وما يتعلق بمطالبها وأمانيها الوطنية .

عرض الأمر على هؤلاء وأولئك جميعاً فكان رأى الأغلبية الكبرى التى تكون إجماعاً هو ضرورة دخول مصر فى الحرب . وكان الرأى أن تستصدر الحكومة مرسوماً ملكياً باعتبار حالة الحرب قائمة بين مصر وحكومة الريخ وإمبراطورية اليابان . وبالرغم من أن هذه الحرب حرب دفاعية لا تقتضى دستورياً موافقة البرلمان ، فقد رأت الحكومة قبل صدور المرسوم أن ترجع لحضراتكم لأخذ رأيكم فى هذا الأمر . رأت الحكومة ذلك ورأت أن تعرض على حضراتكم إلى جانبه مسألة الثقة بها حتى يمكنكم أن تبدوا رأيكم فى الموضوع كله بطريقة فعالة وبحرية كاملة . ولا شك عندى يا حضرات النواب أنكم مدركون تمام الإدراك المسئوليات الملقاة عل عاتقكم نحو بلادكم أولا وقبل كل شىء .

حضرات النواب المحترمين .

أثير فى أثناء هذه المباحثات بعض المسائل فقيل مثلا ألا يحسن أن نعرف أولا ما الذى تفيده مصر من إعلان الحرب ؟ فكان رأى الأغلبية التى تكاد تكون إجماعاً أن ليس الآن محل لمثل هذا السؤال ، لأن مصر على إختلاف حكوماتها وبرلماناتها طلبت الدخول فى مؤتمر الصلح حتى تستطيع الدفاع عن مصالحها وحقوقها . ولقد خابرت حكومة رفعة النحاس باشا السابقة الحكومة الإنجليزية فى هذا الشأن فوصلت معها إلى ما تعرفونه حضراتكم من التبليغ الذى حمله السفير البريطانى لرفعته ونصه :

« ... قد خولت أن أبلغ مقامكم الرفيع أن حكومة جلالة الملك ستبذل خير

معونتها ليتحقق لمصر أن تمثل على قدم المساواة فى جميع مفاوضات الصلح التى تمس مصالحها مباشرة .... » .

والواقع يا حضرات النواب أن رد الحكومة الإنجليزية يتناول أمرين :

الأول : إنها ستجتهد فى أن تمثل مصر فى مؤتمر الصلح على قدم المساواة بالنسبة للمسائل التى تتعلق بمصالح مصر مباشرة .

الثانى : أنه بفرض نجاحها فى سعيها ووصولنا إلى المؤتمر تقوم فى وجوهنا مشكلة فى كل مسألة فنضطر أن نبحث مع الحليفة هل هى تمس مصالح مصر مباشرة أم لا . ؟

ولا يخفى على حضراتكم أن ممثلى مصر سيظلون أثناء هذا البحث خارج الجلسة حتى يتقرر الرأى النهائى فيما إذا كان الموضوع ماساً بمصالح مصر أم لا .

وقد إحتاطت الحكومة البريطانية لاحتمال عدم إمكان وصولنا إلى المؤتمر فزادت فى نهاية تبليغها العبارة التالية :

« وزيادة على ذلك فإن حكومة جلالة الملك لن تدخل فى أثناء هذه المفاوضات فى مناقشة أى شىء يمس مصالح مصر المباشرة طول تبادل الرأى مع الحكومة المصرية » .

والواقع أننا إذا أردنا أن نتبين قيمة هذا التبليغ من الناحية العملية وجدناه لا يدعو للاطمئنان وأظنكم لا تخالفوننى فى هذا الرأى وقد قررت مناقشة هذا الموضوع من ناحية المعارضة فى البرلمان الماضى ورأيت كيف فسرت هذا التبليغ بما أفسره الآن إذن لاخلاف من هذه الناحية بينى وبين المعارضة .

على أنه قد مضى منذ هذا التبليغ زمن طويل ولم نسمع عنه شيئاً ولم يقل رفعة النحاس باشا فى بيانه الذى نشره اليوم أنه قد وصل إلى علمه أن الأمور تقدمت خطوة جديدة بالنسبة لهذا الموضوع فالمسائل باقية على ما كانت عليه .

إذن يصح لنا أن نقول أن العرض الجديد هو الذى يحقق ما يطلبه المصريون من إسماع صوتهم للدفاع عن مصالحهم وعن حقوقهم الوطنية وهذا الأمر الذى

أشار إليه خطاب العرش الأخير أصبح لا سبيل إلى تحقيقه إلا بسلوك طريق واحد معين هو إعلان حالة الحرب على دول المحور قبل أول مارس لذلك رأت الحكومة من واجبها أن تنتهز هذه الفرصة وتسلك هذا الطريق الوحيد المفتوح أمامها للوصول إلى مؤتمر الصلح حتى تستطيع أن تدافع عن مصالح مصر وأن تسمع صوت مصر .

وهنا يعرض لنا سؤال يجب أولاً الجواب عنه لنعرف قيمة هذا الرأى :

هل فى قبولنا لهذه الدعوة وفى تلبيتنا ما قرره مؤتمر القرم ما قد يعرض مصلحة من مصالحنا لخطر ما أو قد يسىء إلى موقف مصر بأى شكل من الأشكال لاسيما فيما يختص بالدفاع عن مصالحها والمطالبة بتحقيق أمانيها الوطنية ؟

إن كان فى ذلك إحتمال مبرر ما كان للأمر وزن يجب أن ندخله فى حسابنا لكن علينا أن نتساءل مرة ثانية ومن جهة أخرى ، هل إذا رفضنا ما يعرض علينا وبقينا حيث كنا وقنعنا بالوعد الذى وعدت به إنجلترا النحاس باشا ثم إمتنع علينا هذا الوعد لرفض الدول قبولنا فى المؤتمر لأى سبب من الأسباب هل نكون فى مركز أحسن ونكون أقدر على إستخلاص حقنا والوصول إلى تحقيق أمانينا الوطنية بسهولة أكثر مما لو ذهبنا إلى هذه المؤتمرات » .

أظن يا حضرات النواب أن الجواب فى الحالتين معين لاخلاف فيه فنى الحالة الأولى نرى أن إشتراك مصر فى هذا المؤتمر يتيح لها فرصة وحيدة لاسماع صوتها للامم التى إنتصرت فى هذه الحرب بعد دفاع مجيد عن المبادىء الديموقراطية وعن حرية الشعوب والتى تقيدت بميثاق الأطلنطى .

وقد تساءل بعضهم سؤالا آخر : ألا يحسن أن نعلم ما تتحمله مصر من مسئوليات نتيجة لدخولها فى هذه الحرب ؟ سؤال دقيق حقاً ولكننى أرى أن فى وضعه الآن للدول التى تعرض علينا الإشتراك معها فى الحرب جرحاً لشعورنا وإيلاماً لشجاعتنا وإنقاصاً من قدر إستعدادنا للتضحية لنحقق ما تطلبه بلادنا من استقلال وحرية وسلام . لذلك لم نفكر فى هذا الشأن وبهذا أجبت الكثيرين ممن سألونى

هذا السؤال حتى أولئكم الذين يرون أن لا تتحمل مصر فى هذا السبيل شيئاً بحجة أن ما ستبذله من ثمن قد لا يحقق لنا شيئاً من المصلحة فى مؤتمرات الصلح .

على أنكم تعلمون يا حضرات النواب أن كثيراً من الدول أعلنت الحرب ولم تعمل شيئاً من الناحية الحربية إلا مساعدات قد تكون قليلة إذا قيست بما قدمت مصر للحليفة فى هذه الحرب . وهناك العراق وهناك إيران وهناك جمهوريات كثيرة من جمهوريات أمريكا الجنوبية أعلنت كلها الحرب ولم تشترك فيها بأية مساعدة كانت وإنما فعلت ذلك بدافع من شعور أدبى حملها على إظهار روح التضامن مع الدول المتحالفة وإن كانت مساهمتها فى الحرب من الناحية المادية ضئيلة الأثر ، بل أكثر من هذا هناك دولة لم تشترك فى الحرب إلا بعد أن إنتهت من بلادها وهى الحبشة . فقد دارت الحرب فى أراضيها بين انجلترا وإيطاليا وعندما طردت الأخيرة من تلك الأراضى وعاد جلالة الإمبراطور إلى إمبراطوريته أعلن الحرب حيث لم يكن ثمة محل لعمل مادى يطلب منها بعد ذلك .

وهنا قال أحد الأعضاء ــ هذا قياس مع الفارق فإن الحبشة اعتدى عليها وحاربت دول المحور .

فرد عليه الدكتور أحمد ماهر بقوله : إن هذا ليس قياسا مع الفارق فالحبشة لم تحارب وإنما إنجلترا هى التى حاربت إيطاليا وأخرجتها من الحبشة وكان الإمبراطور ورجال حكومته فى ذلك الوقت خارج البلاد . وبعد أن استتب الأمر عادوا إليها وأعلنوا الحرب ولم تشترك الحبشة فى شئ بعد ذلك بل شغلت بتنظيم أمورها الداخلية . هذه هى حقيقة الحال فأنا إذن على حق عندما أقول أن الحبشة أعلنت الحرب بعد انتهاء الحرب بالنسبة لها ولم تشترك فيها فعلا بعد الإعلان .

وبودى ــ يا حضرات النواب المحترمين ــ أن أضيف إلى هذه الحجج التى لها صفة منطقية أمرا هاما يلقى ضوءا ساطعا على هذه النقطة ذلك أنه فى حديث لى مع السفير البريطانى سألنى سعادته ما الذى يتجه إليه رأيكم فى الموضوع ــ وكان

المستر إيدن عندما عرض على الأمر قال أنه متروك لتقديركم الخطة التى ترون اتباعها فى هذا الشأن طبقا لما تجدون فيه مصلحة لكم – قلت للسفير أن الرأى يتجه إلى قبول الاشتراك فى إعلان الحرب ، لكنا سمعنا فى اليومين الأخيرين إشاعات تدور فى أنحاء البلاد وفى كثير من الأوساط لم نكن نعلم مصدرها بالضبط هذه الإشاعات هى أنه سيطلب من مصر تجنيد الجيش وإرساله إلى الشرق الأقصى وأنه سيطلب من مصر إرسال نصف مليون عامل للاشتراك فى التجهيزات والإعداد .

فرد السفير بقوله : هذا غير معقول ، إن مصر ساعدت فى هذه الحرب مساعدة قيمة وقد ذكر المستر إيدن ذلك ، بل إنها اشتركت فيها فعلا وإن كانت لم تعلن الحرب . وقد حصل هذا بموافقتنا ورضائنا . ومصر التى خرقت حيادها أكثر من مرة بشكل ملموس محسوس طلبت منا أن نعاونها فى الوصول إلى مؤتمر الصلح . فلما صدر قرار مؤتمر القرم رئى أن نبلغه لها لأن فى ذلك ما يحقق لها ما ترغب من الوصول إلى مؤتمر الصلح ، وهذا كل ما فى الأمر ولكم أن تقرروا بعد ذلك ما تشاءون .

وبذلك قضى على كل هذه الإشاعات التى فسرت بنية حسنة أو بنية سيئة لا أدرى إلا أنها ذاعت وملأت البلاد . وبذلك وضح الأمر من غير أن أجرح شعورى أو شعور المصريين أو أن أنقص من قدر شجاعتهم بالتساؤل عما إذا كان مطلوبا منا التزامات معينة أم لا ؟

تساءل البعض بعد ذلك هل المطلوب هو إعلان الحرب على ألمانيا وحدها أو على ألمانيا واليابان .

والواقع إن ما سمعته من مستر إيدن كان دائرا حول المحور أى ألمانيا واليابان وإن كان أصل كلمة AXE جاءت من أن إيطاليا كانت مشتركة معهما قبل خروجهما من الحرب .

وفى اجتماع الخميس الماضى أثيرت هذه المسألة وكانت المعلومات التى وصلت إلى وزارة الخارجية هنا تفيد أن إعلان الحرب على إحدى الدولتين كاف . وفوق

ذلك فقد علمنا من جهة أخرى من تركيا ما أكد أن إعلان الحرب على ألمانيا وحده يكفى وبالرغم من هذا كان رأينا جميعا أنه يجب إعلان الحرب إذا ما أعلناها على الدولتين معا لأن أمريكا تهتم بلا شك إهتماما كبيرا بمسألة الحرب فى الشرق الأقصى ضد اليابان ونحن كمصريين قادمون على هذه المؤتمرات من مصلحتنا أن نطلب مساعدة كل الديمقراطيات الكبيرة ويجب علينا أن نعمل ما فى استطاعتنا لكسب عطفها فإعلان الحرب على اليابان تسر له أمريكا كل السرور . وتعتبر أنها مجاملة حقيقية لها هى قبل غيرها وإن كانت إنجلترا قد صرحت أكثر من مرة أنها تعتبر الحرب ضد اليابان تكملة واستمرارا للحرب فى أوروبا .

ولقد كانت تركيا فى نفس الموقف وكما بينت عرض عليها للوصول إلى المؤتمر أن تعلن الحرب على ألمانيا أو على الدولتين معا ففضلت أن تعلنها على الدولتين وأعتقد أن السبب فى ذلك يرجع إلى ما بينته لحضراتكم .

قال بعضنا أنا موافق على إعلان الحرب وموافق أن تكون ضد الدولتين وموافق كذلك على ما لم يطلب منا الآن فإذا طلب منا تحمل مسئوليات أخرى وجب أن نتحملها بشجاعة لأن ذلك يزيد من قوة مركزنا ومن قوة الصوت الذى يرتفع بعد ذلك للمطالبة بحقوق مصر . وقال آخر أرى أن نحاول الحصول على كلمة تطمين من إنجلترا بالنسبة لحقوقنا أو على الأقل أرى أن يحسن بنا أن نبلغ إنجلترا أن لنا طلبات وطنية نطلب تحقيقها فأجبت وأجاب الكثيرون أن ليس هذا محله الآن لأسباب :

الأول — أننا نحن الذين طلبنا الوصول إلى مؤتمر الصلح ولا أفهم كيف يجوز لنا إذا ما أجبنا إلى طلبنا أن نطالب بثمن ذلك مهما يكن نوعه .

الثانى — أنه ليس فى الوقت متسع لبحث هذه المطالب لأن الوقت محدد بعدة أيام فقد يحصل أننا عندما نبلغ السفير اليوم أو باكر يستمهلنا حتى يبلغ حكومته وإلى أن يرجع الرد من حكومته يكون قد فات الوقت .

الثالث ـ ألا نجعل هناك محلا لإثارة الشكوك حول موقفنا .

غير أنه بعد إعلان الحرب وبعد أن تكون الهيئة التى أشرت إلى تأليفها قد بدأت عملها بصفة جدية يجوز لها أن تبحث الأمر وأن تقدر ما إذا كانت الفرصة مواتية والكلام غير مفيد فى هذا الموضوع هنا يمكننا أن نقول لإنجلترا أننا نريد أن نذهب إلى هذه المؤتمرات متضامنين متكاتفين مؤيدين بعضنا بعضا حتى يمكن أن نصل إلى هذا التضامن والتكاتف يحسن أن نصفى ما بيننا من خلافات عند ذلك يكون لدينا متسع من الوقت لغاية ٢٥ أبريل على الأقل .

نعرض هذا على إنجلترا فيكون عرضا كريما وحاصلا فى الوقت المناسب يمكننا أن نبين فيه أن هذا الطلب ليس ثمنا لإعلان الحرب وإنما هو تسهيل لما تطلبه مصر وإنجلترا معا من السير جنبا إلى جنب لتحقيق ما ترجوه من السلام العالمى المؤسس على استجابة المطالب الوطنية والأمانى الحقة .

أما إذا بلغناها قبل إعلان الحرب فلها أن تقول أنا لا أبحث فى هذا وأنتم وشأنكم وإذا شئتم أن تعتبروا هذا الرد مانعا من الاشتراك فى مؤتمر الصلح فلكم ذلك فماذا يكون موقفنا فى هذه الحالة ؟

أما إذا بلغناها طلباتنا بعد إعلان الحرب ـ وأنا لا أجزم بذلك ـ لأن الأمر يجب أن يكون محل بحث ودرس دقيق من الهيئة التى أشرت إليها فإن ذلك يكون على كل حال خيرا وفى وقته المناسب .

حضرات النواب المحترمين

إننا لا نجنى شيئا من بقائنا على انفراد وفى عزلة عن سائر الدول بل الخير كل الخير فى التعاون الدولى والاشتراك فى المؤتمرات الدولية . هذه هى السياسة الإيجابية المفيدة فى مصر والمحققة لأمانيها القومية . أما سياسة العزلة والانفراد فهى سياسة سلبية عقيمة لا خير فيها لمصر على الإطلاق إن لم يكن فيها الضرر كل الضرر لآمالنا ومطامحنا فى الحياة الرفيعة الكريمة .

إنى واثق كل الوثوق من قراركم فى هذا الموضوع وآمل أن يكون إجماعيا أو شبه إجماعى ولا يمكن لمصر أن تقول إنها تعرف حقوقها وواجباتها وتقدر مصالحها ثم لا تتأثر إلا بمؤتمرات ترجع فى كثير من الأحيان إلى استخدام كل الظروف لتحقيق أدنى الشهوات وهى شهوة الوصول إلى الحكم » .

وحدث الفأل الأسود :

كنت جالسا فى قاعة مجلس النواب أنصت باهتمام وإعجاب إلى بيان أحمد ماهر التاريخى .. ولم يكد ينتهى منه حتى أخذت أصفق .. وأصفق طويلا — من شدة إعجابى وحماسى — مثل ما فعل غالبية الأعضاء الذين انتزع الرجل تقديرهم وأقنعهم بقوة حجته وسلامة سياسته . وكنت أضع فى إصبعى خاتما أتفاءل به أعطاه لى أحد أفراد أسرتى لا قيمة مالية له ولكنه صاحبنى منذ سنة أولى ثانوى

ولم أنتبه إلى أن الفص الأزرق فى الخاتم قد سقط من شدة التصفيق .. وعندما نظرت فى يدى اكتشفت ضياع الفص الأزرق .. ولا أدرى لماذا انقبض صدرى ساعتها وتشاءمت مما حدث للخاتم .. ؟

وأحسست بشعور غامض مبهم يسيطر على تفكيرى . . أين اختفى الفص ؟ ولماذا فى هذه اللحظة بالذات ؟

وأخذ خاطر غريب يلح على رأسى بأفكار سوداء .. وزاد انشغالى بالبحث عن الفص المفقود .

وبينما كنت أبحث عنه هنا وهناك تحت المقاعد .. سمعت طلقات الرصاص تدوى خارج القاعة .. وحدث الفأل الأسود .

كان الدكتور ماهر يرفض بشدة إجراءات الحراسة الخاصة — كما هو التقليد المتبع مع رؤساء الوزارات — وكان المسئولون فى وزارة الداخلية قد طلبوا منه أن يعينوا له حرسا خاصا — ضمن احتياطات الأمن — ولكنه رفض كعادته وقال :

لا أحب هذه المظاهر الفارغة . . خليها على الله . وتكرر الطلب بإلحاح صباح يوم الحادث أيضا — ولكنه أصر على الرفض .. وبعد أن ألقى بيانه فى مجلس النواب كان يريد أن يخرج من القاعة ليشرب كوبا من الليمون قبل أن يلقى نفس البيان أمام مجلس الشيوخ وقال له النقراشي باشا : ابق هنا بعض الوقت لمناقشة الأعضاء وسأرسل فى طلب عصير الليمون .

ولكنه بعد لحظات خرج إلى البهو الفرعونى ، والتقى على باب القاعة مصادفة مع سعد اللبان — سكرتير على ماهر باشا — وسأله الدكتور ماهر عن صحة أخيه .. وأبلغه سعد اللبان وكان يسير بجواره — ساعتها — إن على ماهر « باشا » موافق على فكرة إعلان الحرب وأنه حضر بالفعل إلى مجلس الشيوخ لكى يقف إلى جانبه ويؤيده .. وكان جواب أحمد ماهر : « الحمد لله » وكانت آخر كلمة ينطق بها .

فأنه لم يكد يخطو بضع خطوات فى طريقه إلى قاعة مجلس الشيوخ حتى انطلقت الرصاصات القاتلة من مسدس القاتل « محمود العيسوى » — وكان محاميا شابا — وسقط رئيس الوزراء صريعا على أرض البهو وسط الذهول والصيحات والدموع .. كان الجميع لا يصدقون عيونهم وآذانهم ولكنها كانت النهاية الأليمة .

لقد مات أحمد ماهر ..

وتتابعت الأحداث السياسية بعد ذلك وتولى النقراشي رئاسة الوزارة وألقى بيان إعلان الحرب فى مجلس الشيوخ الذى دفع أحمد ماهر حياته ثمنا له .

ويشاء القدر ألا يكاد يمضى عام واحد حتى يلقى سياسى بارز مصرعه ، ولكن بشكل آخر وبالقرب من مبنى البرلمان .. فقد كان أحمد حسنين « باشا » رئيس الديوان الملكى — قد تأخر فى مكتبه بقصر عابدين فى ذلك اليوم بالذات من فبراير ١٩٤٦ وكان قد خرج من الديوان فى الساعة الثالثة بعد الظهر وركب فى الجانب الأيسر من سيارته على غير عادته — إذ كان يجلس دائما فى الجانب الأيمن — وكان المطر يهطل بغزارة فوق كوبرى قصر النيل ساعتها .. وكان الطريق مبللا بشدة وفجأة برزت سيارة عسكرية بريطانية من الاتجاه المضاد ، وانزلقت

نحو السيارة التى يركبها حسنين باشا ودارت حول نفسها دورتين ثم صدمت الجانب الأيسر الذى يجلس فيه – وكانت السيارة العسكرية قادمة من ناحية الجزيرة فى الطريق إلى ثكنات قصر النيل .. ولم يحتمل حسنين باشا الصدمة ولقى مصرعه .

وكان شكل الحادث قضاء وقدراً .. ولكن الغموض الذى أحاط به كان ، يؤكد أنه حادث قتل .. ولكن من هو القاتل .. الملك فاروق أو الإنجليز ؟ ولماذا؟

فى ذلك الوقت كانت الوزارة قد استقالت وكلفت السراى إسماعيل صدقى « باشا » بتشكيل الوزارة واعتذر النقراشى باشا عن عدم الاشتراك فيها لاختلاف الخطة والأسلوب .. وقال صدقى : أرجو أن نكون خصوما سياسيين ذوى ولاء.

وكان رد النقراشى : إننى مستقيم فى سياستى .. وسأظل مستقيما دائما ، وكان أحمد حسنين « باشا » قد فرغ من اتصالات تشكيل وزارة صدقى قبل مصرعه بأيام .. وتنحى السعديون والكتلة وامتنعوا عن الاشتراك مع إسماعيل صدقى ، بينما دخلها الأحرار الدستوريون .. ولكن السعديين اشتركوا بعدها بشهور فى وزارة صدقى الثانية التى تشكلت قبل مفاوضات « صدقى – بيفن » فى أواخر ١٩٤٦ .. وكان إبراهيم عبد الهادى يمثل السعديين فى هذه الوزارة .

وما زلت أذكر هذه الفترة القلقة التى كانت مصر فيها تغلى وتثور ضد الاحتلال البريطانى ، وما زالت صور الغضب الذى اجتاح القاهرة بعد وزارة صدقى ماثلة فى ذهنى عندما حدثت مظاهرات « يوم الجلاء » ووقع الصدام الدامى بين البوليس والمتظاهرين من الطلبة والعمال واستعانت الحكومة بمصفحات الجيش لإيقاف الاضطرابات وكان السبب فى هذا الصدام بعض سيارات الجيش البريطانى التى كانت تمر فى شوارع القاهرة وميادينها أثناء المظاهرات .. وبدأت على أثر هذه الأحداث « محادثات الجلاء بين إسماعيل صدقى باشا واللورد ستانسجيت » واشترك فيها : على ماهر وعبد الفتاح يحيى وعلى الشمسى والنقراشى ومكرم عبيد ولطفى السيد وشريف صبرى وحسين سرى ولكنها لم تحقق شيئا .

محاولة مناقشة فى البرلمان :

كان من الطبيعى فى بدء حياتى البرلمانية أن تشدنى القضايا السياسية العامة وكانت أفكارى تتجه دائما نحو الظلم الاجتماعى السائد فى الريف ، وأخذت أبحث بنفسى وأتعمق فى جوهر المعنى ، وخرجت بفكرى إلى دائرة القراءة عن التطور الاجتماعى فى العالم وكنت أفتش عن الطريق الذى يمكننى العمل من خلاله ووضعت أمامى كتاب « رأس المال » لكارل ماركس ، وكتاب «الأرض والفقر فى الشرق الأوسط» لدورن وارنير وكان لهذا الكتاب الأخير تأثير على خط تفكيرى العام ، وكان يناقش وضع الدول العربية العراق وسورية وفلسطين ومصر – ومستوى المعيشة فيها وبخاصة الفلاحين ومستوى الدخل القومى وينتهى البحث إلى حقيقة واحدة : إنه لن يتم الإصلاح فى منطقة الشرق الأوسط إلا إذا تحقق ما يسمى بالإصلاح الزراعى ، وكانت المرة الأولى التى أعرف فيها التعبير الإنجليزى عن الإصلاح الزراعى ، وهذا الكتاب له قصة : فقد كان على الشمسى « باشا » وكان رئيسا لمجلس إدارة البنك الأهلى المصرى – قد دعا مؤلفته لإلقاء محاضرات فى القاهرة وجاءت السيدة « دورن وارنير » وحضرت جميع محاضراتها ودخلت معها فى مناقشات مستفيضة حول كتابها الذى لا يزيد على ٢٠٠ صفحة ، وكانت تنادى بضرورة قيام الإصلاح الزراعى على ثلاثة أسس : تحديد أجر العامل الزراعى – تحديد الملكية الزراعية – تحديد القيمة الإيجارية للأراضى الزراعية .

ودعمت وجهة نظرها بأرقام وإحصائيات عن عدد السكان وعدد الملاك الكبار وأوضحت مظاهر الفقر فى الشرق الأوسط ، وقد صار هذا الكتاب – بالتالى – مرجعا لأفكارى عن العدالة الاجتماعية وكانت هذه السيدة الباحثة العالمية تطوف الجامعات فى أوروبا وأمريكا وتدعو فى الأربعينات لما يسمى بالإصلاح الزراعى .

من هنا بدأت تنبت فى رأسى فكرة التقدم بمشروع مماثل إلى مجلس النواب لتحديد الملكية الزراعية .. وكان الأمر يقتضى منى قدرا عظيما من الشجاعة لمواجهة

العاصفة التى تنتظرنى لو نطقت بكلمة عن ذلك المشروع ، كنت أجلس وسط كبار الملاك فى المجلس وبينهم من يملكون آلاف الأفدنة وكان حامد جودة رئيس مجلس النواب وقتها على رأس قائمة كبار الملاك وسألت نفسى : من أين أبدأ ؟

وبدأت أتناقش أولا مع حامد جودة وقلت له : إن عندى انطباعات عن الظلم الاجتماعى وفى رأيى أن الإصلاح الزراعى هو الحل الوحيد الذى يغير هذا الواقع وللحق والتاريخ فإن حامد جودة كان يتميز بالخلق الصعيدى والشهامة والرجولة وبعد أن استمع إلى وجهة نظرى ، نبهنى إلى أن كلامى فى هذا الموضوع سوف يقابل بمعارضة شديدة وسوف تحدث عاصفة عاتية فى وجهى ، ولكنه أخذ يشجعنى على موقفى برغم أنه كان من كبار الملاك أيضا وقال لى بإعجاب :

لا تخش شيئا ، وسأحميك خلال المناقشة ، ويجب أن تكون مستعدا وتكلم وأوضح فكرتك لهم .

كان المرحوم محمد خطاب بك عضو مجلس الشيوخ ، فى ذلك الوقت ينادى بتحديد الملكية الزراعية بحد أقصى خمسون فدانا ، ولكن كانت وجهة نظره ألا يطبق القانون على الفور — وله عذره فى ذلك لأنه لم يكن يملك الوسائل التى تمكنه من تطبيق القانون فورا — وكان يرى حلا وسطا بتحديد الملكية على مراحل بحيث أن الميراث لا يجوز أن يزيد على ٥٠ فدانا بحيث يترك للملاك حرية التصرف فيما يزيد على ملكية الخمسين فدانا وألا يؤول بالميراث ما يزيد الملكية عن هذا القدر وذلك مفيد للملاك للتخلص بالبيع تدريجيا عما يزيد على هذه المساحة ، ولصاحب الأرض أن يبيع الزيادة بنفسه ويقبض الثمن ، وكان معنى ذلك أن تحديد ، الملكية يتم بطريقة ذاتية ويتصرف كبار الملاك فى أراضيهم لتطبيق الفكرة ، وهكذا كان تحديد الملكية الزراعية قضية عامة بدأ يتحدث عنها الناس ويدعو إليها محمد خطاب فى مجلس الشيوخ وينادى بتحديد الملكية خلال رحلاته وجولاته فى عدة مناطق ، وقد صاحبته فى بعض هذه الجولات وكنت أجد أن هذا التطبيق المرحلى يكاد يكون معتدلا بالنسبة للظروف الصعبة القائمة

وقتها وفى مواجهة المعارضة الضارية لكبار الملاك – واتجهت بتفكيرى إلى زاوية أخرى لإكمال صورة الإصلاح الزراعى ، وهى : تحديد الإيجارات الزراعية لما لذلك من الأهمية فى تحديد الملكية نفسها .. لماذا ؟ لأن ٨٠٪ من الأراضى الزراعية فى مصر – وقتها – كان يتم استغلالها عن طريق التأجير ، بمعنى أن المالك الكبير الذى يملك خمسة آلاف فدان – مثلا – كان من مصلحته أن يؤجرها بالقيمة الإيجارية التى يحددها فى آخر العام الزراعى عندما يتضح له ثمن القطن بصرف النظر عن إمكانيات المستأجر الصغير ومصاريفه ، وبهذا الشكل يظل الفلاح – صاحب الجهد الحقيقى فى مكانه – لا يستفيد من ارتفاع ثمن القطن ولا يتحسن مستوى معيشته ويظل جامدا عند حد معين من الفقر والجهل والمرض ، وتحديد الملكية الزراعية – وحدها – يطبق على فئة معينة التى جاوزت الحد الأعلى للملكية ، بينما يستفيد من تحديد القيمة الإيجارية ٨٠٪ من المزارعين(١) .

عضو يقول لى : أنت شيوعى :

وأخذت أستعد للمعركة الأولى التى أخوض غمارها فى مجلس النواب واستعنت بالمراجع والكتب – وعلى رأسها كتاب دورن وارنير – لمواجهة العاصفة العاتية المنتظرة ، وأبديت اهتماما خاصا بتجربة الإصلاح الزراعى فى المكسيك، ثم تقدمت مع زميل لى بمشروع قانون لتحديد القيمة الإيجارية للأراضى الزراعية على أساس الربط بضريبة الأطيان ، وكان ذلك بمثابة القنبلة التى انفجرت فجأة ، وشجعنى على موقفى ما قاله لى المرحوم حامد جودة – رئيس المجلس – قبل الجلسة : إنها فكرة سليمة وخطوة تقدمية كبيرة دافع عنها بكل قوتك ، ولاتخف.

ويومها وقفت على المنبر وأمامى المراجع وفى يدى التقرير الكامل عن المشروع حتى أعود إلى بعض النقاط والأرقام التى أتوقع الاستفادة بها خلال حديثى –

---

(١) استفاد الفلاحون من نصف مليون فدان نتيجة تطبيق قانون الاصلاح الزراعى الاول ووصلت فيما بعد الى حوالى مليون فدان بعد تعديل الحد الاعلى للملكية اى سدس مساحة الاراضى المنزرعة فى مصر .

وبالمناسبة ممنوع التلاوة فى المجلس ــ والواقع أننى لم أكن فى حاجة إلى أى تقرير وكنت متشبعا بالفكرة وكان الموضوع يجذب كل اهتمامى لفترة طويلة ، وتلفت من حولى ورأيت العيون مركزة على وجهى .

وعندما بدأت أتكلم فوجئت بأحد الأعضاء ــ وكان من كبار الملاك ــ يصيح بصوت عال : أنت شيوعى ..

وارتبكت تماما ــ فقد كانت تهمة الشيوعية فى عهد الملك فاروق شيئا خطيرا ــ وانضم أعضاء آخرون إلى الضجة وأخذوا يقاطعوننى ، وسيطرت على أعصابى ومضيت فى حديثى وحاول رئيس المجلس حمايتى ــ حسب وعده ــ أثناء المناقشة وتدخل أكثر من مرة ، وكنت أنظر إلى السطور والكلمات فأجدها متداخلة فى بعضها ، وتحولت الأرقام إلى طلاسم وتداخلت الأفكار فى رأسى وضاع الترتيب المنظم لسياق الموضوع ، وأنهيت كلامى فى هذه المسألة الهامة بعد عدة دقائق فقط والعرق يتصبب من وجهى .

كان الموقف يمثل سقوطا مدويا لنائب شاب وسقوطا أكثر دويا لفكرة جريئة ، واستدعانى حامد جودة إلى مكتبه ودخلت الحجرة الجانبية الموجودة حتى اليوم فى المجلس والتفت إلى وقال :

إن الطريقة التى تكلمت بها اليوم لا تساوى شيئا ، وأنت بهذا الأسلوب لن تكون أبدا سياسيا لأنك لم تدرس موضوعك جيدا ولم تدافع عنه بما فيه الكفاية . وكان الموقف مؤثرا وضاغطا على أعصابى ، ولم أتمالك نفسى من البكاء لأول مرة وتأثر الرجل بدوره وأخذ يطيب خاطرى ودعانى لتناول العشاء فى بيته لتهدئتى ، وخلال العشاء مضى يروى لى أساليب المناورة البرلمانية وقال : « من الطبيعى أن يشعر الواحد برهبة عندما يتكلم لأول مرة تحت قبة البرلمان ، ولكن المهم أن يتمالك أعصابه ولا يضعف فى مواجهة خصومه ويرتب أفكاره ويكون ذهنه حاضرا ، وكان حديث حامد جودة عاملا مشجعا وخرجت من

عنده بعد أن استوعبت درس الفشل ، لكى يبدأ بعد ذلك نوع من التحدى ، وكان هذا هو رد الفعل الطبيعى لما حدث ..

ولكن كيف يكون التحدى خصوصا بعد فشل فكرة تحديد الإيجارات الزراعية ؟ وأخذت أترقب الموضوع المناسب لإثارة التحدى .. وانتهزت فرصة التفكير فى إنشاء نقابة للزراعيين ، وكان وزير الزراعة - وقتها - غير مقتنع بخريجى الزراعة وبحقوقهم كمهندسين زراعيين ، بالإضافة إلى أن إنشاء النقابات كان فى حد ذاته أمرا غير مرغوب ، ووجدتها مناسبة للتحدى وأخذت على عاتقى - مع زملائى من رواد الفكرة - مشروع قانون نقابة المهن الزراعية وذهبت إلى رئيس المجلس - حامد جودة - وقلت له بحماس شديد : إننا سنتبنى هذا القانون .

فضحك وقال لى : لكن لا تعمل فيه مثل ما عملت فى القانون الأخير : وتأكد أننى مستمر فى مساعدتك .

وأخيرا تم تقديم مشروع القانون وأحسست بنفسى - لأول مرة - نائبا فى البرلمان ، وذلك أننى كنت « مقرر » المشروع ، وأثناء مناقشته أخذت أتكلم بوضوح وأدافع عن رأيى بشجاعة ، وكان المرحوم أحمد عبد الغفار وزير الزراعة آنذاك يعارض المشروع بشدة ، ودخلت معه فى مناقشات طويلة ، ولكن دون انفعال حتى حينما أراد أن يسخر من منح خريجى كلية الزراعة لقب « مهندس زراعى » بقوله : « ألقاب مملكة فى غير موضعها » وضحك النواب ولكنى لم أغضب ولم أرتبك .. بل ولم أرد عليه بكلمة واحدة .. خشية أن تنحرف المناقشة عن مسارها الطبيعى إلى معركة جانبية .. لا جدوى من ورائها .. ولمحت حامد جودة يتابعنى بإعجاب ، وأنا أرد على بعض الأعضاء الذين كانوا يقاطعوننى ، دون أن أتردد ، وإنما أخذت أرد عليهم بفكر مرتب وبتركيز شديد .

ووصل التحدى إلى درجة أن وزير الزراعة انسحب من هذه الجلسة لكثرة الردود والمناقشات التى كنت أثيرها . وفى النهاية نجحنا فى الموافقة على قانون

إنشاء نقابة المهن الزراعية ــ وكانت خطوة متطورة أيضا فى وقتها ــ وعندما خرجنا من قاعة المجلس استدعانى حامد جودة وقابلنى بالعناق والتهنئة وقال لى : وهو يشد على يدى أنت دلوقت « أبو مرعى » بصحيح ، كلامك مضبوط ودفاعك سليم ، خلاص دلوقت تصلح تكون برلمانى بحق وحقيقة .

هذان الموقفان : موقف الفشل ، وموقف التحدى ، كان لهما تأثير واضح ومباشر على حياتى السياسية ، ومن دروسهما المستفادة تعلمت العمل البرلمانى الصحيح .

كانت مشكلتى أننى خجول بطبعى ، لا أريد أن أغضب أحداً ولا أحب أن أضايق أحداً وكنت أتصور أن الأسلوب البسيط الذى تعودته فى حياتى وسط الفلاحين هو الأسلوب الذى يصلح أيضاً للمخاطبة السياسية والبرلمانية ولكننى اكتشفت مدى الخطأ فى هذا التفكير عندما دخلت مجلس النواب ، وقد وقع فى يدى كتاب آخر كان له أثر كبير فى حياتى وعنوانه « كيف تكون خطيباً ممتازاً ؟ » .

وهناك عبارة معينة كانت تستوقفنى دائماً فى الكتاب وتقول : « إن أردت أن تتكلم إلى الناس فى موضوع من الموضوعات ــ على شرط أن تكون قد درسته دراسة كاملة وهذا أمر له أهمية خاصة ــ فخاطب الناس على أنك تفهم الموضوع أكثر من أى واحد منهم ، وتكلم معهم وأنت ترتدى ثوب الأستاذ ولا تقف أمامهم كالتلميذ .

وأتوقف هنا قليلا أمام نقطة معينة تركت بصماتها خلال حياتى النيابية فى تلك الفترة .

كان هناك نقاش برلمانى مستمر بين الدكتور أحمد ماهر رئيس الحكومة وبين فكرى أباظة عضو مجلس النواب ، وكان أحمد ماهر ينتمى إلى الهيئة السعدية بينما فكرى أباظة ينتمى إلى الحزب الوطنى ، وكان أحمد ماهر يتسم بالصراحة وبقوة بيانه وكان جريئاً فى معارضته ومقاطعته ، وكان فكرى أباظة يتميز بالمناورة السياسية وببراعته اللفظية وأيضاً بروحه الخفيفة الجذابة ، وكنت أجلس منصتاً إليهما وأتابع النقاش بينهما ، وكان كل منهما له أسلوبه وطريقته فى الإقناع ، ورغم

قصر الفترة التي عاصرت فيها المرحوم أحمد ماهر فقد تعلمت من هاتين المدرستين المختلفتين وكذلك تعلمت من حامد جودة الإخلاص للفكرة والدفاع عنها حتى النهاية ربما لم يكن خطيباً مفوهاً ولا سياسياً خطيراً ولكنه كان وسطاً بين أحمد ماهر والنقراشى وخرجت بحصيلة ممتازة من هذه المناقشات والمدارس السياسية . . متى المواجهة ؟ ومتى المقاطعة ؟ ومتى التحدى؟ .

بينما كانت هذه الأحداث تجرى على أرض مصر فى تلك الفترة القلقة المشحونة بالانفعالات والتيارات المختلفة . .

كانت هناك أحداث عربية أخرى — لاتقل خطورة عن الموقف الداخلى — وكان مسرحها : أرض فلسطين ، وكان النقراشى يبدى اهتماماً خاصاً بالقضايا العربية — وقضية فلسطين بالذات — برغم الانشغال العام بقضية الإنجليز والجلاء ، ولكن نظرة النقراشى كانت سابقة للفكر السياسى السائد فى ذلك الوقت ، وكان الرجل يردد فى كل مناسبة : أن قضية فلسطين هى قضية الجامعة العربية كلها .

المهم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية — وبعد أن وقعت ألمانيا النازية وثيقة التسليم بلا قيد ولاشرط — كانت الخريطة السياسية فى العالم تتغير وتتشكل طبقاً للاتفاقات السرية بين القوى الكبرى المنتصرة فى مؤتمر يالتـا وفى مؤتمر بوتسدام .

وكانت الانتخابات البريطانية فى يولية ١٩٤٥ قد أسفرت بدورها عن سقوط حزب المحافظين وتشرشل — الرجل الذى قاد بريطانيا إلى النصر — وفوز حزب العمال ومجىء أتلى إلى رئاسة الوزارة فى داوننج ستريت — وكانت مفاجأة عنيفة وغير متوقعة وكان لها أهميتها وتأثيرها بالتالى على الموقف السياسى الداخلى فى مصر.

وأيضا كانت الصهيونية العالمية قد انتهزت الفرصة السانحة وسط التغيرات السياسية فى العالم ، وبدأت تضغط بكل قواها وتوجه ثقلها لتحقيق حلمها فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، واستخدمت الصهيونية نفوذها ومساعدتها للحلفاء ضد هتلر والنازية خلال الحرب لكى تأخذ الثمن ، وأخذت موجات الهجرة اليهودية تتدفق على موانىء حيفا ويافا ، وأخذ آلاف المهاجرين اليهود القادمين من شرق

أوروبا يتجمعون فى المستعمرات الجديدة التى تنتظرهم فى سهول الجليل وفى صحراء النقب ، وكانت حركة شراء الأراضى من العرب تجرى على قدم وساق وبأسعار خيالية ، واستخدم اليهود كل الإغراءات والضغوط على عرب فلسطين لكى يضعوا أيديهم على مزيد من الأرض ، وكان نشاط الوكالة اليهودية يزحف بالتدرج على يافا وحيفا والقدس وكان السلاح يتدفق سراً على المنظمات الإرهابية — الأرجون زفاى ليومى والهاجاناه — وكانت المعسكرات تتناثر فى أرجاء فلسطين لتدريب المهاجرين الجدد على حمل السلاح . وكانت سلطات الانتداب البريطانى تغمض عينيها عن كل هذه التحركات بالاتفاق مع الصهيونية ، هكذا كانت صورة الخطر الذى يقترب من حدود مصر ، ولم تتنبه الدول العربية إلى مغزاه فى الوقت المناسب . ولذلك لم تقتصر اهتماماتى فى البرلمان على متابعة النواحى الداخلية فحسب ، وإنما كانت فلسطين تشد انتباهى وتأخذ الجانب الأكبر من اهتمامى بالاحداث ، العربية والخارجية ، وكان ذلك التفكير نابعاً من اقتناع بدور مصر الرئيسى فى المنطقة العربية وكان لحادث لجوء الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين إلى القاهرة تأثيره على تفكيرى .

وعندما جاء السعديون إلى الحكم — مرة أخرى فى ديسمبر ١٩٤٦ — بعد استقالة اسماعيل صدقى وتوقف مباحثاته مع بيفن وزير خارجية بريطانيا ، كان الموقف فى فلسطين قد بدأ يتطور بشكل خطير ، وشكل النقراشى وزارته الثانية وسط هذا الجو العام من المؤامرات الصهيونية التى تتشابك خيوطها مابين أرض فلسطين وعواصم الدول الكبرى ، وفى أحد الأيام اتصل بى النقراشى وقال لى : تعالى لمقابلتى ولاتقل لأحد ، هناك مسألة هامة وسرية للغاية أريدك من أجلها .

وكنت أتوقع أن يكلمنى النقراشى فى أى موضوع ماعداً فلسطين ، فقد كانت أبعد ماتكون عن الموضوعات التى نتحدث فيها عادة ، ولذلك كانت مفاجأة بالنسبة لى عندما أخذ يشرح لى نشاط الوكالة اليهودية فى فلسطين فى عملية شراء الأراضى وعلى نطاق واسع وإقامة المستعمرات الجديدة للمهاجرين اليهود .

مهمة فى فلسطين :

ووسط الحديث كلفنى النقراشى بأول مهمة سياسية خارج الحدود وقال لى :

أريدك أن تسافر إلى فلسطين فوراً ، وقد اخترتك بالذات لأننى أعرف اهتمامك بالزراعة ، والموضوع الذى أطلب منك دراسته هو أنواع المزارع التى يقيمها اليهود ، وكيف يديرون المستعمرات ؟ وكذلك نشاط الوكالة اليهودية ؟ وحالة العرب وموقفهم من هذا الغزو الصامت لأرضهم ؟ .

وطلب منى النقراشى أن أسافر على نفقتى الخاصة ، وعلى شكل زيارة عادية حتى لا ألفت النظر إلى حقيقة المهمة السرية ، وطلب منى أيضاً أن أتكتم موعد السفر ، وكان الجو بارداً ، وركبت القطار إلى فلسطين وكان الخط الحديدى يمتد من القاهرة إلى القدس عبر سيناء وغزة ، ولم آخذ معى سوى معطف وحقيبة واحدة ، وكنت أسرح بخاطرى عبر النافذة والقطار يغادر رفح — آخر نقطة على الحدود المصرية — ويدخل أرض فلسطين وأخذت أسجل فى رأسى كل ما ألاحظه خلال الطريق ، وعندما نزلت فى محطة القدس كان الجو قارس البرودة ، وعبثاً حاولت البحث عن أى شيال أو عربة كى أذهب إلى فندق الملك داود .

وبعد قليل عثرت على رجل فلسطينى معه عربة يحمل فيها فخدة من اللحم وعرضت عليه أن يوصلنى إلى الفندق وفهم أننى غريب ورحب بى ، وأخذ الحقيبة والمعطف ووضعهما بجوار اللحم ، وتجاذبت معه أطراف الحديث وعرفت منه ملامح الأحداث الجارية وقتها فى القدس .

ولم أكد أدخل غرفتى فى فندق الملك داود حتى اتصلت بالقنصلية المصرية وكان الدكتور محمود فوزى هو القنصل المصرى فى القدس — وأوضحت لهم أن اهتماماتى تنحصر فى الناحية الزراعية وأن هدفى من الزيارة هو دراسة المزارع اليهودية ونظمها والوسائل المستخدمة فيها والفارق بينها وبين المزارع التى يملكها العرب ، وكان هدفى أن لاتكتشف عيون الوكالة اليهودية وآذانها حقيقة مهمتى الرسمية وقدمت نفسى بصفتى مهندساً زراعياً واستطعت من خلال ذلك الاطلاع على كل شىء فى الكيبوتز .

وكنت أرى وأسمع مايدور فى فلسطين — على الطبيعة — ويعد جولتى الأولى فى المزارع اليهودية ومحطات البحوث الزراعية أيقنت أن المسألة أخطر بكثير من التقارير التى وردت إلى النقراشى وكانت السبب فى رحلتى لتقصى الحقائق حول التوسع اليهودى ودور الإنجليز وموقف الفلسطينيين .

كان التفوق اليهودى واضحاً فى مزارعهم وفى الطرق التى يتبعها المزارعون اليهود وكان التخطيط اليهودى يرمى إلى أبعد من مجرد إقامة المستعمرات والمزارع الجماعية وكان الهدف النهائى من وراء ذلك كله : وضع الأساس للدولة اليهودية ، وكانت هذه هى النتيجة التى خرجت بها من جولتى على مدى ١٥ يوماً فى أرجاء فلسطين .

وحتى أكون منصفاً فقد كانت هناك مزارع عربية على مستوى جيد ولكن فى الغالب كانت المزارع اليهودية متقدمة أكثر فى الآلات وطرق الزراعة ، وكان سبب ذلك التفوق أن الإعانات والتبرعات تتدفق على الوكالة اليهودية من كل مكان من أوروبا وأمريكا — وكانت توجه ملايينها من أجل الاستيلاء على أرض الميعاد ، بينما فى المقابل كانت إمكانيات العرب المحدودة لاتكاد تفى بمتطلبات الزراعة .

وعندمادرست المزارع اليهودية وإيراداتها تأكدت أنها لاتحقق أرباحاً بسبب النفقات التى تتكلفها ميكنة الزراعة والوسائل المتطورة للتصنيع الزراعى ، ولم يكن فى قدرة المزارعين الفلسطينيين مجاراة اليهود أو منافستهم لأنهم لايتلقون أية مساعدات خارجية من الدول العربية ، كانوا يقفون وحدهم فى مواجهة الغزو اليهودى الزاحف بالذهب والسلاح ومن هنا كانت المقارنة ظالمة لعرب فلسطين .

المهم كنت أفتح عينى على كل شىء أراه وألاحظه ، وكنت استوعب مغزى الأشياء غير العادية التى أقابلها فى جولتى بين المستعمرات اليهودية .

مثلالاحظت انتشار «السيلو» وهى عبارة عن أبراج عالية ترتفع فوق كل مستعمرة ويخزنون فيها احتياجاتهم من القمح والحبوب ، وكانوا يضعون المدافع فوق تلك الأبراج أو الصوامع ، وقد أدركت أن « السيلو » معدة ومجهزة حتى تحقق الاكتفاء

الذاتى للمستعمرات فى حالة حصارها لفترة معينة وفى نفس الوقت فإن صوامع الغلال تؤدى غرض الأبراج الحربية للدفاع عن المستعمرة ، وكان معنى تلك الاستعدادات والتجهيزات أن اليهود يعدون أنفسهم للحرب ضد العرب ولكن فى سرية تامة وفى انتظار ساعة الصفر وكان الفلسطينيون من جانبهم يشعرون باقتراب المواجهة المسلحة ولكن كان ينقصهم التنظيم والتمويل والتسليح ، ومع كل خطوة بين المستعمرات كان العمل يجرى ليل نهار فى إقامة المزيد من المبانى والتحصينات ، بينما كانت القرى العربية تقف فى مواجهتها مجردة من أى استعدادات أو احتياطات .

توقعت الكارثة :

كانت الصورة التى رأيتها بعينى قاتمة ، كثيفة الضباب ، وكانت الأحاديث التى سمعتها من العرب واليهود تحمل نذر الصراع المسلح المنتظر ، وعدت إلى القاهرة ــ بعد هذه الأيام الخمسة عشر ــ وذهبت مباشرة لمقابلة النقراشى وقدمت له تقريراً شفوياً عن تصورى للموقف فى فلسطين ، ووضعت أمامه الصورة بكل تفاصيلها وقلت له :

إن كارثة محققة على وشك الوقوع ! ! !

ومضت الشهور بعد ذلك وكانت الأحداث الجارية على أرض فلسطين تتصاعد بإنذارات عنيفة خلال الشهور الأخيرة لسنة ١٩٤٧ وتشكل خطراً حقيقياً على السلام.

وكان الدخان مازال يتصاعد من رماد الحرب العالمية الثانية ، وكانت أوروبا وآسيا تضمدان جراحها وترفعان أنقاضها وتجففان دموعهما على الملايين التى فقدت فى مذبحة الحرب الرهيبة ، ولذلك كان الخوف والفزع من اشتعال حرب جديدة فى الشرق الأوسط يسيطر على أروقة الأمم المتحدة .

وفى تلك الفترة كان الانتداب البريطانى على وشك أن يرفع وصايته عن فلسطين وفى نفس الوقت كانت الصهيونية تكمل استعداداتها وتحكم خيوط مؤامراتها لكى تنقض بالعنف والارهاب وتقيم دولة إسرائيل ، وكان واضحاً أن بريطانيا تمهد

الطرق لتحقيق أحلام الصهيونية ، فإنها لم تكتف بإصدار وعد بلفور – لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين وإنما أخذت طوال سنوات الانتداب – من ١٩٢٢ إلى ١٩٤٨ – تدعم الوجود اليهودى على أرض فلسطين وأغمضت سلطات الانتداب البريطانى عيونها عن موجات الهجرة المتلاحقة ويكفى أن تعداد اليهود مع بداية الانتداب كان ٨٣ ألفاً فقط ، وعندما انتهى الانتداب ارتفع العدد إلى ٦٦٥ ألف يهودى ، وقد كان توفير العنصر البشرى ضرورة من ضرورات إقامة الدولة الصهيونية.

وبعد أن تأكدت بريطانيا من أن انتدابها على فلسطين قد أوصل المنظمة الصهيونية العالمية إلى حد معين يكفى للمطالبة بإقامة دولة يهودية وقتها اكتملت خيوط المؤامرة وطلبت الحكومة البريطانية من تريجفى لى – السكرتير العام للأمم المتحدة – فى أبريل ١٩٤٧ أن يدعو لعقد دورة غير عادية للجمعية العمومية لبحث مشكلة فلسطين ، تمهيداً لعرضها فى الدورة العادية خلال الخريف ، وانعقدت الجمعية العمومية بالفعل واتخذت قراراً فى ٥ مايو ١٩٤٧ بتشكيل لجنة فلسطين لتقصى حقائق الوضع بين العرب واليهود ، واتفق أعضاء هذه اللجنة بالإجماع على إنهاء الانتداب البريطانى ولكنهم اختلفوا فى تقديرهم حول مصير فلسطين وكان هناك مشروعان :

- مشروع بتقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية وأخرى عربية على أرضها واعتبار القدس مدينة دولية تحت إشراف الأمم المتحدة .
- مشروع آخر بإنشاء دولة فيدرالية (عربية – يهودية) تكون عاصمتها القدس.

وفى سبتمبر ١٩٤٧ تشكلت لجنة خاصة مكونة من جميع أعضاء الأمم المتحدة للنظر فى تقرير لجنة فلسطين ، ونتيجة للضغوط الصهيونية أوصت أغلبية أعضائها بالتقسيم بينما رأت الأقلية إقامة دولة فيدرالية ، وكانت نتيجة المؤامرة الكبرى – التى تسابق الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة على مساندتها – أن وافقت اللجنة السياسية على قرار التقسيم !

الفصل السادس

الحياة الحزبية من الداخل!

كانت الفترة مابين ١٨ يناير سنة ١٩٤٥ (تاريخ أول جلسة للبرلمان الذى أصبحت عضواً فيه) و ٨ أغسطس سنة ١٩٤٩ (تاريخ حل المجلس) هى أول فرصة كاملة بالنسبة لى لكى أعرف على وجه التأكيد طبيعة العمل البرلمانى من ناحية . . وحقيقة الخريطة السياسية فى مصر من ناحية أخرى .

فقد دخلت مجلس النواب بروح متفتحة ومقبلة على العمل السياسى من أجل الخدمة الوطنية وكان مفهومى أن البرلمان هو حصن الحرية والعدالة الاجتماعية وأن مهمة النائب هى خدمة أهل دائرته من خلال الخدمة العامة للجماهير ، ولكنى اكتشفت أن المصالح الشخصية تغلب عند الناخبين أكثر من المصلحة العامة ولذلك حاولت أن أمزج بين الأمرين حتى لاأفقد تأييد أهل الدائرة ولاأبدو شاذاً فى تفكيرى نحوهم ومنفصلا عن الطابع العام للنواب .

كانت إقامتى الدائمة فى الريف ولكننى كنت أتخذ من قهوة اللواء — أمام مبنى الأهرام القديم — مقراً انتخابياً لى فى القاهرة حتى أكون قريباً من الوزارات والمصالح وكنت أذهب إلى المقهى بانتظام كل صباح وانتظر القادمين من أهل الدائرة وأبحث مشاكلهم وأصحبهم معى فى سيارتى وأدور بهم من وزارة المعارف إلى الأشغال إلى المواصلات لكى أقضى لهم مصالحهم وأقنعت نفسى بأن ما أقوم به هو نوع من الخدمة العامة ولم أكن على استعداد لأن أفقد ثقة هؤلاء الناس البسطاء وأن أخيب آمالهم فى شخصى ، ولكننى فى نفس الوقت كنت أوجه الجانب الأكبر من جهدى ووقتى إلى الاهتمام بالموضوعات العامة .

وبمرور الأيام على وجودى فى هذا الموقع السياسى ــ فى مجلس النواب ــ بدأت الحقائق المريرة تتكشف أمامى واحدة بعد الأخرى. لم تكن المصلحة الوطنية هى التى تتحكم فى الآراء وفى الاقتراع لأخذ الأصوات على أى مشروع أو قانون وإنما كانت مصلحة الأحزاب فوق كل شىء .

وحتى الديمقراطية بمفهومها الصحيح كانت مفقودة داخل المجلس ، ولم يكن العضو حراً فى التعبير عن موقفه والإدلاء برأيه وإنما كان ملتزماً بموقف الحزب الذى ينتمى إليه سواء كان على خطأ أو صواب ، سواء كان مقتنعاً به أو غير مقتنع ، سواء كان للصالح العام أو ضده ، وبموقف الهيئة البرلمانية إلى آخر القائمة الحزبية ، وعند مناقشة أى موضوع من الموضوعات تجتمع هذه الهيئة البرلمانية للحزب منفردة وتتخذ موقفاً معيناً ويلتزم به جميع أعضائها ، وتجتمع الهيئة البرلمانية للحزب الآخر وهكذا وعند التصويت لا يمكن لأى عضو إلا أن يعطى صوته بالموافقة على رأى حزبه ، آخر الأمر ، مهما كان اجتهاده الشخصى ومهما كانت دراسته للموضوع ونظرته إليه .

ونفس الأسلوب فى التفكير والمنهاج فى العمل كان ينطبق على الانتخابات ، وكانت التكتلات والعصبيات تتحكم فى ترشيح ممثلى الأحزاب وفى انتخابهم فى أغلب الأحيان ولم تكن كفاءة المرشحين أو صلاحيتهم للعمل الوطنى هى المعيار على الإطلاق ، ومن هنا كان يجىء التلاعب فى الأصوات لإنجاح مرشح أو إسقاط آخر تبعاً للأهواء والمصالح الحزبية ، ولم يحدث بالطبع أننى لاحظت كل هذه الظواهر فى الحياة السياسية دفعة واحدة وإنما بدأ الأمر يظهر لى بالتدرج من اللحظة الأولى التى أصبحت فيها مرشحاً عن حزب الهيئة السعدية .

لمـــاذا انضممت للسعديين ؟

كان حزب السعديين يمثل أساساً مجموعة منشقة عن حزب الوفد وهو الانشقاق الذى قام من البداية على عاملين مهمين هما ــ احمد ماهر ، والنقراشى ــ وهما بدورهما كانا يمثلان بالنسبة لنا ــ نحن الشباب ــ العجلة الداخلية التى يسير بها

الحزب ـ لأن الحزب نفسه لايقوم على الأفكار فقط وإنما على أساس التاريخ الوطنى الكبير لأحمد ماهر والنقراشى فى مقاومة الإنجليز .

وكان أحمد ماهر من جانبه يمثل الاستراتيجية السياسية أو الفكر السياسى الشامل وبعد النظر ، بينما النقراشى يمثل الضبط والربط داخل الحزب فهو نموذج حى للانضباط الحزبى .

ومن الناحية العامة لم يكن هناك داخل كل حزب من الأحزاب القائمة مايمكن أن نسميه الفكر السياسى « أيديولوجية » متكاملة أو برنامجاً شاملا تجعلنا نميز حزباً عن آخر . لم يكن هناك سوى قضيتين كبيرتين وأساسيتين تتراوح بينهما الأحزاب . والقضيتان هما الاحتلال البريطانى لمصر ، ووحدة مصر والسودان فى هاتين القضيتين كانت تشترك جميع الأحزاب أما مابعدهما مثل قضية احترام الدستور ، أوالاهتمام بالتعليم ، فكانت قضايا تأتى فى المرتبة الثانية أو الثالثة بالنسبة لكل حزب .

والشيء الأساسى الذى نلاحظه هنا هو أن برامج ومبادىء جميع الأحزاب كانت تخلو تماماً من أى مضمون اجتماعى ، لأن القضية السياسية كانت تطغى تماماً على القضية الاجتماعية ، التى لم تكن قد اتضحت بعد أو حتى نضجت لاتخاذهاأساساً للعمل السياسى . ولم يكن هناك سوى مجموعات صغيرة لاتمثل نشاطاً رئيسياً على المسرح السياسى ، ومنها ـ الحزب الاشتراكى (مصر الفتاة) الذى كان يتزعمه أحمد حسين . . وكانت له جريدة باسم « الاشتراكية » تتبنى الآراء الاجتماعية وتثير القضية الاجتماعية بصفة مستمرة ، ثم كان هناك الحزب الشيوعى ، وهو تنظيم غير مشروع كان يعمل « تحت الأرض » ومعظم المسيطرين عليه من اليهود . . ثم حزب صغير جداً اسمه « حزب الفلاح » ورئيسه محام يدعى أحمد كامل قطب .

ومن هذه المجموعات كلها لم يكن هناك صوت برلمانى يعبر عنها ، فيما عداً حزب مصر الفتاة الذى نجح له فى البرلمان نائب واحد هو إبراهيم شكرى .

هذا من الناحية العامة . .

أما لونظرنا إلى حزب السعديين ، باعتباره الحزب الذى انضممت إليه وأصبحت

أحد نوابه فى البرلمان ، فإن انضمامى إليه كان يرجع أولا إلى أن والدى كان أحد أعضائه بعد انسلاخه من حزب الوفد ، ومن ناحية أخرى إلى إعجابى بالنضال الوطنى لأحمد ماهر والنقراشى ، وأخيراً لأن الحزب هو الذى عرض على الترشيح عنه فى دائرتنا .

وكان مقر الحزب طابقين فى مبنى أمام نادى محمد على (التحرير فيما بعد) وكان معنى انضمامى إليه يعنى أولا أننى أصبحت عضواً فى جمعيته العمومية التى تجتمع بين فترة وأخرى ، ومعنى نجاحى فى مجلس النواب عن الحزب يعنى أننى أصبحت عضواً فى هيئته البرلمانية .

والحزب ، مثله مثل غيره من الأحزاب ، كان يتقاضى من العضو اشتراكاً ثابتاً واشتراكاً متغيراً ، ولم يكن الاشتراك السنوى الثابت كبيراً ، وعلى ما أذكر كان يصل إلى خمسة أو عشرة جنيهات فى السنة . ولكن كانت هناك معونة دائمة يدفعها العضو للحزب ، وتقديرها متروك للقدرة المالية للشخص نفسه ، ولتقدير سكرتير الحزب أو رئيسه . وفى معظم الأحوال كانت هذه المعونة تأخذ شكل قيام العضو بدفع اشتراك لخمسمائة نسخة من جريدة الحزب ويسدد ثمنها للجريدة بصفة مستمرة بغير أن يحصل فعلا على كل هذه النسخ ، بينما عضو آخر يسدد اشتراك مائة نسخة ، وثالث يسدد ألف نسخة ، وهكذا .

وبالإضافة إلى ذلك كان هناك توجيه من نوع خاص لاينطبق إلا على أعضاء الهيئة البرلمانية للحزب ، أى أعضاء مجلس النواب الممثلين للحزب ، ويتركز عادة فى تبرع العضو بمكافأته البرلمانية الشهرية للحزب ، وهى المكافأة التى كانت تبلغ أربعين جنيهاً تقريباً فى الشهر ، ذلك أن الأساس فى العمل البرلمانى وقتها هو أن النائب هو الذى ينفق من ماله الخاص على وظيفته النيابية وليس العكس .

ولاترتبط العضوية فى الجمعية العمومية للحزب بنجاح العضو فى الانتخابات لأن الجمعية العمومية هى كل أعضاء الحزب ، أما العضوية فى الهيئة البرلمانية فهى مقصورة على أعضاء الحزب الذين نجحوا فى انتخابات مجلس النواب وأصبحوا

أعضاء فيه ، والحزب بعد ذلك له مجلس إدارة تنتخبه الجمعية العمومية ، والمجلس له رئيس ، هو رئيس الحزب وسكرتير ، هو سكرتير عام الحزب .

ومجلس الإدارة يمثل سلطة التوجيه الأولى داخل الحزب ، ولايشترط أن يكون أعضاء مجلس الإدارة هم أعضاء الحزب فى مجلس النواب ، وإن كان يحدث غالباً أنهم كذلك ، ولكن أساس سلطة مجلس الإدارة هنا هو أنه ينوب عن الجمعية العمومية للحزب ، التى هى السلطة العليا للحزب وهى التى تملك تعديل إطاره العام أو تقرير برنامجه الأساسى أو اتخاذ المواقف السياسية الملزمة للأعضاء جميعاً . والجمعية العمومية بهذا الشكل هى المجال الأساسى الذى تعبر فيه المعارضة داخل الحزب عن نفسها وتطرح أفكارها ، لأنه بمجرد أن توافق الأغلبية داخل الحزب على اتخاذ موقف سياسى معين فإن جميع الأعضاء يصبحون ملتزمين بهذا الموقف طالما أنهم عبروا عن آرائهم جميعاً داخل اجتماع الجمعية العمومية .

وكان هذا الأسلوب صحيحاً بالطبع من وجهة نظر الانضباط الحزبى وإن كان فى نفس الوقت غير مقنع تماماً بالنسبة لنا ــ نحن الشباب ــ داخل الحزب .

ممتنع عن التصويت :

ولقد وقعت أنا نفسى فى أزمة حزبية بسبب عدم تحمسى للانضباط الحزبى بهذا المعنى . فعندما خرج السعديون من السلطة وكلف القصر صدقى باشا بتشكيل الحكومة أعلن صدقى أنه سيعطى الأولوية للعمل الاقتصادى ، ويريد أن تكون علاقته بجميع الأحزاب طيبة ، ومن ثم يريد أن تكون حكومته ائتلافية ، يتم فيها تمثيل جميع الأحزاب .

وبناء على ذلك عرض صدقى باشا على السعديين الاشتراك فى حكومته . وقرر الحزب دعوة جمعيته العمومية لبحث هذا الأمر ، وأصبح محور الاجتماع هو : **هل نعطى ثقتنا لصدقى باشا فنشترك فى حكومته ، أم نرفض إعلان الثقة به فلانشترك ؟**

وكانت هناك عوامل كثيرة تدفعنى إلى الدعوة لإعطاء الثقة لصدقى باشا ، منها

عوامل شخصية ، فأنا أعرف الرجل .. بل ومعجب تماماً بآرائه الاقتصادية (وليست السياسية) وقد أتيح لى معرفة تلك الآراء بالتفصيل من خلال المصاهرة التى تربط بين أسرتنا وأسرته حيث كان ابن عمى على مرعى متزوجاً بكريمته .

وفضلا عن ذلك ، فإننى رأيت أنه من الناحية الموضوعية البحتة لايجوز أن نبادر الرجل بإعلان عدم ثقتنا فيه . . لأن هذا عمل عدائى لاضرورة له .

ولم يكن هذا رأيى وحدى ، وإنما اشتركت معى فيه مجموعة أخرى من أعضاء الجمعية العمومية للحزب ، ومع ذلك فعند التصويت داخل الحزب اكتشفنا أننا أقلية ، وأن الأغلبية داخل الجمعية العمومية قد أعطت صوتها إلى جانب عدم الثقة فى صدقى باشا وعدم الاشتراك فى حكومته .

وأصبحت أنا - كواحد من ممثلى الحزب داخل مجلس النواب - فى مأزق حرج . . فعلى مستواى الشخصى أنا غير مقتنع أبداً بهذا الموقف من جانب الحزب .. ولكن من ناحية أخرى أنا ملتزم- تعبيراً عن الانضباط الحزبى- بأن أؤيد موقف السعديين تحت قبة البرلمان .

وتحددت جلسة لمناقشة الأمر داخل مجلس النواب ، ولأول وهلة راودتنى فكرة التغيب عن حضور الجلسة ، لأن هذا هو مايوفق بين مايلزمنى به ضميرى . . وما يلزمنى به الانضباط الحزبى .

ومع موعد افتتاح الجلسة البرلمانية توجهت إلى أحد أصدقائى فى مكتبه وعرضت عليه حيرتى وقرارى . ووافقنى صديقى على قرارى تماماً . . ولكننى قلت له : أننى غير مستريح تماماً لقرارى بالتغيب عن جلسة البرلمان . . لأن هذا يحمل معنى الجبن وعدم الشجاعة ، ولأن التغيب هو أسهل حل ، وأنا أفكر فى الذهاب إلى الجلسة فوراً وإعلان رأيى تحت القبة .

وبرغم أن صديقى نبهنى إلى أن هذا معناه عدم الإنضباط حزبياً ، وإلى أن موقفى هذا سـوف يكون مسيئا لحزب السعديين . . إلا أننى فى الواقع ،

باندفاع الشباب وحماسته خرجت من عنده متوجهاً إلى البرلمان ، ومصمماً على أن أعلن هناك – من داخل الجلسة – أنني ممتنع عن التصويت !

والذى حدث بعد ذلك أننى ما كدت أدخل قاعة مجلس النواب حتى سمعت إسمى ينادى عليه فى الجلسة ، لأن عملية أخذ الأصوات كانت قد بدأت فعلا . وسجلت فوراً أننى ممتنع عن التصويت ، وسط دهشة زملائى من النواب لممثلين لحزب الهيئة السعدية .

وما كادت الجلسة تنتهى ، وأعود بسيارتى إلى منزلى ، حتى دق التليفون وطلبنى النقراشى باشا ، وإبراهيم عبد الهادى لمقابلته فوراً ، وذهبت إلى نادى سعد زغلول وقابلته فبادرنى قائلا فى ثورة :

– ما هذا الذى فعلته ؟ إنك أولا لم تخطرنا بأنك ستفعل ذلك .. ثم أنك – ثانياً – قلت رأيك داخل الجمعية العمومية ولم تقتنع به الأغلبية .. وبالتالى كان واجبك هو أن تلتزم بالإنضباط الحزبى .

وقلت له : كل هذا صحيح .. ولكن ماذا أفعل وأنا مقتنع بأن موقف الحزب هو موقف غير موضوعى بالمرة .. وعلى أى حال ، فإذا كان الحزب يرى أننى أسأت إليه فهذه هى استقالتى من عضوية الحزب .

وتناول منى الاستقالة ومزقها على الفور ، ثم زادت ثورته وهو يقول :

ما هذا ؟ هل كلما لفتنا نظرك إلى أمر .. تأخذ فيه هذا الموقف ؟ إن واجبك هو أن تعترف بأنك مخطئ وهذا هو كل شيئ .. اللهم إلا إذا كنت تريد الاستقالة من الحزب أساساً .

قلت له : لا . . أنا لا أريد الاستقالة أصلا . . ولكننى أريد أن أقول لمعاليك أننى فعلا غير مقتنع بموقف الحزب وأننى فكرت فى البداية فى التغيب عن جلسة

مجلس النواب ، وربما كان هـذا سيصبح أكثر ملاءمة للانضباط الحزبى ولكننى لم أستطع .

ولقد انتهى الموضوع عند هذا الحد . . ولكن القضية التى أريد أن أوضحها من الأزمة كلها هى إلى أى مدى كانت قضية الإنضباط الحزبى أساسية وخطيرة لأن الأحزاب نفسها لم تكن تستخف بصراعها السياسى مع بعضها البعض وإنما كانت تخوضه بمنتهى الجدية .

لعبة الأحزاب :

ولم يكن هذا الصراع الحزبى معبراً دائماً عن المصلحة العامة ، بل إنه كثيراً ما كان تعبيراً عن مواقف ومنافسات ومصالح شخصية بين الزعماء الحزبيين وبعضهم البعض . وأشهر مثال على ذلك هو مشروع كهربة خزان أسوان الذى ظل المرحوم عبد العزيز أحمد يدعو إليه سنوات طويلة وكل حزب مقتنع من جانبه بضرورة وحيوية المشروع ، وعندما يجئ الحزب إلى السلطة يبادر إلى دراسته جدياً تمهيداً للبدء فى تنفيذه . . ولكن بمجرد خروجه من السلطة ومجئ حزب آخر . . يبادر الحزب الجديد إلى إلغاء كل شئ نكاية فى الحزب القديم وحرصاً على تجريحه وتجريح المشروع معه . . وهكذا أصبح المشروع نفسه ضحية هذا الصراع الحزبى ، ولم يقدر له التنفيذ إلا بعد سنوات طويلة تالية عندما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

ومثال آخر على ذلك موقفنا نحن — فى حزب السعديين — من عثمان محرم الذى كان وزيراً وفدياً وكانت له آراء كثيرة فى الرى ثبت بالدليل القاطع أنها صائبة . . بل وبعيدة النظر . فعند إنشاء طريق مثلا كان عثمان محرم يرفض أن يكون عرضه خمسة أمتار لأن هذا العرض وإن كان ملائماً للاحتياجات عند شق الطريق إلا أنه لن يكون ملائماً بعد خمس سنوات ، فلابد بالتالى من مراعاة الإحتياجات فى المستقبل وشق الطريق على أساس عرض عشرة أمتار ..... وهكذا .

ولكن ، وهذا أمر أدركته بتراكم التجارب والخبرة السياسية ، لم نكن نحن فى داخل الحزب ننظر إلى المسألة من هذه الزاوية .. والمسألة كلها عند النظر إلى أية أفكار يطرحها حزب آخر .. هى أن نركز على نقد الخصم وحرمانه من الحصول على أية انتصارات سياسية .. **ذلك أن جوهر المسألة هو أن الصراع الحزبى لم يكن يحكمه أى قدر من الاتفاق على المبادئ الأساسية فى قضية حيوية مثل التنمية .. ولذلك كانت الخلافات الشخصية هي محور الصراع الحزبى والسياسى .. ومن هنا أيضا كان الطريق الوحيد أمام كل حزب هو أن يستعين بإحدى القوتين الحاكمتين ضد الأحزاب الأخرى ، والقوتان كلاهما كانتا تحكمان من وراء الستار ، وهما الاحتلال البريطانى والقصر الملكي ..** فتوازى القوى بين هاتين القوتين .. ومدى الدعم الذى تكفله أحداهما لحزب من الأحزاب هو الذى يحدد مدى قوته فى الساحة السياسية .

ومن النوادر المضحكة والمبكية فى تلك الفترة ، تلك القصة المشهورة عندما كان حزب الوفد خارج السلطة ، وحدث يوما أن مصطفى النحاس باشا قابل فجأة السفير البريطانى فى القاهرة ، ونشر هذا الخبر فى الصحف ، وقرأه حسن ياسين أحد زعماء الطلبة الوفديين وهو يركب المترو قادما من حى مصر الجديدة إلى وسط القاهرة .. وما كان من حسن ياسين سوى أن نهض من مقعده ، فهو لم يتمالك نفسه من الانفعال والسرور ، وكان يصيح فى كل عربات المترو بأعلى صوته بين الركاب الذين لا يعرفهم قائلا : النحاس باشا قابل السفير البريطانى النحاس باشا قابل السفير البريطانى النحاس باشا ... ... وكان المعنى الذى يريد هذا الشاب الوفدى أن ينقله بالطبع إلى الركاب هو : أن مقابلة السفير للنحاس باشا معناها بداية الرضاء السامى من الإنجليز عن الوفد .. وهذا بدوره معناه أن الوفد قادم إلى السلطة !

إننى لا أسوق هذا كمجرد حادث فردى ، وإنما كحادث له دلالة عن الجو الذى كان مسيطرا فعلا على الساحة السياسية فى تلك الفترة ، وهو الأمر الذى كان

يدركه كل مواطن بشكل غامض .. ولكن يدركه كل مشتغل بالحياة السياسية أو بالعمل البرلمانى بشكل صريح .

ربما من أجل هذا كان هذا الإحساس واحدا من الأسباب التى لا تقنعنا نحن كشباب بالالتزام تماما بالانضباط الحزبى .

فنحن كنا نحس أولا أن المصلحة العامة ليست هى الفيصل دائما ولا غالبا .. ونحس أن آراءنا لا قيمة لها ، بل وليست لها أية فاعلية ، إلا إذا رضى عنها الحزب كمؤسسة سياسية .. ومن هنا كان الإنسان كثيرا ما يكاد يغلى انفعالا داخل نفسه بسبب عدم قدرته على التعبير عن رأيه حتى على مستوى الجمعية العمومية للحزب ذلك لأن الجمعية عندما تجتمع فإنها تكون ملتزمة بجدول أعمال محدد قرره زعماء الحزب . ولا فرصة لديك للإدلاء بآراء خارج نطاق جدول الأعمال .. وإذا حدث وفعلت فلن يستمع إليك أحد .. وإذا استمع إليك أحد فإن القوى الحقيقية داخل الحزب لن تسمح لأفكارك بالخروج إلى حيز النور .

وهكذا شيئا فشيئا ، كنت أحس أن العمل الحزبى يتضمن جوانب خطيرة تخيب أمل الشباب على وجه الخصوص .. وتشيع بينه شعورا من الإحباط وخيبة الأمل . لقد كانت هناك فجوة حقيقية بين الشباب والشيوخ داخل كل حزب سياسى . وعلى مستوى الحزب السعدى .. وعلى مستوى الشخص .. لم يكن يخفف من ذلك سوى حالات فردية تماما يقوم فيها بعض السياسيين الكبار بتشجيع الشباب ورعايتهم .. وهم حينما يفعلون ذلك فإنهم لا يفعلونه لأن المناخ السياسى العام يتطلب منهم ذلك .. ولكنهم يفعلونه بسبب مزايا شخصية يتمتعون هم بها .. ويفعلونه بالرغم من المناخ العام نفسه .. الذى ينشر الإحباط ويشيع خيبة الأمل بين الشباب .

الشباب والحزبية :

إن أحد هؤلاء الذين أعتز تماما بتشجيعهم للشباب داخل حزبنا هو (المرحوم) **حامد جودة** الذى كان حريصاً للغاية على التفاعل مع الشباب وتبادل الحوار-

معهم بصفة مستمرة . ولقد كنا — كشباب داخل الحزب — نتأثر بخطابة إبراهيم عبد الهادى الممتازة فى الاجتماعات العامة .. ولكننا نتأثر بأفكار حامد جودة فى الجلسات الخاصة .

وفى ذلك المجلس النيابى الذى كنت عضوا فيه فيما بين سنتى ١٩٤٥ و ١٩٤٩ كان حامد جودة معتادا دائما على أنه بعد أن يغادر مقعده — كرئيس مجلس — وبعد انتهاء الجلسة .. ينتقل إلى منزله بحى المعادى .. ويصحب معه ما لا يقل عن أربعين أو خمسين نائبا أو عضوا من الحزب ، معظمهم من الشباب .. لكى يتناولوا العشاء معه فى منزله .. ويناقش معهم ، ويتبادل معهم الأفكار ويحيطهم علما بالظروف السياسية القائمة . وإذا حدث وتأخرت جلسة مجلس النواب كثيرا .. فإنه كان يصحب هذه المجموعة من الشباب إلى مقر جريدة « الأساس » .. وهى جريدة الحزب السعدى .. والكائنة فى شارع الشواربى ، ورئيس تحريرها محمد صبيح .. وهناك يظل حامد جودة يستمع ويناقش يوميا حتى ساعة مبكرة من الصباح .. بحيث أن تشجيع العناصر الشابة كان بالنسبة له مبدأ وعقيدة وليس مجرد شيء عابر كما كان الحال بالنسبة للزعامات الأخرى الكبيرة .

وبالطبع فإن هذا كله لايمنع من وجود ميزة كبرى، وضخمة تحققها الحياة الحزبية دائما ، وهى تربية الشباب سياسيا .. وتخريج أجيال متعاقبة من القيادات السياسية .. تتمسك بحرية الرأى وهى فى سن الشباب .. ولكن تتمسك بالانضباط الحزبى عندما تصبح فى سن الشيوخ ! إن الحرية هى التى تخلق وتنمى الأفكار الجديدة .. ولكن الانضباط هو الذى يقيم حزبا سياسيا .. وكلا العنصرين ضرورى وحيوى من أجل أى حياة سياسية صحية ومثمرة .. ونجاح أى حزب سياسى يتوقف على قدرته على الملاءمة بين كلا العنصرين .

وبالنسبة لنا فى تلك الفترة فإننا كنا نحس أن الانضباط الحزبى يغلب تماما على حرية الرأى داخل الحزب . وكما ذكرت فلم تكن هذه المشكلة داخل حزب الهيئة السعدية وحده .. وإنما كانت موجودة داخل الأحزاب جميعا ، وفى مقدمتها

حزب الوفد نفسه ، فمكرم عبيد – الرجل الثانى فى حزب الوفد بعد مصطفى النحاس أعلن انشقاقه عن حزب الوفد وشكل حزبا مستقلا وصغيرا باسم « الكتلة » وكانت أسبابه فى الانقلاب على النحاس والوفد أسبابا شخصية وسياسية .. وكان النحاس باشا يبدأ فى هذه الفترة إدخال عناصر جديدة وشابة فى الوفد .

إذن .. كانت مشكلة الشباب والشيوخ موجودة فى حزب الأغلبية نفسه وليس فقط فى أحزاب الأقليات ، وهى الأحزاب الأخرى غير الوفد . وفى البرلمان الذى كنت عضواً فيه – من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٩ – قاطع حزب الوفد الانتخابات ، وكان هذا يرجع إلى أسباب عديدة منها دخول الملك فاروق والقصر الملكى فى حرب سافرة ضده .. ومنها الانشقاق من الداخل فى الحزب نفسه ، الذى قاده مكرم عبيد ضد مصطفى النحاس .. ومنها أيضا الحملة الضخمة التى بدأت ضد الوفد متهمة إياه بالفساد والمحسوبية ، وعندما ينظر الإنسان إلى تلك الحملات بعد مرور فترة كافية عليها فإنه يدرك بغير شك أن الجزء الأكبر منها كان ظالما ، وكان موعزا به من الملك فاروق نفسه ، بل أن القصر الملكى لم يتورع عن تزوير بعض النتائج إنتقاما من مصطفى النحاس والوفد .

ولكن كل هذا لم يكن معروفا بالطبع وقتها .. وإنما الذى حدث أن هذا البرلمان لم يكن الوفد ممثلا فيه ، وكان يتميز بتعاون أحزاب الأقلية ضد حزب الوفد .. تحت شعار – أن الملك هو الولى الشرعى للسلطة – وأن الوفد ضد الملك . وبالطبع لم يكن قد عرف بعد أن الملك نفسه هو وكر الفساد فى مصر .. وإنما كانت تلك الفترة تتميز بأن الملك يحاول التظاهر بأنه مع الشعب ضد الإنجليز ، ويحاول أيضا أن يلصق بالوفد تهمة الاستعانة بالإنجليز ضده مستخدما فى ذلك حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذى سبق أن أشرت إليه .

وكان من التقاليد الحزبية فى تلك الفترة أن كل حزب ، بمجرد وصوله إلى السلطة أن يضع أنصاره فى المراكز الرئيسية والمؤثرة ، ومن بينها مديرو المديريات (وهو المنصب المقابل حاليا لمنصب المحافظ) وكان هذا ينعكس طبعا على نواب الحزب الحاكم بالمديرية كلها .

وكما ذكرت فإن القوتين الكبيرتين فى مصر وقتها كانتا هما الاحتلال البريطانى من ناحية والقصر الملكى من ناحية أخرى .. وقوة أى نشاط سياسى مستمدة من مدى المساندة التى تتحصل عليها من أى من القوتين . أما القوة الأكبر أو التى يجب أن تكون هى الأكبر ، فكانت هى الشعب. وكان الشعب تائها فى الواقع ويتراوح بين حزب الأغلبية وهو حزب الوفد ، والأحزاب الأخرى (السعديين — وهو أقربهم إلى الوفد — والحزب الوطنى وحزب الأحرار الدستوريين وحزب الكتلة .. إلخ) .

وربما كان هذا الشعور العام بالصراع السياسى هو الذى أدى إلى ظهور بعض الاتجاهات الأخرى .. كما عبرت عن ذلك جماعة الإخوان المسلمين بزعامة (حسن البنا) .. وجماعات أخرى من بينها مصر الفتاة (بزعامة أحمد حسين) .

ولأننى لا أدين بالعنف فى السياسة ولا أومن بالإرهاب فى العمل السياسى وبرغم تحفظاتى الكثيرة على الحياة الحزبية فى تلك الفترة .. إلا أننى لم أشعر بالميل أبدا للانضمام إلى أى اتجاه متطرف فى العمل السياسى .

لأنى كنت كما ذكرت أنتمى إلى حزب قائم ، أمارس العمل السياسى من خلاله . ولكن فى نفس الوقت كانت القضايا الاجتماعية تشد انتباهنا واهتماماتنا نحن الشباب . وكانت جماعة مصر الفتاة أكثر الجميع تبنيا لبعض هذه القضايا وكانت تطالب بتمصير الشركات الأجنبية وأن يلبس الشعب من إنتاج مصرى ولا يتعامل إلا مع المحلات والشركات المصرية . وتميزت هذه الفترة بأن أنشأ طلعت حرب أول مؤسسة اقتصادية مصرية (بنك مصر) وبعده أنشأ عددا من الشركات المصرية الناجحة . كالمحلة الكبرى وغيرها والتى كانت بحق نواة لإقامة الصرح الاقتصادى الصناعى فى مصر وفى اعتقادى أن طلعت حرب من الشخصيات التاريخية الرائدة فى المجال الاقتصادى وأن تاريخه يجب أن يدرس دراسة مستوفاة وخاصة من الشباب .

ولقد كان طلعت حرب مصدر خيال وإعجاب بين شباب جيلنا فى ذلك الوقت

باعتباره الرجل الذى حقق معجزة اقتصادية كبرى بدأت بإنشاء بنك مصر فى سنة ١٩٢٠ ، وتمت بإنشاء عشرين شركة ومؤسسة أخرى خلال العشرين سنة التالية .

ولكن ، وتلك مأساة أخرى من مآسى الحياة الحزبية فى تلك الفترة ، ذهب طلعت حرب ضحية الصراع الحزبى بالرغم من أن الرجل نفسه لم يكن حزبيا .. وذهب أيضا ضحية القوى الخفية المسيطرة على الحياة السياسية وهى أساسا الإنجليز والملك .

وعلى مستواى أنا كعضو فى البرلمان .. بدأت أدرك ، بشكل عام وغامض أن كل قرار هام ومؤثر فى الحياة السياسية لا يمكن اتخاذه إلا بعد حساب علاقته بإحدى هاتين القوتين : القصر والإنجليز ، وبغير أن أضع يدى على شئ محدد أو واضح .. فإننى فى تلك الفترة بالذات بدأت أدرك فعلا أن هناك شيئا كبيرا وخاطئا فى الحياة السياسية الحزبية .. وأن الواجهات التى نراها أمامنا كشباب ليست هى الواجهات التى تعبر عن السلطة الحقيقية فالأحزاب موجودة وهى تتمتع بالحرية فى صراعها السياسى .. ولكن هذا الصراع محكوم ومحسوب .. بحيث لا يتجاوز نقطة معينة .. وإذا تجاوزها فلابد أن يصطدم بالقصر أو بالإنجليز .. وإذا حدث هذا فإن أيا من القوتين سرعان ما تتحرك ..

وبكل أسف .. كان التحرك غالبا ما يعتمد على ضرب القوى الوطنية بعضها ببعض .. بالقاء فتات السلطة أمامها .. وتركها تنشغل بالصراع بين بعضها البعض.

الفصل السابع

نحن.. وهزيمة فلسطين

كان الاحتلال البريطانى لمصر هو صدمة الجيل السابق علينا . . وكان قيام إسرائيل وهزيمة الجيوش العربية فى فلسطين هو صدمة جيلنا .

ولأن هذه الصدمة فى هذه المرة كانت لها آثار مدوية علينا وعلى مصر وعلى العالم العربى وعلى خريطة الشرق الأوسط كله فيما بعد . . فلابد أن أعود بذاكرتى إلى تلك الفترة بأكبر قدر من التفصيل والتفسير .

لقد رويت فى فصل سابق المهمة السرية التى كلفنى بها النقراشى (باشا) فى فلسطين . . وكلفنى بها كزراعى وليس كسياسى . وبرغم هذا فقد كانت آخر جملة كتبتها فى التقرير الذى سلمته إليه بعد عودتى هى :

(إن فلسطين قد ضاعت من أيدى العرب)

إن النقراشى لم يفاتحنى فى هذا الموضوع بعد ذلك . . ولم يناقشنى فيه، ومن ناحية أخرى فإن هذا السطر الأخير الذى سجلته فى تقريرى لم يكن يعبر عن رؤية سياسية متفتحة ، لأننى أنا نفسى لم أكتب بقدرة ورؤية المحلل السياسى المتخصص، ولكنه كان يعبر عن حقيقة بديهية يستطيع أن يلمسها بنفسه أى عابر فى فلسطين . إننى أذكر تماماً مشهداً رأيته فى مزرعة يهودية كبيرة جداً قريبة من تل أبيب ، وكان إسمها « روهوفوت » وهى بمثابة محطة تجارب . . وفى تلك المزرعة لفت نظرى أن المكاتب الثلاثة الأولى فى المزرعة مكتوب عليها لافتات بالشكل التالى : « دكتور فلكن الأب — دكتور فلكن الإبن — دكتور فلكن الحفيد » .

وعند ما زرت المزرعة اكتشفت أنهم يقومون فيها بدراسة الأحياء المائية فى البحر الميت ، وهل يمكن أصلا أن توجد فيه أحياء مائية مستقبلا أم لا . . وما هو تأثير الملوحة الزائدة فى مياه البحر الميت على الأحياء المائية .

كان واضحاً إذن أن التكوينات الزراعية العسكرية اليهودية فى فلسطين تحمل هدفاً متتابعاً عبر ثلاثة أجيال ، وأن الخطط التى ينفذونها تتم على أساس مستقبل محدد يفكرون فيه ، وتوسع محدد يسعون إليه .

ولم تكن تلك هى الصورة المفهومة فى مصر . . من خلال صحفها وبرلماناتها وسياسييها .

كان الانطباع السائد هو أن ما يجرى فى فلسطين هو مجرد « حوادث شغب » بين مجموعة « عصابات » يهودية من جانب والشعب الفلسطينى من جانب آخر .

بل – أكثر من ذلك – لم يكن أحد متنبهاً إلى أن هناك خطورة فيما يجرى هناك فى فلسطين . . علينا نحن هنا فى مصر . . ولا حتى أن مصر نفسها يمكن أن تلعب أى دور عسكرى فى هذا الصراع المحسوب من جانب تلك « العصابات » وغير المحسوب من جانب العرب . وكانت القيادات ، الكبيرة فى الأحزاب السياسية المصرية كلها ترى أنه حتى لو نشأت أزمة ما فى فلسطين فإن الذى سيحلها هو بريطانيا . . باعتبارها – قوة الانتداب فى فلسطين من ناحية . . وقوة الاحتلال العسكرى فى مصر من ناحية أخرى . . ولابد أن بريطانيا ستشغل نفسها بأمن مصر .

من هذا المنطلق كان التفكير كله هو : أولا – لن يحدث شىء فى فلسطين ثانياً – إذا حدث شىء فإن كل ما على مصر أن تفعله هو أن تعتمد على المشاعر الحميدة لبريطانيا من الناحية السياسية ، وعلى منظمة الأمم المتحدة من الناحية الدبلوماسية . . أما التدخل العسكرى المصرى ، فهو احتمال بعيد جداً ، ولا أحد من السياسيين يفكر فيه ، أو حتى يستعد له أو ينبه إليه .

وكانت الفجوة ضخمة بين هذا الفهم السياسى – أو عدم الفهم السياسى –

الذى سيطر على الحياة العامة فى مصر والعالم العربى كله من ناحية . . وبين الفهم السياسى ، المحدد البعيد النظر ، الذى رأيته بين اليهود فى فلسطين أن هؤلاء كانوا يعرفون بالضبط ما يريدون ، وهم ينفذونه خطوة خطوة بإيقاع ثابت . . ويسعون من ناحية أخرى إلى تغذية هذه الحالة من « السبات السياسى » الذى يعيش فيه العالم العربى .

وإذا كانت فترة الانتداب البريطانى تمثل الإعداد والتمهيد لقيام الدولة الصهيونية فإن السنوات ١٩٤٥ ــ ١٩٤٨ كانت بمثابة الدقات الثلاث التقليدية التى تسبق رفع الستار عن المسرح ، وإعلان قيام الدولة الإسرائيلية والاعتراف بها من جانب القوى التى مهدت لميلادها .

الصــورة فى فلسطين :

وكانت الصورة فى فلسطين إذ ذاك صورة كئيبة مؤسفة ، كان هناك انهيار فى القوى العربية ، بدايته تدهور الاقتصــاد العربى فى فلسطين وتوقف التنمية ثم الخلاف ، بين القيادات الفلسطينية المتعددة ، **وبقاء فلسطين طوال فترة الحرب العالمية الثانية بدون قيادة بسبب وجود المفتى فى العراق ثم فراره إلى إيران ومنها إلى المــانيا بعد مشاركته فى ثورة رشيد عالى الكيلانى فى العراق ، وبقيت فلسطين بغير هذه القيادة التى لم تكن على مستوى الأحداث ، ثم عدم بروز أى قيادة أخرى ذات بصيرة تفرض نفسها .** . أو ربما أن الموقف كان قد انتهى بغير إمكانية التغيير .

إن الظروف المحيطة بفلسطين كانت كلها توحى بذلك ، **لم يكن الخلاف العربى داخل فلسطين فقط ، بل كان بين اتجاهات الدول العربية ، ومنها بغير شك من كان على معرفة بما يحدث ، وكان ينتظر اللحظة المناسبة للقيام بدوره والحصول على نصيبه** وكانت بريطانيا قد فقدت السيطرة على الموقف داخل فلسطين لأن المبادرة انتقلت إلى أيدى الصهيونيين واقتصر عمل بريطانيا على (رد الفعل) نتيجة لسياستها القديمة والمستمرة فى ممالا ة الصهيونيين على حساب الحق العربى ، تمهيداً لإقامة وطنهم .

إن بريطانيا كانت تعمل دائماً على إيجاد الظروف المواتية والمعاونة على نمو المجتمع اليهودى فى فلسطين ، وزيادة مقدرة الكيان الاقتصادى والاجتماعى له وبالإضافة إلى مايكفله ذلك للجوانب السياسية والعسكرية من دعم كانت تعمل فى هذا الاتجاه تمشياً مع ما تعهدت به الحكومة البريطانية من وضع فلسطين فى ظروف اقتصادية تكفل إنشاء وطن قومى لليهود واستناداً إلى المادة الثانية من صك الانتداب وكان الصهيونيون قد كثفوا نشاطهم فى جميع الميادين ، داخلياً وعلى الساحة الدولية ، فتضاعفت عمليات الإرهاب التى شملت قتل أعداد كبيرة من الإنجليز والعرب على السواء ، خاصة باستخدام الألغام والمتفجرات ، وهى السياسة التى تميز بها الإرهاب الصهيونى لقتل أكبر عدد دون تعرض حياة الإرهابيين لأخطار كبيرة ، وزادت المصادمات المسلحة وكثرت حوادث نسف خطوط السكك الحديدية والطرق ، وحوادث خطف الرهائن من الإنجليز وجلد الضباط والجنود إمعاناً فى إذلالهم واحتقارهم .

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد ألقت بثقلها فى حلبة هذا الصراع إلى جانب الصهيونيين ، فبعد تصريح روزفلت (١٩٤٥/٣/٥) بأن الحكومة الأمريكية تؤيد مطلقاً الكتاب الأبيض الصادر عام ١٩٣٩ ، (وهو الذى هاجمه الصهيونيون لأنه كان يحدد الهجرة ويعلن الاتجاه إلى إنشاء دولة فلسطينية واتهموا بريطانيا بسببه بالخيانة) ، عاد ترومان فأعلن وعده بإنشاء دولة يهودية حرة ثم أضاف ترومان مطالبته بإدخال مائة ألف مهاجر يهودى إلى فلسطين ، ولما اعترض العرب وكتب إليه المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود بهذه الاعتراضات رد عليه بتاريخ ١٩٤٦/١٠/٢٨ بخطاب يوضح فيه حالة اليهود فى أوروبا ، ووعد أمريكا بتأييد اليهود فى إنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين ، وأضاف أنه يرى أن إدخال مائة ألـ ـف يهودى لا يعتبر عملا عدوانياً بالنسبة للعرب .

يضاف إلى ذلك دخول الدول الاشتراكية إلى الحلبة بعدد من المهاجرين اليهود الذين دخلوا فلسطين بطرق غير قانونية بأعداد هائلة ، ومن المدربين عسكرياً

على عمليات الإرهاب ، وذلك بواسطة الزعماء والمسئولين اليهود فى هذه الدول ، الأمر الذى دفع إحدى المجلات الصهيونية إلى التفاخر بأن ٢٤ سفينة قد نقلت ٢٣,٥٠٠ مهاجر يهودى وأنهم دخلوا إسرائيل بطرق غير قانونية خلال أربعة عشر شهراً .

إن مسئولية بريطانيا فى إقامة الدولة الصهيونية هى مسئولية تامة ، فقد تولت بريطانيا إعداد فلسطين وتهيئتها لهذه النتيجة ، وعمد الاستعمار البريطانى بوعى وتصميم إلى تنفيذ مخطط مدروس يهدف إلى وضع فلسطين فى الظروف السياسية والإدارية والاقتصادية والعسكرية اللازمة لإقامة الدولة الصهيونية .

الأرض : هدف الغزو الصهيونى :

والحديث عن الظروف الاقتصادية لابد أن يتطرق إلى الحديث عن الأرض ، التى كانت الهدف الأساسى للغزو الصهيونى ، لأنه دون الحصول على الأرض ، كانت تستحيل إقامة المستوطنات لاستقبال المهاجرين الجدد ، الأمر الذى كان ضرورة للاستعداد لإقامة الدولة الصهيونية ، كانت المؤسسة الصهيونية تريد الأرض ليس فقط للاسكان ، ولكن لاستقبال المهاجرين وتحويلهم من العمل بالخدمات والسمسرة والتجارة وأعمال الصرافة والربا إلى العمل الزراعى ، من أجل ربطهم بالأرض والاستقرار عليها ، تمهيداً للاستيلاء على فلسطين .

عندما احتلت القوات البريطانية فلسطين عام ١٩١٨ ، كان سكان فلسطين ٧٠٠ ألف منهم ٦٤٤ ألف عربى و ٥٦ ألف يهودى يملكون ٢٪ من مجموع مساحة أراضى فلسطين .

وفى بداية عام ١٩٤٨ كان عدد العرب ١,٣٥٠,٠٠٠ فى حين بلغ عدد اليهود ٧٠٠,٠٠٠ يهودى أى إن العرب تضاعفوا مرتين ، بينما تضاعف اليهود فى ظل السياسة البريطانية التى عشرة مرة ونصف.

ورغم ذلك فإن العرب كانوا يملكون ٤٧,٧٩٪ من الأراضى الزراعية ويملك اليهود ٥,٦٧٪ من هذه الأراضى (الباقى كان أراضى أميرية) .

إن سياسة بريطانيا استغلت ظروف فلسطين فى الضغط على العرب للتخلى عن أراضيهم ، التى كانت منذ أيام الحكم التركى — تنقسم إلى ملكية فردية ، اما فى صورة ملكيات صغيرة أو اقطاعيات تملك الأسر السورية واللبنانية جزءاً كبيراً منها ، أو إلى ملكية على الشيوع ، كانت ملكيتها على الشيوع بين الاسر والقبائل ، وترتب لكل فرد من الأسرة أو القبيلة حقاً فى عائد هذه الأرض .

وإلى جانب ذلك كانت الدولة تملك جزءاً كبيراً من الأرض ، التى يتم تأجيرها للمزارعين ويكون لهم فيها حق الانتفاع أو الاستعمال أو المزارعة بمقتضى صكوك تمليك كانت تصدرها الحكومة ، وكانت هذه الصكوك قابلة للانتقال .

وعقب الاحتلال البريطانى — الذى سبقه كما هو معروف وعد بلفور — ولتهيئة الظروف أمام الصهيونيين ، وضعت بريطانيا قانونا للأراضى نص على :

(أ) يحرم على الملاك الذين لا يسكنون فلسطين استغلال أراضيهم ، وكان القانون يستهدف الاقطاعيات الواسعة التى تملكها عائلات سورية أو لبنانية غير مقيمة فى فلسطين ، وكانت من أجود أراضى فلسطين .

(ب) تصبح الأراضى التى تشتريها الهيئات الصهيونية أرضا يهودية غير قابلة للانتقال أى لا تخضع لقوانين الانتقال السائدة ، ولا يستطيع أحد شراءها ، أى تصبح أرضا موقوفة .

(ج) تحولت الأراضى المشاع ومساحتها حوالى ٤٥٪ من مساحة فلسطين إلى أرض تخضع لتصرف حكومة الانتداب ، وكانت تسكن هذه الأرض وتنتقل بين أرجائها عشائر تعتمد فى معيشتها على تربية الماشية .

(د) الأرض غير المستغلة والبور تخضع لما تقتضيه المصلحة العامة التى تحددها الإدارة البريطانية لفلسطين ، وقد استخدم هذا النص فى تخصيص مساحات كبيرة لليهود بحجة إنها لم تكن مستغلة .

ثم اتجهت بريطانيا إلى وضع المزارع العربى فى فلسطين فى ظروف سيئة بقصد إرغامه على بيع أرضه ، ومن ذلك :

(أ) اجبار المزارعين العرب على دفع الضرائب المتراكمة منذ الحرب العالمية الأولى رغم أن انتاجية الأرض لم تكن فى مستوى مواجهة هذه الأعباء ، مما أدى إلى عرض بعض الأراضى للبيع للخلاص من الديون .

(ب) حرمت الإدارة البريطانية المزارعين العرب من هياكل الإنتاج الرئيسية ، فبقيت القرى العربية بغير طرق معبدة ، الأمر الذى أبقاها فى عزلة عن المدن وعن بعضها ، وإلى الاعتماد على وسائل بدائية لنقل المحاصيل مما يعرضها للتلف والكساد .

(ج) حرمت المزارعين العرب من القروض الزراعية ، وأغلقت المصرف الزراعى العثمانى الذى كان الفلاحون يعتمدون عليه فى الحصول على بعض القروض بغير إقامة بديل له .

(د) حرمت القرى العربية من الرعاية الصحية .

المستوطنات الإسرائيلية :

وفى نفس الوقت ، كانت هذه الإدارة البريطانية توفر لليهود كل فرص التقدم والاستيلاء على الأرض ، فكانت تبادر إلى شق الطرق إلى المستوطنات الإسرائيلية وإلى منح المزارعين اليهود الوافدين حديثاً قروضاً طويلة الأجل ، وتوفر لهم الآلات الزراعية ، والمرشدين الزراعيين عند الحاجة .

ونحن نرى من ذلك أن الحصار الذى ضربته السلطات البريطانية على الزارعين العرب ، وحرمانهم من عناصر التنمية اللازمة لتطوير الريف الفلسطينى والمجتمع نفسه ، قد أدى بعض أغراضه فى بقاء الفلاح الفلسطينى فى وضع اقتصادى واجتماعى متخلف ، ودفعه فى كثير من الأحيان إلى التخلى عن أرضه فى مقابل بعض المـــال ، الذى لا يلبث أن يختفى من بين يديه تاركا إياه فى حالة أكثر بؤسا وفقراً . وفى نفس الوقت كانت المستوطنات الصهيونية (الكيبوتز) تتزايد فى رعاية سلطات الاحتلال .

وتقوم فلسفة هذه المستوطنات على أن تضم كل منها جماعة يعيشون ويعملون معاً ، وتعتمد على الزراعة بصفة أساسية ، وأن تكون وسائل اعاشتها من مبان وآلات . . . الخ مملوكة للجماعة ملكية جماعية ، وان تغطى الجماعة احتياجاتها من مأكل وتعليم ومأوى بطريقة جماعية ، ويعتمد الإنتاج على العمل الذاتى بصفة أساسية ، ويغلب على الكيبوتز طابع الزراعة الكبيرة ، فكانت المساحة المزروعة تتراوح بين ألفين وعشرين ألف دونم ، ويتراوح عدد أفراد كل مستوطنة بين ٣٠ و ١٥٠٠ فرد .

وهذه المستوطنات كانت الطريقة التى تمكن عن طريقها الصهيونيون من فرض وجودهم على الواقع الفلسطينى العربى وإذا كانت أول مستوطنة أقيمت فى داجانيا عام ١٩٠٩ بإشراف الصندوق القومى اليهودى ، فإن إنشاءها قد نشط بعد صدور وعد بلفور واحتلال بريطانيا لفلسطين وكان الصندوق يمنح قروضاً طويلة الأجل من أجل تنمية هذه المستوطنات .

وكانت المستوطنات تصمم لتكون بمثابة قلعة حصينة قادرة على الدفاع عن نفسها وعن غيرها من المستعمرات ، وساعد ذلك على توسيع رقعة الأرض التى يسيطر عليها الصهيونيون .

وكانت هذه المستوطنات مهد منظمات الهاجاناه والكوماندوز التابعة لها (البالماخ) وشتيرن وارجون زفاى ليومى ، فبحكم تكوينها وفلسفتها يتدرب أعضاؤها على حمل السلاح وتبث فيهم العادات العسكرية ، ويلاحظ أن كثيراً من القيادات العسكرية الإسرائيلية (مثل ديان وآلون) نشأت فيها ، وكانت باختصار العمود الفقرى للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية .

وعن دور هذه المستوطنات العسكرية ، يقول الكاتب الصهيونى الأمريكى نداف صافران ، الذى اشترك فى حرب ١٩٤٨ ، ثم رحل إلى الولايات المتحدة ، حيث أصبح أستاذاً فى جامعة هارفارد : « منذ الأيام الأولى للنشاط الصهيونى فى فلسطين ، لم تكن المستعمرات الزراعية على اختلاف أنواعها ، ينظر إليها من الناحية الاقتصادية

فحسب ، ولا كانت تعتبر وسيلة لتوفير العيش لساكنيها ، ولكنها كانت مراكز أمامية ورؤوس حراب للغزو الصهيونى للبلاد ، وفى العشرينات والثلاثينات ، حين نشطت أعمال المقاومة للغزو الصهيونى ، اتخذت المستعمرات الصهيونية هيئة حصون الحدود الأمريكية ذات الأسوار والأبراج ،وأصبحت مآثرها العسكرية جزءاً من الأساطير القومية المتداولة فى إسرائيل » .

والتشبيه هنا اضح . . فإن حصون الحدود الأمريكية كما هو معروف كانت مراكز أمامية ورءوس حراب لغزو المهاجرين الأوربيين الأوائل لأمريكا الشمالية وانتزاعها من أيدى سكانها الأصليين بعد ابادتهم .

ويقول صافران أن النشاط الاستعمارى الذى مارسته الصهيونية الذى يربط الأهداف العسكرية بالنشاط الاقتصادى ، تطور فى إسرائيل إلى مستوى الفن الرفيع وتقوم إسرائيل بنقله إلى بعض البلاد الصديقة التى تجابه مشكلات مشابهة فى آسيا وافريقيـــا .

وهيئة أركان الحرب هى التى تحدد مواقع المزارع الجديدة ــ فالذى يحدد هذه المواقع هو القيمة العسكرية وليس القيمة الاقتصادية ، لتصبح مراكز للهجوم والتوسع .

دور الوكالة اليهـــودية :

وكان هذا النشاط الذى ترتبت عليه الآثار الخطيرة المعروفة يتم تحت قيادة واشراف الوكالة اليهودية التى انشئت عام ١٩٢٩ كإطار أكثر شمولا للأجهزة الصهيونية الموجودة آنذاك ــ وهى الصندوق القومى اليهودى ، ثم الصندوق التأسيسى ــ بحيث أصبحت الوكالة اليهودية هى الاداة التنفيذية التى أنيط بها تحقيق الهدف الذى وضعه المؤتمر الصهيونى فى بال سنة ١٨٩٨ .

وكان للوكالة اليهودية مركز فى القدس مهمته تنظيم حركة الهجرة ومباشرة عمليات الاستيطان اليهودى فى فلسطين والعمل على تطوير الاقتصاد اليهودى ،

وكان لها مركز ثان فى لندن مهمته اجراء الاتصالات مع القوى الخارجية والدول الأجنبية ، ثم انشأت الوكالة مركزاً ثالثاً فى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية على ضوء ما اتضح من أهمية هذه الأخيرة بالنسبة للحركة الصهيونية .

ولعل أبسط ما يقال عن الوكالة اليهودية أنها كانت حكومة داخل الحكومة ، ولم يكن ينقصها إلا مراسم السيادة والاعتراف لتصبح دولة ، وكانت تمثل الصهيونيين فى اللجان المختلفة المتتالية ، وقامت بدور بالغ النشاط وفعال فى المفاوضات والمداولات التى صدر على أثرها قرار التقسيم (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) ، كانت حكومة ظل تستعد لتولى السلطات فى الدولة ، وهذا هو الذى حدث فعلا فى مايو ١٩٤٨ ، فقد أصبح المجلس التنفيذى للوكالة اليهودية مجلسا لوزراء اسرائيل ، وأصبح جهازها الإدارى هو الجهاز الحكومى لإسرائيل .

وإلى جانب هذه المهام السياسية ، فقد كان للوكالة اليهودية مهام اقتصادية تتركز فى تنظيم حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين والإشراف عليها ابتداء من المواقع التى تتواجد فيها الجاليات اليهودية حتى وصولهم إلى أرض فلسطين . وأيضا الاضطلاع بأعباء الاستيطان واستيعاب هؤلاء المهاجرين من اليهود منذ لحظة وصولهم وتجميعهم فى المعابر ثم توزيعهم بعد ذلك على المستعمرات التى أقيمت خصيصا لهذا الغرض إلى جانب بناء المساكن اللازمة لاستيعابهم فى المدن الفلسطينية .

وكان من مهمة الوكالة اليهودية كذلك الاشتراك فى تمويل وإعداد الدراسات اللازمة لتنفيذ المشروعات الخاصة بالتنمية الزراعية وزيادة موارد المياه بما يخدم مصالح الأقلية اليهودية فى فلسطين . ويعد استخدام الوكالة للخبير الزراعى وولتر كلاى لوزير ميلك — الذى كان أول من أشار إلى نقل مياه نهر الاردن خارج حوض هذا النهر بهدف تعمير منطقة النقب فى فلسطين فى عام ١٩٣٨ أحد الأمثلة البارزة على جهود الوكالة فى هذا المجـــال .

وأخيراً فإن الوكالة كانت تعمل على تطوير وتنمية اقتصاد الأقلية اليهودية فى فلسطين من خلال تحمل مخاطر التمويل بالنسبة للمشروعات التى تقام سواء فى

مجالات الإنتاج أو الخدمات ، أما منفردة أو بالاشتراك مع الهيستدروت ، سواء كانت هذه المشروعات فى شكل شركات أو فى شكل جمعيات تعاونية ، وتحتفظ الوكالة بحصتها فى رأسمال هذه الشركات حتى الآن (٣٣,٣٪ من رأس مال شركتى زيم للنقل البحرى والعــال الإسرائيلية للنقل الجوى) .

وبالإضافة إلى ذلك فلايمكن تجاهل المهام الاجتماعية والثقافية التى أنيطت بالوكالة والتى باشرتها من خلال إداراتها المتخصصة لاسيما بالنسبة للمهاجرين فيما يتعلق بتقديم الخدمات الاجتماعية لهم وأيضاً الخدمات الثقافية والتعليمية وذلك جنباً إلى جنب مع التنظيمات الصهيونية واليهودية الأخرى التى تواجدت فى ذلك الوقت .

ومن الناحية العسكرية فإنه بالرغم من أن المهام السياسية والاقتصادية كانت هى السمة الغالبة على النشاط المعلن للوكالة اليهودية ، إلا أن ذلك لم يمنع اضطلاعها بعدة مهام عسكرية بمايخدم تحقيق الأهداف الصهيونية وهو مايتمثل فى القيام بدور رئيسى فى الإشراف على منظمة الهاجاناه والتى كانت أحد الأذرع العسكرية للتنظيمات اليهودية فى فلسطين والتى كانت نواة لما أصبح فيما بعد الجيش الإسرائيلى .

وعملت الوكالة اليهودية أخيراً على تشجيع قيام منظمات إرهابية تبث الفوضى والإرهاب بين السكان الآمنين حتى تنفر العرب من الإقامة فى بلادهم وتشجعهم على بيع الأراضى .

مصر لا تعرف عن ذلك شيئاً

ولكن أعود هنا وأكرر أن كل هذا النشاط والتخطيط ، ولاحتى نصفه أوربعه، كان واضحاً فى مصر . إن الحياة السياسية المصرية كانت مشغولة بالصراع بين الأحزاب على كراسى الوزارة ، والصراع بين الأحزاب والقصر الملكى ، وبين القصر والاحتلال البريطانى ، وبين الاحتلال والشعب ، كل هذا كان بمثابة ملهاة كبرى تمتص تماماً كل الحياة السياسية فى مصر . ليس هذا فقط ، بل أن الأغلبية الكبرى بين السياسيين المصريين وصلت فى تفاؤلها إلى درجة تعليق الأمل على بريطانيا نفسها فى حل أى أزمة تنشأ عن تصاعد أعمال « الشغب » التى تقوم بها « العصابات » اليهودية فى فلسطين .

ومع تصاعد تلك الأعمال الإرهابية بدأ يسود أحد منطقين: المنطق الأول - هو استمرار للنظرة السابقة . . من أن مصر عليها ألا تتدخل فيما يحدث فى فلسطين . . والمنطق الثانى - الذى بدأ يتردد على استحياء - هو أن فلسطين هى الباب الشرقى لمصر ، وأن أمن فلسطين هو جزء من أمن مصر وبالتالى على مصر أن تتدخل .

ولقد ساد هذا المنطق الأخير فيما بعد ، ولكنه عندما ساد . . كان متأخراً جداً . . وقليلا جداً . لقد تصاعدت الأعمال الإرهابية ضد الشعب العربى فى فلسطين وبدا للنقراشى (باشا) أن المسائل زادت كثيراً وأننا لايجوز أن نسكت على هذه الجرائم التى ترتكب ضد إخواننا العرب فى فلسطين .

ومع ذلك ، فعندما بدأ هذا المنطق يتردد ، فإنه كان يتردد على أساس أن الأعمال الإرهابية فى فلسطين تقوم بها عصابات يهودية متفرقة ، وأن أساس استمرار تلك العصابات فى إرهابها هو أنها لم تواجه بعد جيشاً نظامياً . . ولذلك فبمجرد أن يتصدى لها جيش نظامى ، مصرى أو أردنى أو عربى عموماً فإن كل شىء سيتم تصحيحه ، وكل شىء سيصبح على مايرام .

تلك كانت هى أفكارنا التى اقتنعنا بها وقتها ، لأننا كنا نثق كثيراً فى هؤلاء السياسيين الذين يعرفون أكثر مما نعرف . . ويحسبون أكثر مما نحسب وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت ثقتنا كبيرة فى قدرة الجيش المصرى ، وكذلك الجيشين الأردنى والعراقى . . وهكذا جاء النقراشى (باشا) إلى البرلمان يعلن لنا أن مصر والأردن والعراق سوف تدخل الحرب بجيوشها . . والسعودية سوف تدخل بأموالها . .

وهذه الخطوة لم تتقرر إلا بعد أن أصبح واضحاً أن اليهود فى فلسطين ينتظرون انتهاء الانتداب البريطانى فى فلسطين لكى يعلنوا قيام الدولة اليهودية هناك اعتباراً من ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ :

النقراشى يعلن دخول الحرب

وهكذا اعقد مجلس النواب جلسته الثامنة والعشرين يوم الأربعاء ١٢ مايو سنة ١٩٤٨

والبند الثانى فى جدول الأعمال هو طلب المناقشة المقدم من « حضرة النائب المحترم فكرى أباظة بك عن :

(أ) الوصاية على فلسطين والهدنة وشروطها .

(ب) الموقف فى حالة ما إذا تم جلاء الإنجليز عن فلسطين وانهاء الانتداب وحالة الحرب الفعلية التى ترتبت على الجلاء الجزئى .

(ج) تنسيق السياسات الخارجية لدول الجامعة العربية .

(د) الموقف العام فى العراك الناشب فى فلسطين . »

وكان طلب المناقشة الثانى المقرر نظره فى نفس الجلسة هو « الطلب المقدم من حضرة النائب المحترم عبد الغنى شرابى » بشأن معرفة مدى مساهمة الحكومة المصرية فى الأعمال العسكرية الخاصة بانقاذ فلسطين .

وطلب المناقشة الثالث لنفس الجلسة ، مقدم من « حضرة النائب المحترم همام محمود حمادى » بشأن قضية فلسطين .

وهكذا بدأت الجلسة فى الساعة السادسة والدقيقة العاشرة مساء ، وجدول أعمالها يتضمن هذه الطلبات الثلاثة ، وبمجرد أن افتتح حامد جودة رئيس المجلس الجلسة تقدم العضو عبد الغنى شرابى بطلب — يؤيده فيه عشرة من النواب — بعقد الجلسة سرية . . من أجل سماع بيان محمود فهمي النقراشى رئيس الحكومة عن قضية فلسطين .

وعندما انتهى رئيس الحكومة من بيانه — الذى أعلن فيه أن مصر سوف تدخل الحرب فى فلسطين بالتنسيق مع الدول العربية الأخرى الأعضاء فى الجامعة العربية — أعيدت الجلسة علنية ، حيث وافق المجلس على اقتراح نصه :

« بعد سماع بيانات دولة رئيس الحكومة ، يقرر المجلس الموافقة على السياسة التى اتبعتها الحكومة فى المسألة الفلسطينية ويؤيدها كل التأييد فيما ترى اتخاذه من إجراءات لإنقاذ هذه البلاد العزيزة وأهلها من العدوان الإجرامى » .

وليلتها كان تصميمنا حاداً ، وصفقنا أكثر عندما وقف النائب سيد محمد بدراوى (باشا) معلناً : أننا نضع أنفسنا وأموالنا تحت تصرف الحكومة لإنقاذ فلسطين » .

وكان الشيء الغريب فى الموضوع كله أن النقراشى (باشا) كان مؤمناً من البداية بعدم دخول مصر للحرب ، بل وكان مفرطاً فى اقتناعه بذلك . . ولعكس الأسباب التى يراها نفس المتفقين معه فى الرأى ، فلقد كان النقراشى يرى أولا أن الجيش المصرى غير مستعد — عدداً وعدة — لدخول حرب . . ومن ناحية أخرى فإن النقراشى كان يشك جداً فى نوايا الإنجليز . .و لهذا فإنه كان يرى أن ذهاب الجيش المصرى إلى فلسطين سوف يخلق وضعاً خطيراً على أمن هذا الجيش نفسه . . لأن القوات البريطانية المرابطة فى منطقة قناة السويس سوف تصبح وراء ظهره . . وبذلك فإن الجيش المصرى سوف يواجه عدوين . . واحد من الأمام فى فلسطين وواحد من الخلف فى قناة السويس وهو الإنجليز .

ظل النقراشى مؤمناً إذن ، وبشدة ، بعدم دخول مصر فى الحرب وظل على موقفه هذا حتى يوم ١١ مايو سنة ١٩٤٨ .

إلا أنه من ناحية أخرى كان الملك فاروق يعمل منذ فترة بوحى من حلم يراوده ، هو زعامة الدول العربية ، وربما لأسباب أخرى كثيرة . وهكذا دعا جميع ملوك الدول العربية ورؤساءها إلى اجتماع بمزرعة أنشاص دون أن يحضر هذا الاجتماع أحد من الحكومة وهكذا أيضاً تلقى الفريق محمد حيدر (باشا) وزير الدفاع . . ورجل الملك داخل الحكومة . . تلقى أمراً مباشراً من الملك بدخول الجيش حرب فلسطين ، بدون الرجوع مطلقاً إلى محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء . . مما كان لابد أن تترتب عليه أزمة دستورية كبرى .

ولكن يبدو أن النقراشى من جانبه كان يرى أن هناك اعتبارات تتجاوز التمسك بالدستور . وفى يوم ١٢ مايو طلب عقد جلسة سرية للبرلمان للموافقة على عبور الجيش المصرى الحدود ودخول فلسطين .

ودخلت مصر الحرب إذن – مع شرق الأردن وسوريا والعراق . . والسعودية اعتباراً من ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ لإنقاذ فلسطين ، وكنا كلنا جميعاً ثقة فى أن الحرب لن تستغرق أكثر من أيام . . وأن القضاء على تلك « العصابات » الإرهابية اليهودية فى فلسطين هو شيء مفروغ منه .

وفعلا بدأت انتصارات الجيش المصرى المحارب فى فلسطين . . وخلال أسبوع أو أسبوعين وصل الجيش فعلا إلى مشارف تل أبيب . . وبدأت البلاغات العسكرية الرسمية المصرية تتخذ لهجة حاسمة وهى تعلن للناس أن القضاء على « إسرائيل المزعومة» أصبح قاب قوسين أو أدنى . وأن تل أبيب عاصمة « إسرائيل المزعومة » سوف تسقط سريعاً

وفجأة . . بدأت أخبار انتصارات الجيش المصرى فى بلاد فلسطين تتباعد وبدأت الضغوط الدولية ، وتقررت الهدنة الأولى لمدة ثلاثة أسابيع . وقبلت الحكومات العربية الهدنة فى اجتماع عقدته فى عمان . . وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه العرب فى القرن العشرين .

فخلال الهدنة استطاعت « إسرائيل المزعومة » أن تحصل على كميات ضخمة من السلاح . . واستطاعت أن تنمى عوامل الخيانة ضد العرب . . وهكذا استؤنفت ، الحرب بعد انتهاء الهدنة الأولى . . ثم تبعتها هدنة ثانية . . وحرب ثانية . . ولكن أصبح واضحاً فى هذه المرة أن القوى التى تقف وراء إسرائيل الوليدة هى قوى ضخمة . ومريبة . . وأن القوى التى يستند إليها العرب هى قوة محلية مهتزة متضاربة من حيث الهدف ومن حيث المنفعة الخاصة .

وبدأ بعض من القوات المصرية المحاربة فى فلسطين يعود إلى مصر . . بعضها قوات جيش ، وبعضها قوات من المتطوعين الأفراد . ورأى الملك فاروق المبالغة بشدة فى إقامة الحفلات والاستعراضات للاشادة ببطولة الجيش المصرى .

ولكن كل هذا لم يمنع الأسئلة الكبرى الأساسية من التردد فى سماء الحياة العامة هل انتصر الجيش المصرى أم انهزم ؟ هل ذهب الجيش ضحية غدر أو خيانة ؟ هل كانت الهدنة بعد الهدنة بسبب خيانات محلية . . أم بسبب إكراه من الدول الكبرى والأمم المتحدة ؟ ثم السؤال الكبير : هل كانت الأسلحة فاسدة ؟

لم يكن الأوان قد آن بعد للحصول على إجابات لكل تلك الأسئلة أو بعضها . . ولكن أصبح واضحاً أن حرب فلسطين والهزيمة فيها سوف تلقى من الآن فصاعداً ظلالها على كل شىء فى مصر . . بما فى ذلك الصراع الحزبى نفسه .

وهكذا صحا الناس ذات يوم من ديسمبر ١٩٤٨ على حادث فظيع هو اغتيال ، محمود فهمى النقراشى (باشا) رئيس الوزراء . . وإشاعة بأن قاتله ينتمى لجماعة الإخوان المسلمين وبعدها بفترة حادث فظيع آخر . . هو اغتيال الشيخ حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين .

لقد كانت الحياة العامة فى مصر فاسدة . . والهزيمة فى فلسطين مريرة . . وكانت تلك هى أولى ثمارها .

الفصل الثامن

وسقطت في الإنتخابات واعتزلت السياسة

بعد اغتيال النقراشي .. كلف إبراهيم عبد الهادى « باشا » بتشكيل الحكومة .. وتم انتخابه رئيسا لحزب الهيئة السعدية ، وانتخب حامد جودة كذلك نائبا لرئيس الهيئة السعدية .. وبدأ التفكير فى الانتخابات الجديدة التى يقترب موعدها .. وهكذا بدأ التفكير من جديد فى احتمال التلاعب فى الانتخابات .. وهو الاحتمال الذى كان قائما فى كل مرة .

وبرغم أن الحياة البرلمانية والسياسية بالواقع الذى رأيتها عليه ، لم تكن محققة تماما لآمالى الشخصية .. إلا أننى نويت أن أعيد ترشيح نفسى فى الانتخابات القادمة .. على الأقل لأن العمل البرلمانى هو فرصة كبرى للتربية السياسية وهى فرصة تسمح لى بتكوين خبرة سياسية ما زلت حريصا عليها .

وبدأنا نحن السعديين فى تنظيم أنفسنا للترشيح وكانت حكومة حسين سرى هى التى ستجرى الانتخابات وكان هناك تأكيد منها للأحزاب جميعا بأنها ستكون انتخابات حيادية وكان بعض السعديين يفكرون بأن هذا الحياد قد يكون حيادا صوريا لأن معالم نجاح الوفد ــ بعد تغيير الوزارات المختلفة ــ صار الأمر الأكثر احتمالا . وخصوصا أن استقالة جكومة إبراهيم عبد الهادى « باشا » فى ٢٥ يوليو قد أسميت « هدية العيد من الملك إلى شعبه » وهى الاستقالة التى أعقبها تشكيل حسين سرى « باشا » لوزارته فى نفس التاريخ .

ولكن بالنسبة لى على الأقل كان الموقف مؤكدا بعض الشىء لنجاحى فى

الانتخابات لولا أن الدكتور محمد هاشم كان يتولى الإشراف على الانتخابات وكان لى قصة معه .

والقصة تبدأ بواقعة معينة كانت سببا فى الصدام بينى وبين الدكتور محمد هاشم « باشا » زوج بنت حسين سرى باشا — وأدت بالتالى إلى إسقاطى فى الانتخابات التى أجرتها حكومة حسين سرى بعد حل مجلس النواب فى أغسطس سنة ١٩٤٩ .. وكانت واحدة من التحديات التى قابلتها فى حياتى .. كان محمد هاشم جارنا فى المنطقة ولم يكن هناك أى خلاف بينى وبينه — بل على العكس كان هناك نوع من المعرفة وصلة المودة — وكانت هناك قطعة أرض من « طرح البحر » لا تزيد على عشرة قراريط أمام أرضى الزراعية عند بحر مويس .. وكنت قد أعطيت هذه المساحة من أرض الحكومة لشخص عجوز اسمه عم متولى أبوبركة لكى يزرعها .. وكانت له عندنا منزلة خاصة وكان الرجل يتجاوز الثمانين وكنت أقوم بدفع إيجار هذه القراريط التى يضع يده عليها ويستغلها إلى الحكومة بالنيابة عنه .. وكنت أحاول بذلك معاونته على المعيشة .. وكان الرجل يزرع هذه الأرض بالخضروات .. واستمر الحال على ذلك لمدة أربع أو خمس سنوات .. وكنت سعيدا بهذا العمل الإنسانى .. ولكن فجأة جاء محمد هاشم وأراد أن يضع يده على هذه القراريط البسيطة بحجة أنها من حقه — لأنه جار وأولى بالشفعة — وبالفعل أرسل رجاله وضربوا الرجل العجوز عم متولى وطردوه من الأرض .. وكان تصرفا قاسيا مجردا من الرحمة ورفضت السكوت على ما حدث .. وقررت مقاومة منطق القوة الذى اتبعه محمد هاشم وتصديت لإعادة الأرض إلى عم متولى وأرسلت بعض الرجال وطردت أعوانه المعتدين وسلمت الأرض مرة أخرى إلى العجوز .. وأضمرها محمد هاشم فى نفسه .. ويشاء القدر أن تتغير الظروف ويحدث التغيير الوزارى ويجئ محمد هاشم وزير دوله وعهد إليه بالإشراف على الانتخابات فى وزارة حسين سرى « باشا » .

لم يكن قد مضى سوى أسبوع واحد على الصدام العنيف بينى وبين محمد هاشم من أجل أرض « طرح البحر » حتى استقالت وزارة إبراهيم عبد الهادى فى

٢٥ يوليو سنة ١٩٤٩ وكلفت السراى حسين سرى بتشكيل الوزارة التى تقوم بإجراء الانتخابات وهكذا أصبح خصمى فى موقع القيادة الذى يمكنه من إسقاطى فى الدائرة .. وبدأت الشكوك تساورنى حول مدى نزاهة تلك الانتخابات وترددت الهمسات عن أن هذه الوزارة تعمل على إنجاح الوفديين ، وذهبت إلى إبراهيم عبد الهادى - بصفته رئيسا للهيئة السعدية - وقلت له .. إننى لن أنجح فى الانتخابات طالما أن محمد هاشم هو الوزير المسئول عنها .. بالإضافة إلى أن ميول وزارة سرى منحازة تماما إلى جانب الوفد وتقوم بتمهيد الطريق للوفديين حتى يحصلوا على الأغلبية من خلال الانتخابات ويصلوا إلى الحكم ..

وحاول إبراهيم عبد الهادى باشا إزالة مخاوفى وشكوكى وقال لى .. أنا عندى تأكيد من السراى أنهم لن يتدخلوا فى الانتخابات وأن حكومة حسين سرى ستلتزم الحياد ..

ولكنى لم أكن مطمئنا إلى تأكيدات إبراهيم عبد الهادى باشا وكنت أشعر فى قرارة نفسى أن الحكومة تأخذ موقفا مضادا من السعديين ، وعندما شعر إبراهيم عبد الهادى باشا بأننى لست مقتنعا ، قال لى .. هل تريد أن تتخلف عن هذه الانتخابات ؟

وقلت له .. لا بالطبع .. وعلى العكس فإننى أحب الدخول فى معارك التحدى .. وإذا نجح واحد من السعديين فى الانتخابات فسأكون أنا لأننى واثق من مركزى فى الدائرة ، ومتأكد من أصوات الناخبين وأهل العزيزية .

ولكن الظاهر أننى كنت واثقاً أكثر مما يجب فى نفسى وبدرجة أكبر من الأساليب المتبعة فى تزوير الانتخابات .

لقاء مع النحاس باشا :

كان الوفد قد وضع خطة محكمة لاكتساح الانتخابات والحصول على الأغلبية ، وقام فؤاد سراج الدين باشا - سكرتير حزب الوفد - بترشيح الوفديين فى جميع الدوائر ، وكان يضع مرشحا وفديا فى كل دائرة ولكنه عندما وصل إلى

العزيزية وقف حائرا أمامها .. فإن الوفد لم يجد شخصا واحدا له قيمة يمكنه دخول المعركة ضدى أو منافستى .. وكانت المفاجأة غير المتوقعة عندما اتصل فؤاد سراج الدين بالمرحوم المستشار — مرسى فرحات — الذى اختير وزيراً للتموين فى حكومة الوفد بعد ذلك وأخبره بأنهم يريدون أن أنقلب .. وفديا .

ولم أفهم معنى ذلك لأول وهلة ، ولكن مرسى فرحات قال مكملا المفاجأة انزل الانتخابات على اعتبار أنك من مرشحى الوفد وسوف لا نرشح أحدا ضدك فى الدائرة .. وأدركت القصد من وراء هذا العرض ورفضت المبدأ وقلت لمرسى فرحات .. غير ممكن أن أرشح نفسى وفديا وأتنكر للسعديين لا أستطيع ذلك ، آسف !

ولجأ مرسى فرحات إلى أسلوب آخر للعرض — وقتها كان المرشح الوفدى يدفع خمسة آلاف جنيه لخزينة الوفد كواجبات للصرف على أعمال الحزب فى مقابل تأييد الوفد له فى الانتخابات — وقال مرسى فرحات .. سوف نعفيك من هذه الواجبات المالية .. ما رأيك إذن ؟

وأصررت على موقفى وقلت له .. إن مفهوم الواجبات عندى شئ آخر .. إنه يعنى التزامى للهيئة السعدية فى الحكم وخارج الحكم .. وليست المسألة مجرد دفع فلوس .

وفوجئت بمرسى فرحات يحاصرنى مرة أخرى ويعرض على مقابلة مصطفى النحاس « باشا » زعيم الوفد لكى أسمع وجهة نظره فى الموضوع ..

ووجدت نفسى محرجا فى هذا الموقف .. كيف يمكن أن أرفض مقابلة « رفعة الباشا » ؟ وليس هناك ما يبرر هذا الرفض .. خصوصا وأنى أكن له محبة خاصة .. وجاءنى الإحراج من ناحية أخرى ، كان المستشار مرسى فرحات « بك » متزوجا أختى وأخذ بدوره يضغط على لكى أقابل النحاس باشا بصفتى قريبه .

وقلت له .. إن الموقف سيكون صعبا .. ولا يمكننى أن أضع نفسى فى هذا الحرج لأننى لن أقبل الترشيح على قائمة الوفد ..

ولكن مرسى فرحات عاود الكرة مرة ثانية — بالاتفاق مع فؤاد سراج الدين — وقال لى .. أنه أعطى وعدا بذلك .. ولم يكن أمامى سوى الموافقة على هذه المقابلة .. وذهبت فى الموعد المحدد إلى بيت النحاس المطل على النيل فى جاردن سيتى ، وجلست مع مرسى فرحات فى الطابق الأول ننتظر زعيم الوفد ..

وبعد لحظات نزل النحاس من الطابق الثانى ودخل الصالون مع فؤاد سراج الدين . كانت المرة الأولى التى أراه فيها وجها لوجه .. وكانت تعجبنى طريقته التلقائية وروحه المرحة .. وتلفت النحاس باشا فيمن حوله وقال بصوت عال وبطريقته المشهورة .. فين سيد مرعى ده ؟

وقدمنى له مرسى فرحات ، وأخذ يتفحصنى بنظرته وقال لى .. طيب .. إحنا أعفيناك من الواجبات ..

ولكن فؤاد سراج الدين تدخل فى الحديث لإنهاء الموضوع وقال له .. لكن سيد مرعى له طلب ثان أيضا من رفعة الباشا ..

ووقعت فى إحراج آخر فقد كان سراج الدين يريد أن يضعنى أمام الأمر الواقع ويفهم النحاس أننى وافقت على مبدأ الترشيح بعيدا عن السعديين ومضى يقول .. إن سيد مرعى لا يريد ترشيح نفسه وفديا أو سعديا .. ولكنه يدخل الانتخابات مستقلا .. ونغلق الدائرة عليه ..

وظهرت الدهشة على وجه مصطفى النحاس وقال .. ولكن الإجراء ده لم يحدث قبل ذلك .. وليست له سابقة بالنسبة للوفد ..

وابتسم فؤاد سراج الدين وأراد أن ينتزع موافقتى من خلال هذا الموقف وقال : نعم هذا الشيء لم يحدث من قبل بالفعل .. ولكن من أجل خاطر سيد مرعى نجرى ذلك فى العزيزية ..

ووافق النحاس باشا على رأى فؤاد سراج الدين وقال .. على بركة الله .. ثم ركب سيارته وخرج من باب البيت وأيضا غادر الصالون بعده فؤاد سراج الدين وتركنى مع مرسى فرحات وسط دهشتى وذهولى وأحسست أننى غريق فى بحر بغير قرار .. وخرجنا من البيت صامتين وركبنا السيارة والتفت لى مرسى فرحات وقال .. خلاص يا سيدى .. انتهت العملية .. وأصبحت مرشحا مستقلا .. وضمنت الدائرة ..

وأفقت من خواطرى ومن المفاجأة غير المتوقعة وقلت له .. لا يمكن أن يحدث ذلك .. ولا تتعب نفسك .. لأ ننى أعتبر هذا التلون ماسا بكرامتى الشخصية ..

وتعجب مرسى فرحات من تفكيرى ورفضى لهذه الفرصة الذهبية .. ولكننى قلت له .. إننى متمسك بموقفى مع السعديين .. ثم إننى لم أكن راغبا فى تلك الزيارة . . وهذا الاحراج لن يجعلنى أقبل التنازل عن مبادىء وسافرت بعد ذلك مباشرة إلى دائرتى الانتخابية وفى رأسى تصميم على قبول التحدى مع الوفد مهما كان الثمن .

بالطبع كان هذا التفكير نوعاً من المخاطرة . . بل أنه كان يمثل من جانبى التمرد على الأوضاع السياسية السائدة فى هذه الفترة .

حقيقة أننى انتميت إلى الهيئة السعدية للأسباب التى شرحتها سابقاً ولكن ذلك لايعنى رضاء بأسلوب المناورات الحزبية . ولم يكن هناك فارق كبير بين مبادىء السعديين والوفديين ولكننى نظرت إلى المسألة من الناحية الأخلاقية البحتة . . ثم إن انتمائى إلى السعديين جاء بناء على ترشيح النقراشى لى فى الانتخابات ، وليس عن رغبة فى الممارسة الحزبية . . وكنت أسائل نفسى : أ إلى هذا الحد يصل الوجه القبيح للحزبية . . وإلى هذا المستوى ينحدر العمل السياسى للأحزاب ؟ .

وكانت وجهـــة نظرى ترفض هذا التذبذب لأننى بذلك أتنكر للسعديين بعد أن أصبحوا خارج الحـــكم . . وإذن عندما أجيء فى الوقت الصعب واتجه إلى حزب الوفد القادم إلى الحكم واقفز من حزب إلى حزب لكى أنجح فى البرلمان . . فإن ذلك يعنى أننى رجل بلامبادىء . . وبلاوفاء . . وبلا أخلاقيات.

وباختصار كان ذلك معناه — فى رأيى — القضاء على مستقبلى السياسى . . وعلاوة على ذلك سألت نفسى : ماذا أقول لزملائى السعديين الذين صحبتهم فى البرلمان ، خمس سنوات ؟ وكيف أواجههم ؟ .

وذهب مرسى فرحات إلى فؤاد سراج الدين وأبلغه بما حدث من جانبى وبموقفى الرافض لاقتراحه . . وكان من الطبيعى أن يغضب . . ويثور على تصرفى . . وأن يعتبر موقفى إهانة له وخصوصاً بعد ماوافق النحاس باشا على هذا الاستثناء . . وأيقنت أنه سيبذل كل جهده لمحاربتى فى الانتخابات . . **وهكذا اكتسبت عداوة فؤاد سراج الدين — سكرتير الوفد — حزب الأغلبية القادم إلى الحكم ، بعد أن خسرت أيضاً علاقتى مع محمد هاشم — الوزير المسئول عن إجراء الانتخابات — وتوقعت أن تكون حرباً ضارية لاهوادة فيها من كلا الطرفين . . فقد وقعت بين فكى الكماشة .**

كل التيارات تعمل ضدى :

وبدأت معركة انتخابية شرسة لأن الوفد اضطر إلى ترشيح شخص آخر بعدما مارفضت أن أدخل الانتخابات مستقلا ، وألقى فؤاد سراج الدين بكل ثقله فى المعركة بعد ماشعر أنها لاتسير فى صالح المرشح الوفدى ، وكان من الطبيعى أن يتعاون معه محمد هاشم ومما زاد الطين بلة أن دخل الانتخابات أيضاً مرشح آخر ضدى من الإخوان المسلمين . . وتصوروا موقفى : رجل واحد فى مواجهة حزب الأغلبية . . والوزارة الحاكمة أيضاً .

ولكن برغم جميع هذه الظروف الصعبة والتطورات المفاجئة فقد كان التيار العام للناخبين فى الدائرة يؤيدنى وكان واضحاً أن الناخبين يتجاوبون معى ويقفون إلى جانبى . . والظاهر أن الحكومة كانت تشعر بهذا الاتجاه الشعبى لأنه لم يكن يمر يوم أو إثنان إلا ويكون محمد هاشم فى مركز منيا القمح لكى يدير المعركة الانتخابية ، كذلك كان أعوان سراج الدين ينتشرون فى قرى الدائرة لمحاولة التأثير على الأهالى وإغرائهم بكل الوسائل . . وقد كنت متيقظاً لكل ذلك ولم أكن أنام الليل .

ولكن الخطأ الأكبر الذى وقعت فيه : أننى تصورت النزاهة والشرف فى المعركة وقد كان التصويت فى الماضى اختيارياً وبالتالى لم يكن هناك إجبار فى حضور الناخبين أو عدم حضورهم — وبذلك من الممكن أن يكون الناخب من المؤيدين ولكنه لا يحضر يوم الانتخاب ، وكانت قرى الدائرة وحواريها مقسمة على الخفراء يتولى كل واحد منهم إحضار الناخبين فى منطقته للادلاء بأصواتهم فى اللجنة باعتبار أنه يعرفهم واحداً واحداً . . وكانت صلاتى قوية وطيبة بجميع الخفراء ومشايخ البلد . . ولم أكن أدرى بما يدبر فى الخفاء ووضعت تقديراتى للمعركة على هذا الأساس .

ولكن وزارة الداخلية وضعت خطة ملتوية لإفساد الأصوات المؤيدة لى ، وكان مأمور المركز يريد إرضاء محمد هاشم وفهم أن ميوله ضدى ، وقبل الانتخابات بيومين قبض المأمور على جميع الخفراء الموجودين بالدائرة وجردهم من سلاحهم «الميرى» ووضع مشايخ الخفراء وبعض مشايخ البلد والعمد فى اصطبل الخيل بالمركز . . ولم تكتف وزارة الداخلية بما فعله المأمور وإنما سحبت قوات البوليس الموجودة فى المركز وأرسلت قوات أخرى من الصعيد كانت مكلفة بحفظ الأمن بين الفلاحين والأشراف — وكانت هناك صدامات دموية مستمرة بين الطرفين — ولم أصدق أذنى عندما سمعت الخبر وذهبت إلى المركز لكى أتأكد بنفسى ورأيت منظراً غريباً يضحكنى الآن — سخرية مما كان يحدث — ولكنه كان يحزننى وقتها : رأيتهم جميعاً — الخفراء والمشايخ — مقبوضاً عليهم حتى لا يقفوا موقفاً محايداً فى الانتخابات . . وقد فكرت فى أن أتقدم ببلاغ إلى النيابة ولكن الوقت كان ضيقاً وعندما تنتهى النيابة من تحقيقاتها تكون الانتخابات قد انتهت وقضى الأمر . .

واعتمدت على تأييد الجماهير وجاء يوم الانتخاب وتعاطف الناخبون معى وتوجه أغلبيتهم إلى اللجنة — بدون حاجة إلى تنبيه الخفراء كالمعتاد — ولكن الحكومة كانت قد شعرت بأن المعركة تسير لصالحى برغم كل هذه الإجراءات التعسفية ولم يعد فى يدها سوى الضغط بالقوة — الورقة الأخيرة التى تملكها السلطة — وأخذت قوات الأمن القادمة من الصعيد تضرب الأهالى وتمنع اقترابهم من مقر اللجان

وكانت النتيجة أن الأربعة آلاف صوت فى العزيزية لم يذهب منهم سوى عدد لايتناسب مع عدد الناخبين وهكذا لم يتمكن معظم الناخبين من الإدلاء بأصواتهم ، وحررت الكشوف بعد ذلك طبقاً لأهواء الحكومة . . ولن أنسى هذا المشهد خلال جولتى يوم الانتخاب وذهبت إلى إحدى القرى المجاورة والتقيت مع رجل مسن ذى لحية بيضاء وأخذنى بالأحضان وقبلنى وبكى وهو يقول : لاتؤاخذنى ياولدى . . إننى أقف هنا منذ الثامنة صباحاً لكى أدلى بصوتى ولكنهم لم يمكنونى من ذلك ، وهذا هو حال كل أبناء البلد . . وأشار الرجل إلى قوات البوليس التى تحاصر اللجنة الانتخابية وفى أيديهم المدافع الرشاشة . . وانتهى الأمر — آخر اليوم — كما أراد فؤاد سراج الدين ومحمد هاشم بأن سقطت فى الانتخابات . . وسقط أيضاً الشرف السياسى . .

لم يكن السقوط مؤلماً لى وحدى وإنما كان أشد إيلاماً لأهالى العزيزية ومشايخها وخفرائها . . فقد تعرضوا للقبض والضرب والإهانة — بلاذنب — وكانت الطريقة التى اتبعتها السلطة من أجل تزوير الانتخابات تثير السخط والغضب والواقع أننى لم أشعر بالأسى تجاه أحد بقدر ما أسفت على موقف المأمور — بالذات — فقد كان معاون إدارة فى القليوبية ووقفت إلى جانبه أثناء حكومة لسعديين وساعدته حتى أصبح مأمور المركز . . وكنت لا أنتظر منه رد الجميل ولكننى كنت أتوقع أن يقف على الحياد ويؤدى واجبه بأمانة وشرف .

ولكنه سقط فى الهاوية — وكان ضعيف النفس — عندما توجه محمد هاشم باشا بنفسه إلى المركز وتصور أنه سيقبض الثمن بعد الانتخابات مقابل خدماته الرخيصة.. وفى يوم كنت متوجهاً من الزقازيق إلى بلدتى وتصادف خلال مرورى على مركز منيا القمح أن لاحظت أن مجموعة من أبناء العزيزية يقفون على المزلقان بالقرب من المركز كانوا ثلاثة أو أربعة — وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء ، وكان وجودهم فى هذا المكان بالذات غير طبيعى ومثيرا للشك والقلق وأحسست أنهم يترصدون شيئاً معيناً . . وأوقفت سيارتى أمامهم فجأة وسألتهم : لماذا تقفون هنا ؟

وتلعثموا فى البداية ولكنهم اعترفوا وقالوا : أننا نريد أن نضرب المأمور انتقاماً لما حدث فى الانتخابات . . إذا كان يرضيك موقف المأمور فإنه لا يرضينا .

ووجدت نفسى أثور عليهم وأخذتهم معى فى السيارة . . وقلت لهم : ليس هذا هو الأسلوب فى التعبير عن الرفض أو الغضب . . إن الضرب ليس من طابعنا . . والجريمة لاتفيد أى صاحب حق . . وهذا التصرف يسىء إلى بالدرجة الأولى ، لأن موقف المأمور أصبح معروفاً منى . وسوف يوجه الاتهام لى أولا لو وقعت تلك الجريمة .

كنت أقول لهم هذا الكلام وفى رأسى حادث مصرع احمد ماهر وحادث مصرع النقراشى عندما تكلم الرصاص المجنون وأخرس صوت العقل . . وكنت على يقين من أن عدالة السماء كفيلة بالانتقام من الظالم . . ولم يكد يمضى أسبوع واحد حتى مات المأمور بفضيحة مدوية . . كان البوليس قد صادر كمية من المخدرات المهربة فى القطار أمام منيا القمح وبعد ضبط المخدرات استولى المأمور على كمية منها — لاستعماله الشخصى — وتم تحريز الكمية الباقية . . وكان يسكن فى بيت أمام نادى منيا القمح . . ويبدو أن الحشيش كان من النوع الجيد وفى تلك الليلة أكثر المأمور من تعاطى المخدرات وشرب الخمر ونزل من بيته . . ولم يحتمل قلبه تأثير المخدر ومفعوله مع الخمر وسقط فاقد النطق فى الطريق مابين البيت والنادى . . ومات قبل أن يحصل على الترقية الموعودة ، وانكشفت الحقيقة وكانت فضيحة فى المركز . المهم استقالت حكومة حسين سرى وجاءت حكومة مصطفى النحاس وبرلمان الوفد فى يناير ١٩٥٠ ولكن لم تنقطع صلتى بأهالى الدائرة لمجرد سقوطى فى الانتخابات . . بل على العكس أصبحت الصلة بينى وبينهم أقوى وأقوى لأننى اكتشفت فى هذه المحنة الشخصية مدى الإعزاز والمحبة التى يقدرونها لى . . وكنت عندما نجحت فى المرة السابقة قد مررت على بعض قرى الدائرة ، ولكننى فى هذه المرة — بعد سقوطى — تعمدت أن أطوف بكل بلدة وبكل قرية فى الدائرة حتى أعبر لهؤلاء الفلاحين البسطاء عن امتنانى لوقوفهم معى — بشهامة ورجولة — برغم إرهاب السلطة الحاكمة وضغوطها عليهم . . وكنت أريد أن أصافح كل واحد منهم ، وكان

استقبالهم أروع عزاء لى عن السقوط ، بل إنه من وجهة نظرى كان النجاح ذاته . قد أكون حقيقة سقطت فى برلمان الوفد ولكننى نجحت فى قلوب الناس .

ودخلت المجال الاقتصادى :

كان سقوطى فى الانتخابات هو صدمة ضخمة بالنسبة لى . فعلى مستوى الشخصى كان حماسى بالشباب ، وعلاقاتى الشخصية التى أقمتها فعلا فى الدائرة . . ومشاعر الناس التى يبدونها نحوى . . كل هذا كان يؤدى إلى إحساس ضخم فى داخلى بالثقة فى نفسى . إنها ثقة جعلتنى فى لحظة من اللحظات أتخيل أنه لاتوجد قوة تستطيع أن تسقطنى فى الانتخابات .

والآن سقطت من السماء السابعة ، وجعلنى الواقع أدرك أن مثل هذه القوة موجودة . . وأن السقوط نفسه ليس احتمالا بعيداً . . وإنما هو إمكانية واقعية مائة فى المائة . لقد كنت أتصور أن الجدية الشديدة التى أخذت بها عملى البرلمانى فى تجربتى الأولى سوف تحمينى من احتمال السقوط ، والآن اكتشفت أنه بجدية أو بغير جدية — على الإنسان أن يواجه الواقع كما هو . . لا كما يقرره المنطق .

وبدأت أفكر فيما حدث . وفى كل يوم أفكر وأفكر فى نفس الأشياء ، وشبح السقوط يسيطر على كل ما أفكر فيه . إن السؤال هو : ما العمل ؟

وقررت شيئاً واحداً هو الذى اقتنعت به تماماً : إننى سأعتزل السياسة ، إننى مازلت صغير السن ، وما ضاع من سنوات لم يكن هباء . . فلقد تعلمت جزءاً من خبرة كنت أريدها . . ولكن الآن أصبح الاستمرار فى هذا الميدان يحتاج إلى خبرات أخرى أفتقدها . خبرات من المناورة والمداورة والدخول فى صفقات سياسية لاأجد نفسى مستسيغاً لها .

وكان الميدان الآخر الذى وجدت نفسى مشدوداً إليه هو ميدان العمل **الاقتصادى.** فمنذ تخرجت من كلية الزراعة كنت أشعر دائماً أن هناك فرصة ضخمة لاستخدام

العلم الحديث ، وقواعد الاقتصاد فى إدارة العمل الزراعى ببلدنا . . وبأن التصنيع الزراعي يمكن أن يحقق لنا قفزات اقتصادية مدهشة .

وقد جاءت لى الفرصة لدخول الميدان الاقتصادى أولا عندما فكرت إحدى الشركات فى أن تقيم فى مصر صناعة سماد السوبر فوسفات . واتصل بى القائمون على أمر تلك الشركة لمعرفتهم السابقة باهتماماتى الزراعية . . وعرضوا على شراء أسهم فى رأسمال هذه الصناعة الجديدة .

ولم أفكر لحظة . لقد اشتريت فوراً عدداً من الأسهم ، وأقنعت عدداً من أفراد أسرتى وأقربائى بشراء عدد آخر من الأسهم . **وهكذا أصبحت عضواً فى مجلس إدارة شركة « أبوزعبل وكفر الزيات »** ممثلا لتلك الحصة من الأسهم . ومن عملى فى مجلس الإدارة بدأت اكتشف أننى مقبل بكل طاقتى على هذا العمل . . وأننى أحبه فعلا وازداد كل يوم حماساً له .

وبدأ عملى الجديد يلفت نظر عدد من الاقتصاديين وكان السبب فى ذلك بسيطاً . فلقد كان المعتاد وقتها أن عضوية المصريين فى مجالس الإدارات هى إسمية تماماً وشكلية للغاية . ذلك أن الشركات الأجنبية ملتزمة قانوناً بأن يضم مجلس إدارتها نسبة معينة من المصريين . وكانت الشركات الأجنبية تختار عددا من الباشوات والوجهاء أصحاب النفوذ ، وتعطيهم هى نسبة من الأسهم على حسابها . . لكى تنفذ القانون من ناحية ويعرف أنهم موجودون لنفوذهم وأسمهم من ناحية أخرى .

ولكن كانت حالتي هى واحدة من الحالات التى لاتسير على هذه القاعدة ، إن حصتى من الأسهم هى حصة مشتراة وليست ممنوحة لى من أحد . . ثم إن دراستى نفسها تسمح لى بأن أكون متخصصاً فى هذا العمل الذى تمارسه الشركة (وهو صناعة السماد) وبالتالى فلن يكون نصيبي من المناقشات مجرد ثرثرة عامة . . وإنما دراسة متخصصة ، وأخيراً فإننى لم أدخل مجلس الإدارة هنا من باب الوجاهة الاجتماعية . . وإنما من باب التعلق بعمل أريد أن أمارسه فعلا بجدية ، وليس بطريقة صورية تماماً استيفاء لشكل قانونى .

وهكذا بدأت تتردد عني سمعة لابأس بها فى الدوائر الاقتصادية . وهكذا أيضاً عرض على أن أدخل عضواً فى مجلس إدارة شركة المحلة للغزل والنسيج ، ثم عضواً فى مجلس إدارة بنك التسليف الزراعى ..ثم اشتركت فى تكوين شركة للاستثمارات.. وأخيراً عضواً بمجلس إدارة البنك الأهلى (الذى كانت له فى تلك الفترة اختصاصات البنك المركزى) . . وكان رئيس مجلس إدارته هو على الشمسى (باشا) .

ولقد ساعدنى فى تلك المرحلة أناس كثيرون ، كان على رأسهم الشمسى (باشا) الذى كان حريصاً على أن يشجع فى روح الشباب ، وينمى قدراتى ويواليني بملاحظاته التى استفدت منها إلى أكبر درجة . . مما ساعدنى كثيراً فى اكتساب خبرة اقتصادية كان لها أثر ضخم فى حياتى . ولقد كان على الشمسى من الشخصيات السياسية والاقتصادية التى أثرت بعمق فى حياتى لأنه كان متفتح التفكير وواسع الأفق وعميق العقلية فى شئون المال والاقتصاد . . وعندما اختارنى على الشمسى لكى أكون عضواً فى مجلس إدارة البنك ، فإننى أصبحت أصغر الأعضاء سناً . . بمثل ما كنت فى مجلس النواب أصغر الأعضاء سناً كذلك .

ولقد فتح النشاط الاقتصادى عيني على تجربة جديدة وخبرة جديدة ومجال جديد . . ولسنوات طويلة بعدها . . ظلت تصلنى بانتظام الخطابات الدورية للبنك المركزى . . وأصبحت ملماً بمعانى مصطلحات كانت تبدو لى طلاسم من قبل . . مثل ميزان المدفوعات والميزان التجارى والسيولة فى البنوك وسحب القروض وتنظيمها والفوائد ، والسحب على المكشوف . وهكذا كان نشاطى هذا فرصة كبرى بالنسبة لى للتدريب على العمل فى البنوك والشركات وعلى الإلمام عملياً بالأسس الاقتصادية الحديثة فى إدارة الأعمال .

ومن ناحية أخرى ، فقد كان دخولى فى الميدان الاقتصادى هو فرصة ضخمة لى لكى أرى الصورة الاقتصادية لمصر على حقيقتها . فحتى ذلك الوقت كان أكبر صرح اقتصادى مصرى هو بنك مصر الذى أنشأه طلعت حرب . . وكان نجاح البنك وشركاته هو حصيلة عشرات من المعارك والحروب التى دخلها طلعت حرب شخصياً دفاعاً عن فكرته . . وإيماناً بأن اقتصاد مصر يجب أن يكون للمصريين .

وفى تلك الفترة (من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٢) كانت فرصتى كبيرة لكى أرى الصورة الحقيقية من الداخل . ولقد كان أهم مالفت نظرى هو التناقض الكبير بين الفرص الاقتصادية الضخمة التى تملكها مصر من ناحية . . وبين عزوف المصريين عن استثمار هذه الفرص من ناحية أخرى . كان الوعى الاقتصادى محدوداً جداً ، وإقبال رأس المال المصرى قاصر فى معظمه — فيما عداً حالات قليلة رائدة — على ميادين الاستثمار التقليدية كبناء العقارات وشراء الأراضى . أما الا استثمار الاقتصادى بمعناه الحديث فكان بالنسبة لعدد كبير مخاطرة غير مأمونة العواقب . . وهكذا تمخض الأمر عن ترك هذا الميدان فى معظم الأحوال للأجانب ، الذين كان عددهم كبيراً فى مصر .

وبالطبع كان معنى سيطرة الأجانب على النشاط الاقتصادى هو أن أرباح هذا النشاط لاتبقى داخل مصر ، وإنما تحول أولا بأول إلى الخارج . وكان معناه أيضاً أن المفاتيح الحقيقية للقوة الاقتصادية المصرية ليست موجودة فى أيدى أبنائها ، بحيث أن طلعت حرب بدأ معركة كبرى وحقيقية فى الميدان الاقتصادى لاتقل فى عنفها وضراوتها وحيويتها عن المعركة السياسية لتحرير إرادة مصر سياسياً .

ولقد أدى نشاطى الاقتصادى فى تلك الفترة إلى تفرغى له بالكامل ، بحيث أنى أقمت مكتباً دائماً بالقاهرة ، وبدأت أجرى دراساتى الخاصة على الشركات التى أمارس فيها نشاطى . . وبدأ دخلى من هذا النشاط يقفز مرة بعد مرة بحيث أن حصيلة أتعابى عن عضوية الشركات التى أعمل بها وصل إلى إثنى عشر ألف جنيه ، بغير أن تدخل فى ذلك أرباح الأسهم التى امتلكها فى تلك الشركات .

وبدأت أحلم فعلا ، بل وأفكر جدياً ، فى الدعوة لإنشاء شركة مصرية لصناعة المعلبات الغذائية وشركة أخرى لصناعة الألبان ، ومصنع للمبيدات الحشرية . . نعم ، بدأت هذه الأحلام تراودنى . . لأننى بدأت أرى فعلا أن مصر تستطيع أن تحقق — بأموالها هى وخبراتها هى — نهضة كبرى . . كانت أسسها موجودة بالفعل . . ولم يكن ينقصها سوى إثارة الوعى العام بأهميتها وحيويتها وإعطاء قدر من التشجيع للمؤسسات المصرفية المصرية التى كان يمثلها فى الواقع بنك مصر

بمفرده . فالبنوك الأخرى كانت أجنبية أساساً وتعتمد فى سياستها على إقراض الأجانب . . بحيث أن بنك مصر كان هو المؤسسة الوحيدة تقريباً التى تقرض المصريين !

وهكذا أدى نشاطى الاقتصادى كما ذكرت من قبل إلى انقطاعى التام عن العمل السياسى ، وبدأت اهتماماتى السياسية تنخفض إلى الصفر ، وأصبح قرارى باعتزال الحياة السياسية أو البرلمانية نهائياً .

ولكن ، لأننا فى النهاية مصريون ، ولأن هذه بلدنا ، ولأن انتماءنا لبلدنا هو شىء لانتعمده ولانفتعله . . فإن الحياة السياسية كانت تفرض نفسها فرضاً على كل مصرى فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ مصر . وهكذا . . فإننى إذا كنت قد انصرفت مختاراً أو مضطراً عن الحياة السياسية كبرلمانى محترف . . فإننى لم أستطع تفادى حقيقة بسيطة وهى أننى كمواطن أصبحت جزءاً من القلق العام . . بل والغليان العام . . الذى جعل مصر كلها فى السنوات مابين ١٩٤٩ و ١٩٥٢ ، بلداً فى حالة مخاض .

الفصل التاسع

قنبلة الأسلحة الفاسدة

انفجرت فى الحياة السياسية المصرية قنابل مدوية عديدة فى الفترة مابين سنة ١٩٤٩ و ١٩٥١ ولكننى هنا سوف أختار قنبلتين بالذات لأنهما فى الواقع يلخصان حالة الغليان العام التى اجتاحت مصر فى تلك الفترة .

والقنبلتان متصلتان فى الواقع بموضوع واحد هو : هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين .

فمنذ قيام اسرائيل ، وتوقيع الهدنة الدائمة معها فى « رودس » . . وبرغم محاولات القصر الملكى امتصاص آثار الهزيمة فى تلك الحرب . . إلا أن الدرس أصبح واضحاً للجميع : أن الهزيمة فى فلسطين لم تكن عسكرية وإنما كانت بالدرجة الأولى هزيمة سياسية .

فالذين كانوا منتبهين فى جيلنا إلى كمية وحجم الفساد السياسى جعلتهم الهزيمة يتجاوزون مجرد « التسجيل » . . إلى التفكير فى الحلول . .

والذين لم يكونوا متنبهين بعد — بدأوا يتنبهون إلى أن الحروب هى فى الواقع مجرد مناسبات لكشف الفساد السياسى الداخلى . . قبل أن تكون أسباباً له . وبكلمات أخرى فإن الحروب الخارجية تكون اختباراً حاسماً لكفاءة النظام السياسى نفسه فى الداخل .

وبهذا المعنى . . فإن حرب فلسطين كشفت تماماً — لكل ذى عينين — عن فساد النظام السياسى فى داخل مصر . . بحيث أن الجميع بدأوا يتنبهون إلى أنه إذا كان لابد من إصلاح فيجب أن يبدأ من هنا من الداخل .

ولقد تفجرت القضية بأكملها فى مناسبات عديدة منذ توقيع الهدنة ، ولكن كان أعلاها صوتاً هى تلك التى حدثت فى ٢٩ مايوسنة ١٩٥٠ .

فى تلك الفترة كان فى الحكم وزارة من الوفديين برئاسة مصطفى النحاس (باشا) وبرغم التراث القديم من العداء بين الوفد والملك إلا أن هذا العداء بدأ يخف . . وكان هذا تناقضاً مثيراً فى حد ذاته لأنه فى تلك الفترة بالذات بدأ فساد الملك يتضاعف .

وفى ٢٩ مايو سنة ١٩٥٠ عقد مجلس الشيوخ جلسته العادية لكى يتضمن البند رقم ٢١ منها استجواباً مقدماً من العضو مصطفى مرعى (بك) إلى رئيس الحكومة .

لم يكن نص الاستجواب يوحى لأول وهلة بشىء مثير ولاغير عادى ولكنه تحول بعد لحظات إلى قنبلة سياسية ضخمة . قال مصطفى مرعى فى استجوابه : « حضرة صاحب المعالى رئيس مجلس الشيوخ . بعد التحية أتشرف بأن أنهى إليكم أنى أريد أن استجوب حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الحكومة فى تصرفات بدت من الحكومة كان لها أثرها فى استقالة الرئيس السابق لديوان المحاسبة » .

وكان القسم الأول من الاستجواب يتعلق بواقعة خطيرة اكتشفها ديوان المحاسبة وهى أن كريم ثابت أحد مستشارى الملك فاروق ، قد تقاضى خمسة آلاف جنيه من مستشفى المواساة مقابل « بروباجندا ودعاية ونشر خاص باليانصيب والإعلانات » . وكان هذا القسم من الاستجواب أحد دلائل كثيرة على فساد البطانة المحيطة بالملك فاروق .

أما القسم الثانى من الاستجواب فهو الأكثر خطورة ، لأنه أولا يدل على فساد فاروق نفسه، ويتعلق بمسألة أكبر وأخطر، هى الأسلحة الفاسدة التى تسببت فى هزيمة الجيش المصرى بفلسطين .

قال مصطفى مرعى عضو مجلس الشيوخ : « لعلكم تذكرون ياحضرات الشيوخ أنه حين عقدنا العزم على أن نوجه جيشنا إلى فلسطين . قرر مجلس الوزراء القائم حينذاك أنه يلزم أن يرخص لوزارة الحربية فى أن تتحلل من جميع القيود المالية . وعلى ذلك أصدر مجلس الوزراء قراراً فى ١٣ مايو سنة ١٩٤٨ قضى بهذا الترخيص

لوزارة الحربية . وبذلك أصبح مقرراً من هذا التاريخ أن وجوه الإنفاق التى تنفقها وزارة الحربية لاتلتزم فيها بالقيود المالية العادية ، وفى اليوم نفسه ، أى فى ١٣ مايو سنة ١٩٤٨ ، أصدر وزير الحربية قراراً شكل فيه لجنة أسماها لجنة احتياجات القوات المسلحة خولها سلطة إبرام الصفقات التى تلزم لسد حاجة الجيش من المؤن والذخيرة»

« أصبحت هذه اللجنة ، ياحضرات الشيوخ المحترمين ، صاحبة السلطة المطلقة فى أن تشترى أو تستولى لحساب الجيش على ماتشاء ، لايقيدها إلا قيد الضمائر ، وقيد آخر كان قد احتاط له مجلس الوزراء فى مايو سنة ١٩٤٨ وهو أن تكون كل صفقة بمستنداتها ، وعلى هذا جرى العمل » .

« ياحضرات الشيوخ المحترمين — ستسمعون منى المزعج المؤلم — ولكن أرجو أن تقدروا أنه ليس عيباً أن نخطىء ، فالخطأ جائز ، ومن لايخطىء لايعمل ولكن العيب كل العيب فى ألا نعتبر بأخطائنا وأن نتغاضى عنها وهى قائمة » . .

« كان هناك موردون يوردون للجيش الذخيرة والمؤن ، ومنهم موردون ماسمعنا عليهم من سوء ، ولكن هناك أيضاً موردين كانوا على غير هذا . كانوا بحيث اعتقد رجالنا فى جبهة القتال أن هناك من هو متآمر عليهم لكيلا ترسل لهم ذخيرة للقتال » .

« ياحضرات الشيوخ — سأسوق لكم أمثلة ، لأن ماعندى كثير ، وماعند رئيس الديوان (ديوان المحاسبة) أكثر ، وما عند الله أكثر وأكثر وأعظم وأضخم . . مورد مصرى إسمه رودى رجيلة كان فى خدمة بنك من البنوك وصدر ضده حكم من محكمة الجنايات » .

« اتفق هذا الشخص مع اللجنة التى سميناها لجنة (احتياجات القوات المسلحة) على أن يورد خمسين ألف طلقة مضادة للدبابات مشروط فيها أن تكون مطابقة تماماً للنوع الأمريكى وبنفس المواصفات للمواد المكونة لها والخواص والمفعول ، واتفق أن تدفع الدولة ثمناً لكل طلقة من هذه الطلقات تسعة آلاف ليرة إيطالية ، فبلغ مجموع هذه الصفقة ٤٥٠ مليوناً من الليرات الإيطالية .

« كان هذا فى فبراير سنة ١٩٤٩ . وفى مارس سنة ١٩٤٩ أوفدت الوزارة مفتشاً

للذخيرة والمفرقعات مع إثنين من المدنيين لفحص الطلقات موضوع العقد واختبارها ومراقبة صنعها . فإذا بهذا المفتش ورفيقيه يقولون فى تقرير رسمى إن مايصنع جديداً بإيطاليا هو الدانات والبارود الأسود فقط ، أما باقى الأجزاء والعبوات كالطابة والمحول والمــادة المحطمة للدانة والمادة القاذفة والظرف النحـــاس فستخرج من ذخائر مخلفات الجيوش الأمريكية غير الصالحة للاستعمال ، ويجرى التفتيش عليها لتحليلها بواسطة الضابط مفتش المفرقعات المنتدب لهذه المأمورية ، وبالنسبة لأن عملية التفتيش . والتحليل وحدها غير كافية للحكم على صلاحية تلك المواد ، بل يجب إجراء اختبار بالضرب الفعلى للتأكد من باقى الشروط كاتزان الدانة أثناء الضرب وضبط المرمى والاتجاه وقوة التحطيم والانفجار ، وهو أمر غير ممكن إجراؤه بإيطاليا فى تلك الشركة (شركة مخلفات الجيوش) . فلذلك اتفقت على أن ترسل الذخيرة لمصر ، ولايتقرر من مفتش المفرقعات صلاحيتها للاستعمال إلا بعد إجراء اختبار لكل رسالة بالضرب الفعلى ومعرفة النتيجة فإذا ما كانت صالحة يصرف ثمنها بعد أخذ إقرار مفتش المفرقعات بذلك .

« وفى ٨ مايو سنة ١٩٤٩ ، وردت إلى مصر ٥٠٠ طلقة شديدة الانفجار اتضح باختبارها بالضرب الفعلى أنها غير صالحة لرداءة العبوة القاذفة والشعلات بدليل عدم حصول احتراق كامل ، مما تسبب فى تخلف بقايا منها بماسورة المدفع كما أن الدانة لم تصل إلا إلى منتصف مسافة الغرض .

« تتابع الإرسال حتى صار مجموع ما أرسل أكثر من ١٦ ألف قذيفة . وإنى لأعجب غاية العجب لأنى لم أجد أحداً يذكر ماجاء فى التقرير من أن هذه الذخيرة غير صالحة للاستعمال ، بل سكتوا رغم توالى الارسال ، فصار مجموع ما أرسل نحو ٢٣ ألف قذيفة .

واستمر مصطفى مرعى فى استجوابه .. كاشفا أن المسألة لم تقف عند هذا الحد .. ولكن نفس المورد قام برغم هذا كله ، وبعد هذا كله ، بتوريد خمسين ألف طلقة للسلاح البحرى الملكى تبين أنها جميعا فاسدة .. ومصابة بالصدأ .. وأنها « كهنة » .

واسترسل مصطفى مرعى فى استجوابه .. مبينا الواقعة بعد الواقعة .. إلى أن قال « إننى أرى فاجعة تتجمع فى الأفق ، وأرى أن القالة قد انتشرت فى الداخل والخارج إن الحكم قد فسد ، وأن تجارة النفوذ قد راجت ، وهذه أعراض هذا الفساد ونراها فى ناحية هى أخطر النواحى » .

كانت تلك إذن هى القنبلة التى فجرها مصطفى مرعى عضو مجلس الشيوخ .

وما هى إلا أيام قليلة ، وتلقف منه الكاتب الصحفى إحسان عبد القدوس الكرة . وحول الموضوع إلى حملة صحفية كبرى ومدوية .

حملة صحفية كبيرة :

قال إحسان عبد القدوس : « كان استجواب الأستاذ مصطفى مرعى (بك) عن أسباب استقالة رئيس ديوان المحاسبة السابق – شهادة مجد وفخار لضباط وجنود الجيش المصرى . فقد أثبت المستجوب أن هؤلاء الضباط والجنود لم تهزمهم جرأة العدو وحنكته ، إنما هزمتهم جرأة موردى السلاح والذخيرة الذين تعاملت معهم وزارة الدفاع الوطنى .

وبدأ إحسان – من جانب آخر يثير أسئلة ووقائع جديدة ، فكتب :

« من هو الضابط الذى يملك قصراً فى جزيرة كابرى ؟

الصحف المصرية تدافع عن المليونير المتهم ..

النبيل عباس حليم كان يستورد سلاحا ..

القنابل اليدوية التى تنفجر بمجرد اللمس ..

٢٨ ضابطا يتقدمون للإدلاء بمعلوماتهم .. »

وقد انتشرت الحملة الصحفية التى قام بها إحسان عبد القدوس كالنار فى الهشيم .. وأذاع إحسان تفاصيل جديدة وأدلة لا تقبل الشك .

ولقد لعب كثير من الوطنيين أدواراً معلنة وصامتة فى كشف قضية الأسلحة الفاسدة ، وكان من هؤلاء مثلا الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ وزعيم الأحرار الدستوريين ، الذى تحمل بشجاعة كل المسئولية عندما أدرج

الاستجواب المقدم من مصطفى مرعى ، وأتاح له الفرصة كاملة لكى يعرض وقائعه الدامغة .. وهو الأمر الذى جعل فؤاد سراج الدين — وزير الداخلية فى حكومة الوفد — يطلق تهديده المشهور ضمن رده على الاستجواب باسم الحكومة قائلا : إننى أشعر أن كرسى رياسة هذا المجلس يهتز اهتزازا عنيفا .

ولقد تحقق التهديد بالفعل وخرج الدكتور هيكل ، عقابا له على موقفه مع مصطفى مرعى :

ورغم أن الحملة الصحفية التى قادها إحسان عبد القدوس احتفظت بالقضية ساخنة لفترة محدودة .. إلا أنها أرغمت وزير الحربية — مصطفى نصرت — على أن يطلب من النائب العام محمد عزمى التحقيق فى الحملة .. والوقائع ..

وهنا بدأت فضائح نظام الحكم تتكشف يوما بعد يوم ، وبدأت من أخطر جوانبها وهى قضية الأسلحة الفاسدة التى حارب بها الجيش المصرى فى حرب فلسطين .. ولكن من ناحية أخرى .

فساد ..فساد .. فساد :

وشيئا .. فشيئا كان الفساد السياسى يتراكم .. وكان الصراع بين الأحزاب يتصاعد ، وكان الملك فاروق يزيد من إحكام قبضته على الحياة السياسية والدستور والديمقراطية .. وكان تدخل السراى فى السياسة عاملا أساسيا فى هذا الفساد وفى إثارة تلك التيارات الرهيبة بين السياسيين وزعماء الأحزاب .. والشىء الخطير أن رجال الحاشية الفاسدة هم الذين كانوا يوجهون دفة الحكم .. يشكلون الوزارات يحركون من وراء الستار .. يبيعون الألقاب ويتاجرون فى البكوية والباشوية .. وهكذا أصبحت مقادير مصر فى أيدى أنطون بوللى ومحمد حسن وغيرهم من خدم السراى .. وكان الملك فاروق بدوره يقامر بالسياسيين كما يقامر كل ليلة فى نادى السيارات .. وفى الحلمية بالاس .. وكانت لعبته المفضلة ضرب الأحزاب ببعضها حتى يظل فوقها — جميعا — يتحكم فى المصائر والوزارات .. وحتى يتسابق الجميع إلى عتبة « مولانا » فى طلب الرضاء والقبول .

وكان هذا المصير الذى انتهى إليه الملك فاروق مخيبا لآمالنا جميعا .. كنت واحدا من الشباب الذين تفاءلوا بهذا الشاب الذى تولى عرش مصر بعد أبيه الملك فؤاد .. وكنت أرى فيه المستقبل الجديد خصوصا وأنه بدأ يتصرف بأسلوب شعبى فى أعقاب توليه الحكم ولم يظهر بالصورة التقليدية للملوك .. ولذلك كنت أضع له فى رأسى – مثل غيرى – صورة مليئة بالأمل والرجاء .

وما زلت أذكر ذلك اليوم عندما ذهب فاروق لزيارة المحلة الكبرى وكان خط سير الموكب الملكى يمر على بنها .. وخرجت مع الجموع التى احتشدت على طول الطريق بقلوبها ومشاعرها .. وبالرغم من أنه لم يكن مفروضا أن يتوقف الموكب فى بنها إلا أنه أمام هذه الحشود والاستقبال الحافل اضطر الموكب إلى الوقوف ، ونزل الملك الشاب – وكان وسيما وقتها – من السيارة الحمراء لكى يرد تحية الجماهير ، وامتدت يده تصافح الأيدى المتزاحمة من حوله – فى تواضع وبساطة – التصقت هذه الصورة فى ذهنى .. ولا أنسى أيضا عندما أصيب فاروق فى حادث القصاصين ونقل بين الحياة والموت إلى المستشفى هناك وزحف الناس من أرجاء مصر إلى هذه البلدة الصغيرة فى الشرقية لكى يطمئنوا على ملكهم ، كانوا يتصرفون بمشاعرهم وولائهم وتحولت القصاصين إلى « قاهرة » أخرى حتى نجا فاروق واجتاز مرحلة الخطر .

ولكن بعدها بدأت تصرفات هذا الملك تلطخ الصورة وأخذت مشاعر الكراهية وخيبة الأمل تحل محل الإعجاب والحب .. واصطدم فاروق مع الوفد – حزب الأغلبية – وأثر ذلك على شعبيته إلى حد كبير .. ولو أن الوفد رضخ فى وزارته الأخيرة للسراى وأخذ مصطفى النحاس « باشا » يتقرب إلى الملك ووصل الأمر إلى المهادنة أو أكثر من ذلك مع السراى وتفاقمت كراهية الشعب للملك بسبب فضائحه الشخصية أيضا .

هكذا شاهدت الملك :

ولم أكن أتصور – بعد سنوات – أن يدبر القدر هذا اللقاء مع الملك فاروق ، وأن أشهد الصورة الكريهة التى تردى إليها وأرى بعينى رأسى : كيف تحول

الملك الشاب الوسيم إلى صورة أخرى تخالف تماما الصورة التى كانت قد رسخت فى أذهاننا .

كنت عضواً فى أندية القاهرة بحكم أننى عضو فى مجلس النواب وفى إحدى الليالى ذهبت للعشاء فى نادى السيارات وسط القاهرة .

ولاحظت أن الجو غير عادى وأخبرونى أن الملك يلعب الورق مع أصدقائه فى القاعة الخاصة المغلقة ، وبدافع من فضولى حاولت الدخول ولكن رجال الحاشية منعونى .. وكنت أعرف واحدا من شلة الملك الذين يلعبون معه القمار وطلبت منه أن أشاهد اللعب .. وقال لى : لابد من الحصول على إذن من « مولانا » علما بأننى لا أعرف حتى اليوم كيف يلعب القمار بل هو مجرد حب استطلاع .

ودخل القاعة ثم عاد بعد لحظات وصحبنى بعد أن استأذن الملك ودلفت من الباب إلى عالم غريب معبق بدخان السجائر ، ووجدت نفسى أمام فاروق وجهاً لوجه .. وانهارت الصورة القديمة التى انطبعت فى ذاكرتى عنه عند مروره من بنها .. ورأيت مقامرا يجلس على المائدة الخضراء وقد خلع جاكتته وفتح قميصه وظهر صدره عاريا — كما لو كان من رؤساء عصابات شيكاغو — ومن حوله التفت مجموعة من المقامرين والمنافقين الذين يخسرون له فى اللعب لكى يكتسبوا رضاه .. وبين الحين والآخر يفتح فمه ويطلق أى كلمة ثم يقهقه بصوت منفر ويستلقى الحاضرون من الضحك على لا شئ .. وقد ساءنى أن وجدت بينهم أحد كبار الزراعيين فى مصر وكنت أعتز به كثيرا . . ولم أستطع أن أتحمل هذا المشهد الكريه أكثر من ذلك ولم أمكث فى الغرفة أكثر من دقيقتين وانسحبت بسرعة من المكان .

شعرت بأننى أكاد أختنق فى تلك الليلة — خصوصا وأننى لا أطيق لعب القمار بطبعى — وأحسست بمزيج من الأسى والأسف على صورة فاروق التى انهارت أمامى .. وخرجت من نادى السيارات ، وكنت أتساءل فى حيرة : أهذا هو الملك الذى يحكم مصر ؟ .. أهؤلاء هم الكبار والصفوة الذين يحيطون به ويؤثرون عليه ؟

وفى نفس الليلة اكتملت الصورة القبيحة للملك المقامر .. وكان الضحية هذا الزراعى الكبير – واسمحوا لى ألا أذكر اسمه – فقد ظل الرجل يلعب مع فاروق حتى الفجر وخسر ليلتها ٥٠٠٠ جنيه ، ولم يكن المبلغ موجودا فى جيبه ولكن فاروق لم يعذره وصمم على أن يدفع له الخمسة آلاف فورا .. وارتبك الرجل وأهانه الملك أمام الحاضرين وسخر منه .. ولم يتحمل الرجل الموقف المهين على كرامته وأصيب بالشلل فى وجهه ساعتها .. وتأثرت من ذلك الحادث للغاية وازدادت كراهيتى واحتقارى للملك .

وتوالت بعد ذلك الفضائح المخزية لفاروق فى كابرى وفى دوفيل ، وكانت تصلنا تفاصيل مغامراته خارج الحدود التى تسئ إلى مصر وتشوه صورتها .

وهكذا فقدت الأمل فى أن يجئ أى إصلاح من ناحية الملك فاروق كما فقدت كل أمل فى الأحزاب أيضا .

لقد كان كل شئ مؤهلا لثورة .

فلقد كانت الظروف كلها .. والمقدمات كلها .. تتداعى فى إيقاع سريع نحو الانهيار الشامل للملكية فى مصر .

البطانة الفاسدة :

وقد تحالفت صراعات السياسيين وتراكمات الفساد وفضائح الحاشية – من محمد حسن إلى بوللى الكهربائى إلى بترو الحلاق – لكى تصنع نهاية الملك .

لقد استأثرت هذه البطانة بصداقة فاروق وسيطرت على مزاجه واكتسبت ثقته المطلقة إلى درجة أن كبار رجال القصر القدامى كانوا لا يرون فاروق إلا نادرا ومن خلال هؤلاء الخدم – واستطاعت الحاشية أن تقيم حاجزا عازلا لكى تحكم سيطرتها على القصر ، وأبعدت الناصحين من أمثال على ماهر وبهى الدين بركات ولذلك شعرت بالضيق عندما قبل إبراهيم عبد الهادى – السياسى السعدى – منصب رئيس الديوان الملكى ودخل بذلك فى دائرة نفوذ هذه الحاشية المتسلطة وقد عارض كثير من السعديين ذلك وقالوا لإبراهيم عبدالهادى إن هذا المنصب يسىء إليه ويضعف

موقف الحزب أمام الوفد.. ولكنه لم يقتنع معتقداً أن اقترابه من الملك بحكم منصبه سيكون مفيدا. فى أن يلعب دورا فى خدمة بلاده والحقيقة أن شخصية إبراهيم عبد الهادى القوية وتاريخه السياسى كانا يؤهلانه فعلا لأن يلعب هذا الدور. وخاض إبراهيم عبد الهادى التجربة القاسية.

وعندما خرج من الديوان الملكى كان يروى الكثير من الصغائر التى تفضح خبايا ما يدور وراء أسوار القصر.

ولم يكن كريم ثابت – وحده – من المستشارين الذين يحكمون داخل القصر، وإنما كان – أيضا – إلياس أندراوس الذى عرفه فاروق على مائدة قمار وأصبحت له قيمة سياسية أخرى ترجع إلى صلته الوثيقة بالإنجليز – فهو بذلك يمكن أن يكون أحد عملائهم فى البلاط الملكى ويمكن أن يكون مندوب الملك عند الإنجليز – وهكذا عينه فاروق مستشارا اقتصاديا له.. وفتحت الشركات أبوابها لرجال الحاشية والمستشارين وعلى رأسهم كريم ثابت والياس أندراوس كطريقة وحيدة لحل مشاكلها وتحقيق مصالحها.. وعلى سبيل المثال وصل التسابق إلى حد تعيين الياس أندراوس فى ثلاث شركات خلال يوم واحد وتعيين كريم ثابت فى شركتين فى نفس الأسبوع.. وكان كريم مستشارا للإذاعة بالإضافة إلى تعيينه عضوا فى مجلس إدارة شركة قناة السويس مندوبا عن الحكومة المصرية..

وبالإضافة إلى هؤلاء المستشارين كانت هناك قائمة من الأصدقاء للملك الذين اختارهم من خدم القصر وأصبحت لهم اليد العليا فى كل الأمور.. ومنهم «حلمى حسين» الذى كان «صولا» يقود سيارة فاروق وانجذب إليه بحكم نشأته بين الخدم والحاشية وأصبح هذا الخادم من المقربين الذين يستمع لمشورتهم.. وكان الملك فى إحدى المرات فى نادى الضباط – وكان عزيز المصرى يشغل منصب رئيس هيئة الأركان وقتها – وخرج عزيز المصرى يمر على قاعات النادى فوجد سائق الملك جالسا وقد التف حوله بعض الضباط وكبار الموظفين يضاحكونه ويتقربون إليه بطريقة غير لائقة.. وثار عزيز المصرى ونهر السائق وأمره بالخروج والبقاء بجوار السيارة.. وروى حلمى حسين للملك ما حدث..

فأمره بأن يضع على كتفه نجمتين .. وأصبح ملازما أول .. وتتابعت عليه الترقيات حتى وصل إلى رتبة « الأميرالاى » ـ متساويا مع ضباط الجيش القدامى ـ ثم أرسله فاروق فى بعثات إلى أوروبا لشراء صفقات الأسلحة ..وكان وسيطا للحصول على عمولة « الملك » فى هذه الصفقات ..

وكان هناك أيضا « أدمون جهلان » ـ أحد رجال الحاشية ـ الذى كان له دور خفى آخر فى صفقات الأسلحة ، وقد ثبت من تحقيقات قضية الجيش والأسلحة الفاسدة أن الملك فاروق حصل على سمسرة قدرها مائة ألف جنيه فى صفقة أسلحة بثلاثة ملايين جنيه من شركة أجنبية لبيع السلاح ـ وباعتراف أدمون جهلان ـ فقد أخذ مبلغ السمسرة وحوله فى إبريل سنة ١٩٤٩ لحساب فاروق فى أحد بنوك أوروبا وغيرها وغيرها من العمليات القذرة التى قام بها جهلان .

ومن هنا تتكشف أبعاد الصلة الوثيقة التى كانت تربط بين الملك وهذه الحاشية.. ويتضح مدى الفساد الذى استشرى فى القصر وأصبح عنوان الحكم فى تلك الفترة.. وكان من الطبيعى أن ينحدر فاروق إلى النهاية نتيجة لتسابق الحاشية على إرضاء رغباته وشهواته ـ بالإضافة إلى استعداده الشخصى للفساد ـ وأصبحت هناك تسعيرة للباشوية والبكوية يقبضها الملك عن طريق الحاشية ، ثم تطورت الأمور وأصبحت التسعيرة لإسقاط الوزارات أيضا ـ مثل المليون جنيه التى عرضها عبود لإسقاط وزارة نجيب الهلالى ـ .. وأخذ فاروق يدخل عمليات مضاربة فى السوق المالية تحت أسماء مستعارة ومن خلال وسطاء من الحاشية أمثال « كفاتس » مدرب الكلاب الملكية ..

العريضة الوطنية :

ووسط هذا التردى السريع للحاشية والقصر .. ومن بين طبقات الفساد المتراكم على الحكم .. برز حدث سياسى على جانب كبير من الأهمية ـ فى رأيى ـ عندما قدمت المعارضة مذكرتها الشهيرة إلى الملك فاروق فى ١٨ أكتوبر ١٩٥٠ بعد مجئ حكومة الوفد .. وكانت المذكرة بمثابة صيحة التحذير من المصير الذى

ينتظر عرش فاروق ، بل أنها كما لو كانت نبوءة بما وقع بعد ذلك ، والواقع أن محتويات المذكرة جاءت ترجمة حقيقية لضمير الشعب وتعبيرا صادقا عن معاناته وثورته المكبوتة .. وقد وقعها أربعة من رؤساء الأحزاب وإثنا عشر سياسيا من المستقلين والحزبيين وهم :

« إبراهيم عبد الهادى — الدكتور محمد حسين هيكل — مكرم عبيد — حافظ رمضان — عبد السلام الشاذلى — طه السباعى — مصطفى مرعى — عبد الرحمن الرافعى — إبراهيم دسوقى أباظة — أحمد عبد الغفار — على عبد الرازق — رشوان محفوظ — حامد محمود — نجيب اسكندر — زكى ميخائيل بشارة — السيد سليم » ..

وهناك فقرة محددة بالذات أنقلها من المذكرة تعبيرا عن الحال الذى وصلت إليه مصر فى ذلك الوقت .. وتقول بالحرف الواحد :

« .. واليوم تجتاز البلاد مرحلة قد تكون من أدق مراحل تاريخها الحديث .. ومن أسف أنها كلما اتجهت إلى العرش فى محنتها حيل بينه وبينها .. لا لسبب إلا لأن الأقدار قد أفسحت مكانا فى الحاشية الملكية لأشخاص لا يستحقون هذا الشرف فأساءوا النصح وأساءوا التصرف ، بل إن منهم من حامت حول تصرفاتهم ظلال كثيفة من الشكوك والشبهات هى الآن مدار التحقيق الجنائى الخاص بأسلحة جيشنا الباسل .. حتى ساد الاعتقاد بين الناس أن يد العدالة ستقصر حتى عن تناولهم بحكم مراكزهم .. كما ساد الاعتقاد من قبل أن الحكم لم يعد للدستور وأن النظام النيابى قد أضحى حبرا على ورق .. منذ أن عصفت العواصف بمجلس الشيوخ فصدرت مراسيم يونيو سنة ١٩٥٠ التى قضت على حرية الرأى فيه وزيفت تكوين مجلسنا الأعلى كما زيفت الانتخابات الأخيرة من قبل تكوين مجلس نوابنا ..»

ثم تمضى المذكرة الشجاعة وتقول للملك فى كلمات محددة تحمل نذر الغضب والسخط الكامن فى الأعماق :

« إن احتمال الشعب مهما طال فهو لابد منته إلى حد .. وإننا نخشى أن تقوم

فى البلاد فتنة لا تصيبن الذين ظلموا وحدهم ، بل تتعرض فيها البلاد إلى إفلاس مالى وسياسى وخلقى .. » .

وحمل العريضة إلى القصر الملكى ثلاثة من السياسيين : عبد السلام الشاذلى ومصطفى مرعى وطه السباعى .. وكانت خطوة جريئة منهم ومن زملائهم وكانت علامة صريحة على أن الفساد قد زكم الأنوف . . وأكثر من ذلك كانت اتهاما مباشرا للحاشية التى تسيطر على الحكم وتمارس الرشوة وتتقاضى السمسرة ..

الوفد يتراجع عن مبادئه :

والشيء الغريب هو موقف الوفد من هذه العريضة الوطنية .. كان واضحا بعد مجيء النحاس إلى الحكم ـ هذه المرة ـ أن الوفد قد استسلم مرحليا للملك فاروق.. وإنه يتبع التكتيك الذى وضعه فؤاد سراج الدين بمهادنة الملك حتى يبقى فى الحكم لفترة طويلة وكانت وجهة نظره : ماذا أخذه الوفد من الصراع المستمر مع القصر ؟ .. وماذا كسب من بقائه سنوات طويلة بعيدا عن الحكم ؟ .. ولذلك لابد من التنازل عن شعار سعد زغلول « الأمة مصدر السلطات » حتى يتجنب الوفد الإقالة والطرد .. لقد جاء النحاس إلى الحكم فى أوائل سنة ١٩٥٠ بأغلبية ساحقة لم يكن يتوقعها الوفديون أنفسهم .. بل إن الكثيرين من الذين كانوا يكرهون الوفد رحبوا بعودته ـــ لا حبا فيه ولكن كراهية للملك ـ وكان هذا هو شعور الجميع . بل كان شعور فاروق نفسه ولذلك لما جاءت النتائج بهذا التفوق الكاسح للوفد انزعج الملك واستدعى حسين سرى فى الليل وقال له : إنك مسئول عن فوز الوفد بهذه الصورة .. وأنا متأكد أنه سيعود للاصطدام معى .. ولذلك أرى أن تكون رئيس الديوان لتتفاهم مع النحاس ..

ولكن الوفد انكشف بسرعة منذ الأيام الأولى وخابت الآمال التى كانت معلقة عليه فى التصدى للقصر وإيقاف الحاشية عند حدها .. ولكن لماذا تراجع الوفد عن مبادئه وتخلى عن مواجهة الملك .. ؟

الواقع أنه تسربت إلى قيادة الوفد عناصر غريبة عنه من كبار الملاك والرأسماليين واعتمدوا على أموالهم وثرواتهم فى الوصول إلى هذا الموقع .. بينما بقى الذين يكونون كيان الوفد الحقيقى من المحامين ورؤساء اللجان والمهنيين بعيدا عن مراكز السلطة والتوجيه ، كما أصبحت قيادة الوفد الجديدة حريصة على استقرار الأوضاع التى كانت تحاربها من قبل ، وأصبحت المهادنة مع الملك والمساومة على أمور الوطنية وإرضاء طلبات القصر هى الأسلوب الجديد ، لحكومة الوفد .

ولكن لم يكن أحد يتصور أن يكون رد فعل الوفد بالنسبة للعريضة الوطنية على هذه الصورة .. فقد سارع مصطفى النحاس وأعلن فى بيان للحكومة بتاريخ ٢١ أكتوبر أن الحكومة لن تسكت بعد اليوم على هذا الإجرام السافر فى حق البلاد .. وكانت الحجج التى ساقها رئيس الوفد صدمة للجميع عندما قال : « إن الموقعين على العريضة اختاروا لرفعها اليوم السابق لعودة جلالة الملك المعظم من رحلته .. وفوق ذلك فقد قدمت العريضة على ورق وبخط غير لائقين بما يرفع إلى أسمى مقام فى البلاد .. »

لقد كان السبب الرئيسى فى تفشى الفساد والرشوة هو فاروق نفسه ..

فلقد كانت الأصابع كلها تشير إلى فاروق فى قضية الأسلحة الفاسدة .. وقد انتهى الأمر إلى رأى النائب العام بضرورة عزل الفريق محمد حيدر — القائد العام — باعتباره مسئولا عن هذه الصفقات من الأسلحة الفاسدة .. ورفض الملك .. وتخاذلت الحكومة .. ولكن تحت ضغط الفضيحة خرج حيدر .. وقدم بعض المتهمين إلى المحاكمة .. واضطر النائب العام إلى حفظ التحقيق بالنسبة للمتهمين الملاصقين لفاروق والذين كانوا يعملون ويعقدون الصفقات لحسابه مثل بوللى وجهلان وحلمى حسين .. ولكن الملك عاد بعد فترة يتحدى الرأى العام ويحاول إزالة آثار الفضيحة .. وأعاد حيدر وعثمان المهدى إلى القيادة ..

فاروق يغتصب أراضى الأوقاف :

ولم تكن قضية الأسلحة الفاسدة وحدها دليل جشع فاروق ونموذج فساد الحاشية وإنما كانت هناك قضايا أخرى مثل أراضى الأوقاف المغتصبة . .

لقد ترك الملك فؤاد – بعد وفاته – تركة من الأراضى الزراعية تبلغ ٤٩,٣٠٠ فدان وكان نصيب إبنه فاروق منها ١٥٤٠٠ فدان ، وتنازل عن حوالى ٢٠٠٠فدان منها للملكة السابقة فريدة وبقى له سنة ١٩٣٧ مساحة ١٣٤٠٠ فدان . . واستدار فاروق إلى أرض الأوقاف يستولى عليها مساحة بعد الأخرى ويضع يده بالاغتصاب على آلاف الأفدنة حتى وصلت أملاك الخاصة الملكية بعد خمسة عشر عاماً إلى ٩٦,٠٠٠ فدان . بالإضافة إلى ١٠٠ ألف فدان من الأوقاف التى كانت تديرها الخاصة الملكية ويستولى فاروق على إيراداتها وفى سبيل الاستيلاء على أراضى الأوقاف كان الملك لايتورع عن الإطاحة بأى وزير أو حكومة تمنعه من ذلك . . ويكفى سرد قصة وقف اسماعيل باشا – وتقدر قيمته بخمسة ملايين جنيه من أراضى وعمارات ، لكى تكون دليلا على فساد الملك :

فى سنة ١٩٤٨ اتصل نجيب سالم ناظر الخاصة الملكية بوزير الأوقاف الشيخ « على عبد الرازق » – وقتها – وأبلغه أن نطقاً ملكياً سامياً صدر بضم وقف اسماعيل إلى الأوقاف التى تديرها الخاصة الملكية . . وفوجىء على عبد الرازق بذلك وطلب كتاباً رسمياً بالنطق الملكى للرد عليه . . وكان الرد بالرفض لأن هذا الوقف يشكل جانباً من ميزانية الوزارة . . ولم يعجب الرد فاروق . . وحدثت الأزمة واستدعى النقراشى وقال له : وزير الأوقاف بتاعكم مش عارف يتعاون مع ناظر الخاصة . .

وفهم الشيخ على عبد الرازق مغزى النطق الملكى – بعد أن أبلغه النقراشى بماحدث ولم يكن أمامه سوى طريق واحد وكتب استقالته وخرج من الوزارة . .

وبطريقة أخرى اغتصب فاروق وقف شاوه – ومساحته عشرة آلاف فدان – ووضع يده على وقف قوله الذى تبلغ مساحته ٢٣ ألف فدان .

واستولى على أوقاف الوادى والمنتزه – بنفس الأسلوب – أما وقف حفيظة الألفية الذى وقفته صاحبته على معاهد العلم وخصصته للإنفاق على الجمعية الجغرافية ومعهد الصحراء وغيرها فقد كان مصيره الخاصة الملكية – أيضا – بنطق ملكى سام .

كان فاروق قد وصل إلى مرحلة من الجنون واللامبالاة لا يمكن مواجهتها أو إيقافها ..

وكانت فضائحه ومباذله خلال العامين الأخيرين لحكمه قد جعلت سمعة مصر مضغة الأفواه ومثار التهكم فى أوروبا وفى كل مكان ..

وكنت أتلقى من معارفى فى الخارج قصاصات الصحف الفرنسية والأوروبية وماتنشره عن فضائح « ملك مصر » على شواطئ دوفيل وكابرى .. وقد شجعه على المضى فى استهتاره – علنا – أن معظم الزعماء السياسيين غارقون فى خلافاتهم الحزبية . وصراعاتهم الشخصية .. بل إنهم كانوا يتبارون فى التسابق إلى الأعتاب الملكية للحصول على رضاء « مولانا » .

ووصل الهوان والتزلف إلى درجة أن زعيما كبيرا مثل « مصطفى النحاس » له رصيده السياسى العريض وشعبيته الكاسحة يقف فى فندق سان ستيفانو – –وهو رئيس الحكومة – ويقول وعلامات الاغتباط على وجهه : إن « قبلة المصريين » قد انتقلت إلى كابرى حيث يحل مولانا الملك فاروق المعظم .

بينما كان « جلالته » منغمسا فى مباذله ومغامراته الماجنة وكان يجد لذة كبرى وسعادة غامرة فيما تنشره الصحف الأوروبية عن فضائحه مثل على خان وقاطع الطريق جوليانو ..

وعلى سبيل المثال نشرت مجلة التايم الأمريكية على صفحات كاملة صورة من حياة فاروق على شاطئ الريفيرا وتروى كيف يبدأ يومه فى الرابعة بعد الظهر عندما يستيقظ من النوم بعد سهراته فى لعب القمار .. – وهكذا – كما تقول التايم – يظهر صاحب الجلالة فى الساعة العاشرة ليلا فى صالة القمار بالكازينو

ويجلس إلى المائدة وقد فتح قميصه وظهر الشعر الغزير فى صدره ورقبته ، ويكفى أن يشير بإصبعه ليضع تابعه أمامه « هرما من النقود » فإذا كسب صاح : « كسبتم » وهو يضحك عاليا فى زئير مخيف . وإذا خسر ضحك أيضا .. أما خارج الكازينو فالناس يتحدثون عن « سوزيت » و « جانيت » وغيرهما ممن حصلن على هدايا ملكية ثمينة .

وتصف مجلة « باراد » نفس المشهد وتقول : « إن الملك فاروق يقضى فى أوروبا أعظم شهر عسل عرفه القرن العشرون » .. وفى كل ليلة تنام زوجته الصغيرة ـ تقصد الملكة ناريمان » فى فندق كارلتون ، بينما يكون جلالته منهمكا فى لعب البكاراه والروليت ويدفع إلى المائدة بآلاف الدولارات وهو يقول ضاحكا :

الناس يقولون أننى أخسر ثروات كبيرة فى اللعب . . ولكننى أملك أكثر مما يتصورون . . وقد خسر بالفعل خلال عدة ليال ٣٠٠ ألف دولار . . وقد أصبح مألوفاً فى أوروبا منظر هذا الملك الذى لايعنيه سوى قضاء أوقات بهيجة يدفع ثمنها ملايين التعساء فى مصر . .

وعندما ينتقل فاروق إلى دوفيل تتسابق الصحف فى نشر فضائحه التى تشوه وجه مصر خارج الحدود .

إلغاء معـــاهدة ١٩٣٦ :

وفى نفس الوقت كانت مصر تغلى من الداخل وكانت القوى الوطنية تفور بالغضب على أخطبوط الفساد واستغلال النفوذ الذى يبدأ من القصر ويضم الحكومة والأحزاب جميعاً ، ولذلك انطلقت صيحة « التطهير » واعتبرها الملك موجهة له شخصياً . . وفى خضم هذا الغليان والفوضى السياسية حاول الوفد أن يصنع شيئاً لإنقاذ مابقى من رصيده . . وللخروج من هذا المأزق الخطير بانتصار شعبى . . يحرج القصر ويحد من تسلط الحاشية ويسكت أحزاب الأقلية . . وكان قرار إلغاء معاهدة ١٩٣٦ . .

كان هناك انقسام داخل قيادة الوفد حول إلغاء المعاهدة . .

وكان محمد صلاح الدين هو منبع الفكرة ، بينما كان فؤاد سراج الدين يعارضها بعنف وقال لحامد زكى فى مأدبة غداء أقامها النحاس فى فندق سان ستيفانو :

« إن هذا هو جنون صلاح الدين . . وأنه لا يوافق عليه » ثم اضطر إلى التراجع عن موقفه بعد أن شعر بالتيار الشعبي الوفدى المؤيد للفكرة ، وبعد أن اقتنع مصطفى النحاس بوجهة نظر صلاح الدين . . وكان الواضح أن إلغاء المعاهدة بمثابة مناورة سياسية ذكية من الوفد لتغطية فساد الحكم ولامتصاص غضب الشعب المكبوت وقد حاول الإنجليز تأجيل قرار الإلغاء عن طريق حامد زكى ولكنهم ماطلوا بعد ذلك فى تقديم العروض الجديدة للمباحثات ، واعتمد النحاس على تأييد أمريكا له فى هذه الخطوة ، كما أكد صلاح الدين بعد عودته من باريس أن هناك ضغوطاً على الإنجليز وأنهم سوف يضطرون إلى الجلاء .

وكان التخوف الوحيد من رد فعل القصر . . وكانت هناك فكرة سائدة بين بعض رجال الحاشية بضرورة إقالة النحاس وتأليف وزارة أخرى تقوم بإلغاء المعاهدة حتى يفوت الملك على حكومة الوفد ذلك التأييد الشعبي فى موقفها الوطنى . . ولذلك كان رأى النحاس ضرورة الإسراع بالإلغاء حتى يقطع الجسور على فاروق لإقالته . . ووقف فى البرلمان يوم ٨ أكتوبر يعلن القرار : « باسم مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ . . وباسم مصر أطالبكم اليوم بإلغائها » .

لكن الوفد لم يكن يتوقع المضاعفات الخطيرة وغير المنتظرة التى حدثت فى أعقاب إلغاء المعاهدة . .

وأوضحت الأحداث – فى تطورها السريع بعد ذلك – أن الحكومة لم تستعد لما بعد الإلغاء ، على الرغم من التصريحات الرسمية بأنها أعدت لكل شيء عدته . .

وتصاعدت المقاومة الشعبية ضد الإنجليز فى منطقة القناة . . وأخذت المعسكرات البريطانية فى فايد والتل الكبير وغيرهما تتعرض لعمليات جريئة من الفدائيين المصريين وظهر فيما بعد دور الضباط الأحرار فى تسليح وتدريب كتائب المقاومة وتنفيذ هذه العمليات ، وحاول فؤاد سراج الدين بصفته وزيراً للداخلية – وقتها –

كبح جماح هذا التيار الوطنى المتصاعد ولكن الزمام كان قد أفلت تماماً . . وفقد الإنجليز أعصابهم وكان لابد أن تصل الأمور إلى نقطة صدام مروع .

حـــريق القـــاهرة :

وكان حادث الاسماعيلية يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ هو هذه النقطة .

وفى الفجر زحف الجنرال أرسكين على الإسماعيلية وحاصرت القوات البريطانية بدباباتها ومدافعها مبنى المحافظة وقشلاق بلوكات النظام الملحق به . . وأرسل أرسكين إنذاره الشهير لضباط البوليس بالتسليم أو الضرب بالمدفعية . . واتصل الضباط بوزارة الداخلية لأخذ رأيها فى الموقف . . لأنه لم يكن لدى قواتهم غير البنادق وكمية محدودة من الرصاص والذخيرة . . وأصدر فؤاد سراج الدين أوامره إلى قوات البوليس — برغم ذلك — بالمقاومة إلى آخر طلقة . . وآخر رجل . .

وهكذا رفض الضباط والجنود المصريون الإنذار البريطانى .. وواجهوا الهجوم بشجاعة وجسارة وكانت المذبحة واختلطت دماء الشهداء والجرحى بأنقاض المبنى وجاء الليل ودخان المعركة الرهيبة فى الاسماعيلية ينسحب بظلال الحزن والغضب على القاهرة ولم تغمض عيناى ليلتها فقد كان كل شئ على وشك الانفجار .

وطلع الصباح صباح السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

كان طوفان الغضب يجتاح الجماهير ويدفعها إلى الانتقام من الإنجليز ومن القصر ومن الحكومة ومن كل شئ .

بينما كان فاروق لاهياً — كعادته — غير عابىء بالمشاعر الوطنية الجريحة وفى هذا اليوم اختار أن يقيم مأدبة غداء ملكية كبيرة لكبار الضباط بالجيش فى قصر عابدين فى مناسبة عيد ميلاد ولى العهد الأمير أحمد فؤاد « الثانى » واندلعت المظاهرات الغاضبة فى جامعة القاهرة مع ساعات الصباح الباكر ثم امتدت إلى جامعة عين شمس ويومها كنت مرتبطاً بتشييع جنازة أحد أقاربى المقربين — المرحوم موسى نصر — وخرجت من بيتى فى الزمالك وتفكيرى يدور حول مذبحة الاسماعيلية ونتائجها

المتوقعة وذهبت مع الأسرة إلى المدافن فى منطقة « تلال زينهم » ــ طريق صلاح سالم الآن ــ وفى طريقنا رأيت المظاهرات تندفع من الجيزة فى اتجاه مبنى البرلمان وصعدت بنا السيارة إلى هذا المكان المرتفع المطل على العاصمة الكبيرة وبينما كنت أتأمل معالم المشهد من حولى رأيت عموداً من الدخان يرتفع إلى عنان السماء من وسط المدينة وظننت فى البداية أنه مجرد حريق عادى ولكن بعد لحظات تتابعت أعمدة الدخان الطويلة واختلطت ببعضها وأخذت تشكل سحابة قاتمة فوق القاهرة وأحسست أن وراءها شيئاً خطيراً .

وكان الوقت ظهراً وعدت أدراجى بالسيارة إلى بيتى واخترقت ميدان الأوبرا ، وشارع فؤاد وشارع سليمان فى الطريق إلى الزمالك ورأيت المأساة تكتمل فصولها كان كل شىء يحترق وكانت القاهرة تأكلها النار وكان الدخان الأسود يخنق أنفاسنا .

وبسرعة البرق انتشرت ألسنة النار وامتد الحريق إلى معالم العاصمة العريقة من كان يتصور ذلك الذى حدث فى لحظات ؟

لا أقول أن حريق ٢٦ يناير كان مدبرا مائة فى المائة .. ولا أقول أنه كان قضاء وقدرا مائة فى المائة ..

ولكن اختلطت العوامل ببعضها : غضبة الجماهير .. مذبحة الاسماعيلية فساد الحكم .. خيانة الملك وأدت فى النهاية إلى الحريق وصنعت هذه الصورة البشعة .

وأيقنت بينى وبين نفسى ــ على وهج الحريق وظلاله السوداء ــ أن المسألة أكبر وأخطر وأخذت أتساءل هل كانت المأدبة التى أقامها الملك لضباط الجيش فى ذلك اليوم الحزين مجرد مصادفة ؟ وهل هى خطة مدبرة من القصر والانجليز للاطاحة بحكومة الوفد انتقاماً لإلغاء المعاهدة ؟ وهل . . ؟ وهل . . ؟ .

حقيقة أن التاريخ لم يكتشف بعد من الفاعل الحقيقى فى هذا الحريق ولكن من البديهى أنه بدأ بمؤامرة لإشعال النار فى عدد من المبانى العامة حتى يكون ذريعة لإقالة

الوزارة وتشكيل حكومة جديدة فى ظل الأحكام العرفية لكبت الحركة الوطنية وإخماد المقاومة ضد الإنجليز فى القناة .

• ولكن الذى حدث بعد ذلك أن الجماهير تجمعت دون قيادة وبلا تنظيم وبلا تخطيط واندفعت تحرق وتدمر باقى المبانى الكبيرة والمنشآت الأجنبية تنفيساً عن غضبها وتعبيراً عن شعورها ضد الفساد والملك والإنجليز ، ولم يكد يحل الظلام حتى أعلنت الأحكام العرفية وفرض حظر التجول لإنقاذ قصر عابدين بعد أن اقتربت النار منه وحاصرت منافذه ، وكان الذعر يسود القصر وكان الأميرالاى أحمد كامل رئيس الحرس قد نصب المدافع حول الأسوار لمنع اقتراب المتظاهرين .

إقالة مصطفى النحاس :

وكان فاروق قد اتخذ قراره بإقالة مصطفى النحاس- بعد أن يقوم بإعلان الأحكام العرفية - وكان المفروض أن يؤلف نجيب الهلالى الوزارة لكنه رفض العرض الذى حمله إليه حافظ عفيفى - رئيس الديوان الملكى - والياس أندراوس واعتذر عن تأليف الوزارة ولم يعد أمام فاروق سوى على ماهر - برغم الكراهية التى يضمرها له وبرغم القطيعة التى استمرت عشر سنوات بينهما - وذهب إليه حافظ عفيفى فى عوامته على النيل فى منتصف الليل وعرض عليه الوزارة ووافق على ماهر .

ولكن فاروق كان متردداً فى إقالة حكومة الوفد بعد أن نصحه الفريق محمد حيدر القائد العام بعدم التسرع لأنه لايضمن الجيش فى هذه الحالة ، واقترح حيدر أن يؤلف النحاس وزارة قومية لمواجهة الموقف ، واقتنع فاروق بالفكرة بعد أن أيدها الياس اندراوس لأنه كان يخشى أن تجيء الوزارة الجديدة وتطالب بالتطهير وأحس على ماهر بالتردد من جانب القصر وأرسل انذاراً بأنه لن يشكل الوزارة إذا لم تصدر المراسيم على الفور .

وساعده التطور الخطير الذى حدث وقتها بعد أن أمر الجنرال أرسكين القوات البريطانية بأن تزحف نحو القاهرة ورضخ الملك لإنقاذ مايمكن إنقاذه .

وكانت هذه هى مقدمات الانهيار السياسى والتخبط فى الحكم الذى استمر ستة شهور ، تعاقبت على الحكم خلالها أربع وزارات .

ولم تستمر وزارة على ماهر أكثر من شهر وبضعة أيام وواجهت خمس أزمات كانت كفيلة بتحطيمها وكانت الأزمة الأولى عندما أبدى فاروق رغبته فى تعيين كريم ثابت وزيراً بعد استقالته من منصب المستشار الصحفى ــ وكانت الأزمة الثانية عندما طلب فاروق تعيين كامل القاويش فى منصب النائب العام .

وكانت الأزمة الثالثة عندما طلب القصر تعيين اللواء أحمد طلعت حكمدارا للقاهرة وكانت الأزمة الرابعة حول عودة عبد الفتاح عمرو إلى منصبه سفيرا فى لندن برغم إلغاء المعاهدة .. ولكن الأزمة الخطيرة التى واجهها على ماهر منذ اليوم الأول عندما طالبه القصر بحل البرلمان الوفدى .. وكان يرى بدء المفاوضات مع الإنجليز ووراء ظهره برلمان الأغلبية .. وتسرب إلى الصحف مرسوم حل البرلمان الذى كان على ماهر يحتفظ به فى درج مكتبه لمواجهة الموقف فى حالة انتهاء الهدنة بينه وبين الوفد .. وتحالف زكى عبد المتعال مع مرتضى المراغى لتنفيذ الخطوة وقدم الاثنان استقالتهما .. واضطر على ماهر إلى الاستقالة بعد أن شعر بأبعاد مؤامرة القصر .. !

ووافق نجيب الهلالى ــ هذه المرة ــ على المجىء إلى الحكم .. ولكنه فوجىء بأقرب أصدقائه ــ الدكتور أحمد حسين ــ يعتذر عن الاشتراك فى الوزارة . مع أنه كانت هناك فكرة تراود الهلالى خلال صيف ١٩٥١ عن تشكيل حزب جديد من العناصر الوفدية المضادة لتيار سراج الدين ويكون سكرتيره العام أحمد حسين وزير الشئون الاجتماعية فى وزارة الوفد الذى فضح الفساد والمحسوبية فى توزيع أراضى الدولة على بعض الأسر الغنية ، وكان هناك اتفاق بين الهلالى وأحمد حسين على عدة أسس لقبول الوزارة وكان أبرزها : تطهير الحاشية وتطهير الأحزاب .. ولكن الهلالى سرعان ما تراجع عنها ..

وكان الخلاف الأول بين الهلالى والقصر عندما عرض اسم اللواء « محمد

نجيب » وزيرا للحربية ورفضه فاروق بشدة وكانت وجهة نظر الهلالى : أن انتخاب محمد نجيب رئيسا لمجلس إدارة نادى الضباط يعنى أنه محبوب من الجيش .. وتراجع الهلالى أيضا عن مطلب طرد رجال الحاشية بعد أن نصحه حافظ عفيفى : بأن جنون الملك قد وصل درجة فوق الاحتمال وأنه أصبح أسير الحاشية ولا يمكن مناقشته فيها .. وكان الهلالى مطمئنا إلى تعاون حافظ عفيفى معه ورأى فى وجوده داخل القصر ضمانا كافيا لنصح الملك بالتدريج وإبعاد الحاشية عنه .. وكان هذا التفكير — فى حد ذاته — هو نقطة الضعف التى بدأ بها الهلالى مواجهة الموقف .. !

وكان الهلالى أسعد حظا من على ماهر الذى تلقى الصدمة الأولى .. فقد استمرت وزارته أربعة أشهر (١) .

وخرج من الحكم مشيعا باللعنات من الوفد .. ولم يأسف عليه السعديون والدستوريون والكتليون لأنهم كانوا يشعرون نحوه بعدم الارتياح .

والواقع أن الهلالى لم يمض فى التطهير أكثر من بضعة أيام بعد أن غضب الملك واستمع إلى نصائح الياس أندراوس وكريم ثابت ، ووجدت لجان التطهير نفسها تمضى فى طريق مسدود واضطرت إلى إغلاق ملفاتها بعد اختفاء المستندات الخطيرة .

وبعد استقالة الهلالى جاءت وزارة حسين سرى فى ٢ يوليو .. وكان التخبط السياسى قد وصل ذروته .

فى انتظار لحظة الانفجار :

وكان الشعب ساخطا .. مترقبا لحظة الانفجار .. وكان الجيش غاضبا .. متحفزا للضربة القاضية .. خصوصا وأن معركة نادى الضباط قد وضعت الجيش فى مواجهة القصر وكشفت عن التحدى العلنى ضد الملك وأعوانه .. وكانت بوادر السخط قد بدأت خلال حرب ١٩٤٨ وجاءت قضية الأسلحة الفاسدة لكى تفضح القصر والحاشية فى هذه الصفقات المريبة .. ثم ظهرت منشورات « الضباط الأحرار » داخل الجيش لتلهب مشاعر الثورة ضد الملك .

---

(١) كتاب « قصة ملك و ٤ وزارات » للأستاذ موسى صبرى .

وكان السبب المباشر لأزمة نادى الضباط : اللواء حسين سرى عامر – قائد سلاح الحدود – الذى أراد فاروق أن يفرضه على الجيش حتى يضمن ولاء القيادة .. وكان ملف حسين سرى عامر وارتباطه بالأسلحة الفاسدة وبالأعمال غير المشروعة لحساب فاروق ، دليل إدانة واضحة .. ولكن الملك مضى فى التحدى المجنون لمشاعر الضباط وفكر فى البداية فى تعيين حسين سرى عامر كبيرا للياوران ثم ترقيته قائدا عاما بعد طرد الفريق حيدر .. وكان هناك تفكير آخر فى ترقية اللواء حسين فريد قائدا عاما وتعيين حسين سرى عامر مكانه رئيسا للأركان ثم استقر رأى فاروق على تعيينه وزيرا للحربية .. ولكن حسين سرى لم يوافق .. وكان الجيش قد صمم على مواجهة التحدى وطرد حسين سرى عامر ، وجاءت انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط لكى تكون معركة المواجهة الحاسمة .. وتكتل الجيش لإسقاط حسين سرى عامر – مرشح القصر – فى الانتخابات ونجح خصمه اللواء محمد نجيب .. وتم انتخابه رئيسا للنادى .. ونجح الضباط الأحرار – أيضا – فى مجلس إدارة النادى .. ورفض الضباط انتخاب مندوب عن سلاح الحدود – زيادة فى التحدى – ووقفوا دقيقتين حدادا على الشهيد عبد القادر طه الذى دبر حسين سرى عامر اغتياله .. ! وانفجر الملك غاضبا واعتبر الضربة موجهة له – شخصيا – وهدد بأنه سوف « يدوس » هؤلاء الضباط .

وتدخل حيدر محاولا تهدئة القصر ولكن الملك صب غضبه عليه وهدده بالفصل وتأزم الموقف أكثر وأكثر عندما ذهب حافظ عفيفى إلى حسين سرى رئيس الوزراء وأبلغه فى مذكرة صغيرة مكتوبة بخط الشماشرجى عزيز وعلى لسان الملك :

« يعتبر حيدر مفصولا من منصبه إذا لم يحل مجلس إدارة نادى الضباط وينقل الإثنا عشر ضابطا أعضاء المجلس خلال خمسة أيام !!! »

واستدعى حسين سرى الفريق حيدر وطلب منه دراسة المذكرة وإعادتها برايه – خصوصا وأنه يعرف هؤلاء الضباط – ولكن حيدر أمام الضغوط المختلفة

عليه أسرع وأصدر قرارا بحل مجلس إدارة النادى ، وغضب حسين سرى من هذا القرار المفاجئ بدون الرجوع إليه .. خصوصا بعد ما هدد محمد نجيب بالاستقالة من النادى .. وتصاعدت الأزمة ووصل الصدام بين الملك والجيش إلى نقطة اللاعودة.

وطلب حسين سرى تعيين محمد نجيب وزيرا للحربية يوم ١٨ يوليو لتهدئة الجيش ولكن الملك رفض بشدة ، ولم يجد حسين سرى أمامه غير الاستقالة حتى لا يتحمل نتائج تصرفات فاروق الطائشة .. وتمادى الملك فى تحديه للجميع وفرض صهره إسماعيل شيرين وزيرا للحربية فى وزارة نجيب الهلالى الثانية .. و .. و ..

وأتوقف بالسرد قليلا لكى أوضح موقف شباب الأحزاب ..

فقد كان السخط يعم الجميع .. وكان الألم يمزقنا من الداخل .. ولكن لم يكن بيدنا أن نفعل شيئا فى مواجهة الأحكام العرفية والمعتقلات والبطش .

ولم تكن المسألة فى نظرنا مجرد أزمة نادى الضباط .. وإنما كانت تشكل جوهر الأزمة الحقيقية التى تعانيها مصر وتضغط على أنفاسها : من فساد الحكم إلى طغيان الملك إلى الانهيار السياسى إلى صراع زعماء الأحزاب .. ويخطىء من يتصور أن الأحزاب كانت فاسدة تماما ، وإنما للحقيقة والتاريخ كانت ثمة عناصر وطنية وممتازة وشريفة — وخصوصا بين صفوف الشباب — وكانت تحاول جهدها إصلاح الأحزاب وتطهيرها ولكنها كانت تصطدم بالأمر الواقع الذى يفرض القيادات التقليدية القديمة التى انشغلت بصراعاتها الشخصية من أجل الحكم عن المصلحة الوطنية.

وكنت مثل غيرى .. أنظر إلى هذه التطورات الخطيرة التى تجرى على أرض وطنى فى قلق وأسى .. وكنا على اختلاف الانتماء السياسى نستشعر الخطر الداهم الذى يتردى إليه الحكم .. وكنا نترقب الإنقاذ بأى شكل .. وبأى وسيلة .

ولذلك كنت واثقا من ضرورة حدوث شئ كبير : إنقلاب .. ثورة .. ولكن متى ؟ .. وكيف ؟ . . هذا هو بالطبع مالا أدعى العلم به . . ولم يكن هذا الشعور يساورنى وحدى ، بل إن الكثيرين كانوا يتوقعون حدوث شيء ما .. ولكنهم لم يكونوا على بينة من أمره ، أو على يقين من ماهيته .

الفصل العاشر

من حركة
إلى ثورة

فى ذلك الصباح ٢٣ يوليــو ١٩٥٢ . .

صحوت مبكراً ـ كعادتى ـ وفتحت الراديو لكى استمع إلى نشرة الأخبار فى السابعة صباحاً . .

ولكنى وجدت أن الوقت قد تجاوز موعد النشرة ومع ذلك فليس لها أثر . . وأحسست أن هناك أمراً غير عادى . . ربما أكون قد أخطأت . .

وامتدت يدى إلى الجهاز وأدرت المؤشر .. كانت الموجة مضبوطة بالفعل على إذاعة القاهرة .. ومضت عدة دقائق .. وبعدها انطلق صوت عميق .. قوى النبرات .. ولكنه ليس صوت المذيع العادى ـ ولم أكن أدرى أنه صوت الرئيس أنور السادات ـ وأخذت أنصت إلى البيان الموجه من اللواء أركان حرب محمد نجيب « القائد العام للقوات المسلحة » إلى الشعب المصرى :

« اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم وقد كان لهذه العوامل تأثير كبير على الجيش . . وتسبب المغرضون والمرتشون فى هزيمة الجيش فى معركة فلسطين . .

أما فترة مابعد الحرب فقد تضافرت فيها عوامل كثيرة ، وتآمر الخونة على الجيش حتى تصبح مصر بلاجيش يحميها ، ومع ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا رجال نثق فى خلقهم ، ولاشك أن مصر ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب . .

أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش فهؤلاء لن ينالهم ضر وسيطلق سراحهم بعد مدة وفى الوقت المناسب ، وأن الجيش سيعمل على صالح الوطن مجرداً من كل غاية فى ظل الدستور . . وإننى أطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة أن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف أو الشغب لأن ذلك فى غير صالح مصر . . وسيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل وسيلقى جزاءه . . وسيقوم الجيش بواجبه متعاوناً مع البوليس . . وأطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأعتبر نفسى مسئولا عنهم . . والله ولى التوفيق . . »

وهكذا كانت المفاجأة .. وتحرك الجيش لكى يضع نهاية لطغيان الملك .. وفوضى الحكم ، والواقع أن الأمر كان مفاجأة برغم الشواهد والنذر التى كانت تمهد للثورة المتوقعة .. وكانت عناوين الصحف الثلاث — الأهرام والمصرى والأخبار — الصادرة فى ذلك الصباح تشير إلى موقف الهلالى من الأحكام العرفية بعد ساعات قليلة من تأليف وزارته الثانية .. وكان التركيز ظاهرا — لإلهاء الشعب وشغله بأمور جانبية — عن أعمال لجان التطهير وضرورة إعلان نتائجها قبل إجراء الانتخابات .. وكان الاهتمام واضحا بجلسات المحكمة العسكرية العليا فى قضية التحريض على حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير .. وحضر على ماهر هذه الجلسة بصفته شاهد نفى ولم يكن أحد يتصور أنه سيجئ رئيسا للوزراء بعد ساعات — وكانت شهادته تتركز حول اتصال أحمد حسين به فى العوامة ذلك اليوم ، وكان البحث يدور حول : أين كان أحمد حسين — زعيم مصر الفتاة — بعد الظهر يومها ؟ .. وأكد على ماهر فى شهادته أن الحوادث مدبرة وأن يدا أجنبية اشتركت فى التدبير ..

كانت هذه هى العناوين الرئيسية للصحف ولكنها كانت بعيدة تماما عن الحدث التاريخى العظيم الذى وقع خلال ساعات الصباح الأولى ..

أحداث ليلة الثورة :

وفتحت القاهرة عيونها فى ذلك اليوم على مشهد مثير آخر لم تلحقه مطابع الصحف : دبابات الجيش ومصفحاته تخترق شوارع كوبرى القبة والعباسية

ووسط القاهرة ، وتأخذ مواقعها حول مبنى الإذاعة ومبنى التليفونات والمنشآت العامة .

لكن هذا المشهد لم يكن بداية الثورة ..

فقد سبقته مشاهد أخرى طوال الليل بعد أن حلفت اليمين وزارة الهلالى — وزارة اليوم الأخير لحكم فاروق — فى الساعة الخامسة مساء أمام الملك فى الاسكندرية ..

وفى الساعة العاشرة والنصف مساء اتصل مرتضى المراغى — وزير الداخلية وأحد عيون القصر — بنجيب الهلالى فى بيته فى سيدى بشر وكانت نبرات الانزعاج واضحة فى صوته وقال له : إنه تلقى معلومات من وزارة الداخلية بأن هناك حركة غير عادية بين قوات الجيش فى القاهرة وأنه عرف أسماء الضباط قادة هذه الحركة وأنه يستطيع القبض عليهم ..

ولكن الهلالى — حسب رواية فريد زعلوك — طلب من المراغى عدم اتخاذ أى إجراء مضاد حتى لا تزداد ثورة الجيش خصوصا بعد تعيين القائمقام إسماعيل شيرين — زوج الأميرة فوزية — وزيرا للحربية ..

وفى الساعة الثالثة والنصف صباحا اتصل اللواء محمد نجيب من بيته فى القاهرة بفريد زعلوك فى الاسكندرية — على أثر مكالمة تليفونية من مرتضى المراغى حتى يتدخل لتهدئة الضباط — وطلب نجيب أمرا كتابيا من الهلالى حتى يقوم بهذه الوساطة .. وكان المراغى ساهرا فى مكتبه فى بولكلى لإبلاغ القصر تطورات الموقف أولا بأول .. ولحق به نجيب الهلالى فى الرابعة والنصف وكانت الأنباء قد جاءت بأن قوات الجيش الثائرة قد استولت على محطة الإذاعة لإعلان بيان من القيادة العامة وهو البيان الذى أذاعه الرئيس أنور السادات ..

واتصل الهلالى مع فاروق — وكان إسماعيل شيرين حاضرا فى مكتب رئيس الوزراء — وطلب تفويضا للاتصال بالقوات الثائرة وبحث مطالبها .. وأعطاه الملك التفويض لكى ينقذ نفسه بعد أن أفلت الزمام .. وألقت قوات الجيش القبض على الفريق حسين فريد وكبار القادة فى مبنى القيادة العامة ..

وفى الساعة السادسة والنصف صباحا حاول الهلالى الاتصال باللواء نجيب فى بيته – بالزيتون – ولكنه لم يعثر عليه ، وطلبه فى القيادة العامة .. وأبلغه أنه أصدر أوامره إلى قوات البوليس بعدم التعرض لقوات الجيش الثائر وقال له الهلالى : أنا مفوض بالتفاهم معكم .. ومستعد للحضور فورا فى طائرة عسكرية لبحث مطالبكم .. إذا لم يذع البيان فى نشرة السابعة صباحا .. !

وتأخرت إذاعة البيان الأول للثورة عشرين دقيقة .. وكان رأى مجلس قيادة الثورة قد استقر على ضرورة تغيير الوزارة ، ولذلك أذيع البيان .. وكان هذا كله بعد أن احتل « الضباط الأحرار » كما علمنا فيما بعد ، مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة والإذاعة والمواقع الرئيسية ، واعتقلوا كبار ضباط الجيش أثناء اجتماع لهم فى مبنى القيادة نفسه ، بحيث لم يكن هناك لواء واحد عامل مطلق السراح سوى اللواء محمد نجيب ، والذى نسبت « حركة » الضباط نفسها إليه .

وتلقى محمد نجيب فى القاهرة من رئيس الوزراء أحمد نجيب الهلالى فى الاسكندرية مكالمة يدعوه فيها للذهاب إلى الاسكندرية ولكن محمد نجيب اعتذر[1] .. ولما استفسر منه عن طلبات الضباط قال له إنهم يطالبون بالآتى :

١ – تكليف على ماهر بتشكيل الوزارة .

٢ – تعيين محمد نجيب قائدا عاما للقوات المسلحة .

٣ – طرد محمد حسن وحلمى حسين وأنطون بوللى وكريم ثابت والياس أندراوس . ويوسف رشاد من حاشية الملك .

ويقول محمد نجيب « إنى رأيت تقديم هذه الطلبات للملك حتى إذا رضخ وقبلها عرفت أنه فى مركز ضعف وأنه لا يستند إلى قوات الاحتلال كما نما إلى علمى » .

ثم يضيف محمد نجيب « توجهت بعد ذلك مع أنور السادات إلى منزل على ماهر بالجيزة وعرضت عليه تولى رئاسة الوزارة التى أبلغتها لنجيب الهلالى وإلى

---

(١) كلمتى للتاريخ – محمد نجيب ص ٤٤ .

الطيار مصطفى صادق عم الملكة ناريمان الذى رابط منذ الصباح على سور القيادة العامة فى كوبرى القبة .

« وافق على ماهر بشرط أن يصدر أمر التكليف من الملك صاحب السلطة الشرعية . وافقت طبعا ، فقد كنا حتى هذه اللحظة لم نحدد موقفنا تحديدا نهائيا من الملك رغم أننا قدرنا احتمال عزله بالقوة إذا اعترض على مطالبنا الخاصة بتحسين حالة الجيش » ..

« شرحت مطالب الجيش لعلى ماهر الذى تساءل مستطلعا : أنتو ناويين توصلوها لغاية فين ؟ » .

وقلت له مداعبا : ليس عندنا مانع من أن تصل الأمور لتكون رئيسا للجمهورية» .

وعاد محمد نجيب إلى مقر القيادة ، ليعلم أن أحمد نجيب الهلالى قد قدم استقالته فى الاسكندرية إلى الملك فعلا وبذلك لم تكمل حكومته يومين .. وكانت الاستقالة مختصرة ويقول فيها الهلالى « مولاى ، نظرا إلى ما جد من حوادث تقتضى أن يكون لجلالتكم تدبير الأمور بحكمتكم العالية ، وضعا للأمور فى نصابها ، وحرصا على أن تجتاز البلاد بسلام هذه المرحلة العصيبة التى تمر بها أرى من واجبى أن التمس من جلالتكم قبول استقالتى ، سائلا لمولاى معونة الله وتوفيقه .. وإنى يا مولاى مازلت المخلص الوفى الأمين »[1]

على ماهر يشكل الوزارة :

وكلف الملك على ماهر بتشكيل الوزارة ، التى شكلها فعلا من عشرة وزراء ، بخلاف على ماهر نفسه الذى تولى وزارات الداخلية والخارجية والحربية والبحرية إلى جانب رئاسته للوزارة .

وفى ٣٠ يوليو ١٩٥٢ عين القائمقام أركان حرب محمد رشاد مهنا وزيراً

(١) النظارات والوزارات المصرية ــ فؤاد كرم : ص ٥١٩ .

للمواصلات ، ولهذا التعيين قصة : ذلك أن الثورة لم تعلن — فور قيامها — سقوط دستور سنة ١٩٢٣ ، إذ تأخر هذا الإعلان حتى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ ، وقد كان هذا الدستور يوجب أن يكون أعضاء مجلس الوصاية من طوائف معينة حددها الأمر الملكى الصادر فى ١٣ أبريل ١٩٢٢ بوضع نظام لتوارث عرش المملكة المصرية ، ومن بين هذه الطوائف أن يكون عضو مجلس الوصاية من « الوزراء أو ممن تولوا مناصب الوزارة » ولما كانت الثورة تعتزم تعيين القائمقام رشاد مهنا عضوا بمجلس الوصاية ، فقد تقرر تعيينه وزيرا للمواصلات وبذلك أمكن تعيينه فى ٢ أغسطس ١٩٥٢ عضوا بمجلس الوصاية بالإضافة إلى الأمير محمد عبد المنعم والدكتور بهى الدين بركات .

وحتى تلك اللحظة لم تكن البيانات المذاعة توحى بأن ما تم هو ثورة رغم أن الدبابات فى الشوارع والمعانى بين السطور تقرر ذلك — إنما الذى نراه هو « حركة » لتطهير الجيش .. وأن رمز هذه الحركة هو اللواء محمد نجيب ، بغير أن ندرك بعد أن هناك تنظيما اسمه الضباط الأحرار .. وأن القائد الفعلى لهذا التنظيم هو البكباشى جمال عبد الناصر وأن الهدف هو تغيير النظام كله فى ثورة شاملة .

كانت معلوماتى ومعلومات أصدقائى إذن محدودة بهذا الشكل ، وأمضيت اليوم كله فى متابعة تطورات « الحركة » من خلال الإذاعة ، واتصالاتى مع بعض أعضاء مجلس النواب .

وفى ذلك اليوم جاء إلى منزلى عدد من أصدقائى وزملائى السابقين فى مجلس النواب ، وجلسنا فى غرفة المكتب واختلفنا فى تقييم تحرك الجيش .. لقد رأى البعض أن هذه الحركة سوف يسكتها الملك بزيادة مرتبات الضباط ورأى البعض الآخر أن الحركة قد قامت من أجل مطالب للجيش وأنها لن تزيد على ذلك وسرعان ما سيحتويها على ماهر والقصر الملكى .

ولا أدرى ماهو السبب الذى جعلنى يومها أختلف مع تلك الآراء ، وأقول لهم : إننى لا أتصور هذا الأساس الضيق لحركة ضباط الجيش وإلا ما غامر هؤلاء

الضباط بحياتهم .. وفى رأيى أن المطالب سوف تكون متوالية وبالتدريج .. ولا أحد يستطيع أن يعرف مداها .

ومع ذلك فقد كان يسيطر علينا جميعا شعور غامض بالارتياح .. وكأن كابوسا ضخما قد بدأ ينزاح من على قلب مصر .. فخلال السنوات الثلاث الأخيرة كان فساد نظام الحكم قد وصل إلى أقصاه .. وخلال الأشهر الأخيرة كان تخبط الحكومات قد وصل أيضا إلى مداه .. لقد فشل على ماهر فى محاولته إقامة ديكتاتورية مستنيرة ، وفشل الهلالى فى محاولته تكوين حزب جديد . وفشل الأول إذ تهادن مع الوفد ، وفشل الثانى إذ حارب الوفد . . وفشل الأول إذ قدم التحرير على التطهير ، وفشل الثانى إذ فعل العكس وقدم التطهير على المسألة الوطنية ، وفشل الأول لأنه كديكتاتور لم يستند إلى قوة يملكها ولا تملكه(١).. وفشل الثانى لأن « حزبا بلا جذور تودى به أى ريح »(٢)

المهم أخذت الأحداث تتوالى فى إيقاع سريع . .

وسافر على ماهر إلى الاسكندرية صباح اليوم التالى — ٢٤ يوليو — بعد أن انتهى من اتصالاته لتأليف الوزارة .. وكان فاروق ينتظره فى قصر المنتزه ..

وظل مجتمعا معه ثلاث ساعات بعد أن حمل إليه طلبات الجيش بتطهير الحاشية وباقى القائمة .. ووافق الملك على معظم المطالب ولكنه تمسك بمحمد حسن وبوللى .. وصمم الجيش على جميع مطالبه ورضخ فاروق.. وظهر من أول بيان يذيعه اللواء نجيب بصوته فى ذلك اليوم ؛ « إن الحركة تنشد الإصلاح والتطهير فى الجيش ومرافق البلاد ورفع لواء الدستور » .. وظهر اللواء نجيب فى ستوديوهات الإذاعة وبجواره الضابط الأسمر — البكباشى أنور السادات — الذى عرف الناس صورته من خلال محاكمات قضية مقتل أمين عثمان .

وتألفت وزارة على ماهر فى الإسكندرية وسط هذه التطورات المتلاحقة بينما كانت قيادة الثورة توالى اجتماعاتها فى القاهرة على الجانب الآخر وتستعد لتوجيه

---

(١) مقال لاحسان عبد القدوس . مجلة روز اليوسف — ٦ ابريل ١٩٥٢ .
(٢) مقال لاحمد بهاء الدين . مجلة روز اليوسف — ٢٨ ابريل ١٩٥٢ .

الضربة القاضية .. وتحركت قوات الثورة خلال الليل من القاهرة ولم يكد يطلع صباح ٢٥ يوليو حتّى كانت قد وصلت الاسكندرية وأخذت مواقعها بالقرب من قصر رأس التين وقصر المنتزه .. وتصادف فى نفس اليوم أن سافرت إلى الاسكندرية وكان قلبى يحدثنى بأنشيئا كبيرا على وشك الوقوع .. وسافرأنور السادات — مندوبا عن القيادة — لمقابلة على ماهر فى رئاسة الوزارة فى بولكلى .. وتدارس معه مطالب الجيش ولجنة الضباط ، ولكنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى الخطوة التالية من جانب الجيش .. وفى تلك الليلة — بالذات — كما عرفت التفاصيل فيما بعد : انتقل فاروق من قصر المنتزة المنعزل إلى قصر رأس التين حتّى يحتمى بعيدا عن المفاجآت .. كان خائفا مذعورا .. وظل ساهرا طوال الليل فى قصر رأس التين مع زوجته ناريمان وأقاربها وفى الخارج قوات الجيش تضرب حصارها حول القصر .. !

وكان واضحا أن الثورة حريصة فى خطواتها .. حذرة فى قراراتها ..

ولكن كان واضحا — فى نفس الوقت — أن هناك تخطيطا معينا تمضى فى إطاره وتنفذ بنوده واحدا .. واحدا .. وتتصاعد بالموقف تدريجيا ..

والواقع أنه كان للثورة عذرها فى هذه الخطوات المتئدة والبعيدة عن العنف والدم .. وكانت هناك عوامل عديدة تحتم ضرورة المضى فى هذا الطريق :

أولا — وجود الاحتلال البريطانى جاثما على أرض مصر وكانت قواته مازالت ترابط فى قاعدة القناة على بعد مائة كيلو متر فقط من القاهرة وكان احتمال تدخل القوات البريطانية واردا وقائما ..

ثانيا — وجود السيطرة الكاملة للأحزاب على الحياة السياسية بإمكانياتها المتمثلة فى طبقة الإقطاعيين والرأسماليين .. وكان طبيعيا أن يتمسك السياسيون من رجال الأحزاب بمراكزهم وسطوتهم ، وكان احتمال مقاومتهم للثورة منتظرا ومتوقعا ..

ثالثا — عدم وجود الكوادر الثورية اللازمة لتولى السلطة من النظام البائد ..

وكان لابد من الوقت حتى تكشف الثورة بنفسها الخبرات والكفاءات المطلوبة وحتى تعطى ثقتها للمدنيين القادرين فى مواقع التخصص والخبرة ..

وإذن كان الثوار الذين خرجوا من معسكرات الجيش فى بداية الطريق الصعب والمفروش بالأشواك .. حقيقة أن الشعب فتح لهم قلبه منذ اللحظة الأولى .. وأعطاهم تأييده ومساندته بلا حدود .. ولكن كانت الحيطة والحذر من الأسس الضرورية لتأمين الثورة .. ويعود الفضل فى أسلوب الثورة البيضاء الذى التزم به الضباط الأحرار إلى جمال عبد الناصر وأنور السادات وسوف تؤكد تطورات الأحداث على ذلك فيما بعد ..

من هنا كان التحضير للضربة القاضية الموجهة للنظام الملكى يمضى فى سرية تامة .. ويتحرك طبقا لخطة موضوعة على مدى الأيام الأربعة الحاسمة ..

طرد فاروق..

ولم يكد يجىء صباح السبت ٢٦ يوليو حتى كان الشعب قد شعر بحسه الوطنى المرهف أن ثمة أمرا خطيرا وراء الصمت المطبق وتحركات قوات الجيش .. وكان فاروق مطمئنا بعض الشيء بعد أن انتقل إلى قصر رأس التين حيث يوجد قشلاق الحرس الملكى والبحرية الملكية .. وحيث يجاور الميناء واليخت « المحروسة» وكان يتصور أن العاصفة قد مرت بقبوله التخلى عن أفراد الحاشية وطردها من القصر — ما عدا بوللى بالذات — وظن فاروق أن الباقى لن يزيد على بعض طلبات للإصلاح والتطهير ..

ولكن فى الساعة السابعة صباحا بدأت قوات الجيش تتقدم من أسوار القصر وتبادل معها جنود الحرس من الهجانة إطلاق النار .. وارتفعت صيحات الذعر من جناح الحرملك ، وأسرع فاروق فزعا إلى اللواء عبد الله النجومى وكلفه بالخروج إلى قوات الجيش لكى يسألها عن سبب حصار القصر .. ولكن القوات اعتقلت النجومى على الفور .. وفى نفس الوقت كان الملك قد اتصل مع على ماهر والسفير الأمريكى ..

ووصل على ماهر وطمأن فاروق على حياته – ولم يكن يعرف معنى هذه التحركات من جانب الجيش – ثم ذهب إلى رئاسة الوزارة فى بولكلى .. ودخل عليه اللواء محمد نجيب ومعه ضابطان من مجلس الثورة ، وقدم ورقة مطوية تحوى بين سطورها الضربة القاضية وكان الأمر كله مفاجأة مذهلة لعلى ماهر وتساءل :

.. هل عملتم حساب كل شىء .. ؟

وقال له محمد نجيب : نعم .. وفات وقت المناقشة فى هذا الطلب .. !

وناقش على ماهر قليلا فى صيغة الإنذار الموجه من الجيش إلى الملك ثم وضعه فى جيبه وعاد إلى قصر رأس التين .. ودخل على الملك فى السلاملك المطل على الميناء .. وناوله الإنذار وقال له : يا مولاى .. الشعب ثائر والجيش يحاصر القصر .. ورأيى أن تضحى وتتنازل عن العرش وتضمنه لابنك .. !

كان فاروق منهارا تماما وكان قد وصل إلى حالة لا تسمح له بأية مقاومة .. أو مساومة .. وأطرق برأسه مستسلما .. وقرأ الإنذار الخطير ..

« من اللواء أركان حرب محمد نجيب .. باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلالة الملك .

« إنه نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته .. ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير ..

ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة وما تبعها من محاكمات تعرضت لتد خلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى ، وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم ..

لذلك فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد .. على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه .. والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج .. » .

كانت الجماهير قد بدأت تهدر منذ الصباح الباكر فى شوارع الاسكندرية فى طريقها صوب رأس التين لكى تشهد ما يجرى هناك ..

وداخل القصر كان الملك قد أذعن للإنذار وطلب من على ماهر أن يكون وداعه رسميا لائقا ، وأن يحضر لتوديعه مع السفير الأمريكى ضمانا لسلامته — وهكذا كان من مفارقات القدر أن الرجل الذى نصب فاروق ملكا . يكون الوسيط لتنازله عن العرش — ومضت الساعات متثاقلة كالموت البطىء فى الغرفة التى يجلس فيها فاروق وأخذ يبدى مخاوفه للأميرالاى أحمد كامل — قائد البوليس الملكى — بينما كانت ناريمان ووصيفات القصر يحزمن حقائب الرحيل ..

ووسط هذا الجو المشحون بالتوتر والقلق اتصل على ماهر بالملك وطلب أسماء الأوصياء على العرش واقترح فاروق : الأمير محمد عبد المنعم وشريف صبرى وإسماعيل شيرين .. ووصل عند الظهر سليمان حافظ — وكيل مجلس الدولة — وهو يحمل وثيقة التنازل عن العرش أمر ملكى رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢ — وبعد أن قرأها فاروق أبدى عدم ارتياحه لعبارة « نزولا على إرادة الشعب » ولكن سليمان حافظ قال له : إنه لا يملك التغيير فى نص الوثيقة .. !

ورضخ فاروق وأمسك بالقلم ووقع لآخر مرة ملكا .. ولم يكن توقيعه منضبطا فى أول مرة فوقعها مرة ثانية .

وانهار مرة واحدة بعد ذلك وأخذ يبكى .. ثم مضى يتجول فى ردهات القصر .. وحيدا معزولا .. حتى جاءت لحظة النهاية .

وفى الساعة الخامسة والنصف مساء وعلى رصيف قصر رأس التين .. اصطفت

قوة شرف من الحرس ووقف على ماهر والسفير الأمريكي جيفرسون كافرى فى انتظار فاروق . وبعد دقائق هبط سلم القصر مرتديا بدلة البحرية . . وكانت « الملكة » ناريمان وبناته الأميرات قد سبقته إلى اليخت مباشرة .. وكانت عقارب الساعة تقترب من السادسة .. وتأخر وصول محمد نجيب لوداع الملك « السابق » وصافح فاروق .. مودعيه ومشى إلى القارب البخارى الذى حمله إلى اليخت « المحروسة » .. وبعد لحظات وصل محمد نجيب وحوله اثنان من الضباط .. وأصر على توديع فاروق رسميا .. وصعد إلى اليخت .

وعندما وصل محمد نجيب كانت آثار الدموع ما زالت تلمع فى عينى على ماهر . ومضت فترة سكون .. وأخيراً انطلق نجيب يتحدث : « إننى أريد أن أقول لك شيئا .. عندما اقتحمت الدبابات البريطانية قصرك فى ٤ فبراير ١٩٤٢ كنت أنا الضابط الوحيد الذى قدم استقالته احتجاجا على هذا الاعتداء الشنيع على استقلال البلاد . فعلت هذا باسم الجيش كله ، وعبرت به عن شعور هؤلاء الضباط الذين قاموا بالحركة اليوم .. وفى هذا ما يدل على مبلغ ما كان من ولائنا نحن رجال الحركة لك .. أما الآن ، فقد تطورت الأحوال وانقلبنا نحن حماتك إلى ثوار عليك نتيجة أعمالك وتصرفات من حولك[1] .

وفوجئ فاروق بهذا الحديث فقال : على كل حال إننى أتمنى للجيش كل الخير ، وإنى أوصيك خيرا بالجيش المصرى فهو جيش آبائى وأجدادى .. وأن مأموريتك شاقة وصعبة .

وقال له نجيب : أنا أعرف أن الكولونيل سيف (سليمان الفرنساوى) هو الذى بدأ تكوين الجيش المصرى .

وكان فاروق قد لاحظ أن جمال سالم (المرافق لمحمد نجيب) يحمل عصاه وهو فى حضرته فتوقف عن الحديث وأشار له قائلا : ارم عصاتك .. وحاول جمال سالم أن يعترض ولكن محمد نجيب منعه من ذلك فألقى عصاه ووقف وقفة فيها

---

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو — احمد حمروش — ص ٢٣٠ .

شيء من اللامبالاة وقال الملك وهو يصافحهم مودعا بعد أن أدوا له التحية العسكرية : أنتم سبقتونى فى اللى عملتوه .. اللى عملتوه دلوقت كنت أنا راح أعمله .

وكانت الشمس تغرب على ميناء الاسكندرية بينما كانت « المحروسة » تخرج إلى عرض البحر ولازالت تعيش فى أذنى كلمات كامل الشناوى تعبيرا عن هذا المشهد : « وخرجت المحروسة تحمل ذل مصر .. وعار مصر .. وخرجت تحمل فاروق الأول .. والأخير » !

وبدأت صيحة التطهير :

ونزل الستار على عهد « فاروق » بعد أن اختار الإقامة فى إيطاليا .. وتركته « المحروسة » فى كابرى وتوارى فى الظلام ..

ونجحت الخطوة الأولى للثورة .. لكن يا ترى ماذا تكون الخطوة التالية ؟

كان هذا هو التساؤل الذى يساورنا جميعا .. ويشغل خواطر رجال الأحزاب.

كان التطهير مطلبا شعبيا عاما .. ومبدأ أساسيا لحركة الجيش فى ٢٣ يوليو بل إنه كان رغبة غالبية القاعدة الجماهيرية العريضة للأحزاب .

وكان رأى شباب الأحزاب – وبالذات الوفديين والسعديين – أن الإصلاح الداخلى المطلوب لم ينته بطرد فاروق ، بل لابد أن يكتمل بتطهير السياسيين الذين تعاونوا مع فاروق وتهاونوا إزاء الاعتداءات المتكررة على الدستور وحقوق الشعب ..

ولم تكد تمضى أربع وعشرون ساعة على خروج فاروق حتى بدأت صيحة تعلو . . وتعلو . . وتملأ جميع الأندية والاجتماعات السياسية . . ووصلت إلى درجة أن الوزراء الوفديين عقدوا اجتماعاً خطيراً يوم ٢٩ يوليو فى الإسكندرية – برغم أن مصطفى النحاس كان مسافراً فى أوروبا للعلاج – وتقدم الدكتور محمد صلاح الدين باقتراحات محددة لتطهير حزب الوفد « تمشياً مع مطالب البلاد بالتطهير » – على حد تعبيره – وكانت هذه المبادرة من جانب الوفديين مفاجأة لباقى الأحزاب ،

بل إنني لا أبالغ إذا قلت : أنها كانت بمثابة إحراج على . . فقد ظهر الوفد بشكل الحزب التقدمي الوحيد الذي يمد يده — من نفسه — إلى الثورة . . !

وكان الواضح أن الصف الثانى من رجال الأحزاب يريد أن ينتهز الفرصة ويتخذ من المطلب الشعبي ذريعة لإزاحة الصف الأول من السياسيين التقليديين حتى يخلو لهم الميدان ويمسكوا بزمام الحكم والحياة السياسية ..

ولم تكن نوايا الثورة خلال أيامها الأولى واضحة بالنسبة لوجود الأحزاب و تطهيرها أو إلغائها ..

بل إنها كانت حريصة على التزام الصمت المطبق تجاه هذا الموضوع ، وكان « على ماهر » هو الواجهة السياسية الظاهرة التى تطل منها الثورة على الجماهير .. كانت الثورة حريصة على سريتها برغم طرد الملك فاروق .. ورغم سيطرتها على الموقف ..

وعندما نشرت الصحف صور بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة لم تذكر أسماءهم وإنما ذكرتهم على أنهم أعضاء هيئة مكتب اللواء محمد نجيب القائد العام .. وكنت قد تعرفت على صورة واحد منهم منذ اليوم الثانى وكان هو : زكريا محيي الدين ..

كنت أعرف والده عن قرب بحكم الجوار بيننا فى الشرقية .. ورأيته عدة مرات خلال تزاورى مع أسرة « محيي الدين » فى قرية « كفر شكر » ولكن لم تكن بيننا صداقة وطيدة أو صلة وثيقة .. وكان إحساسى الداخلى يقول لى : إن وراء هؤلاء الضباط الشبان الصامتين خطة كبيرة لا حدود لها .

ولكن اتجاهات الثورة اتضحت لنا : عندما طلبت القيادة من على ماهر — رئيس الوزراء — إلغاء البوليس السياسى باعتباره أداة التخويف والبطش التى كان يستخدمها القصر ضد القوى الوطنية .. وعندما فتحت أبواب المعتقلات وتم الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين الوطنيين والأخوان المسلمين والشيوعيين .. وعندما اعتقلت الثورة كريم ثابت والياس أندراوس وحددت إقامة الفريق حيدر وإدجار جلاد وغيرهم من رجال القصر والحاشية .. وبدأت أفهم أسلوب الثورة ..

وأحسست أن الدور قادم على الرءوس الكبيرة فى الأحزاب ..

كان الحزب الوطنى هو الحزب الوحيد الذى مدت له الثورة يدها لكى تتعاون مع عناصره الشابة وتختار منهم بعد ذلك وزراء فى المرحلة الجديدة مثل : فتحى رضوان ونور الدين طراف .. ولكن ماذا كان الموقف تجاه بقية الأحزاب .. ؟

كان الوفد يشكل حزب الأغلبية الساحقة .. وكانت له شعبية جماهيرية واسعة الانتشار فى أرجاء مصر وقراها ونجوعها ..

وبالتالى كانت قيادته ترى أنه صاحب الحق الشرعى فى السلطة وفى وراثة الحكم بعد طرد الملك فاروق .. بل أن طموح « زعامته » وصل إلى حد أنها كانت ترى أنه من واجب « حركة » الجيش أن تسلمها مقاليد الأمور وتعود إلى الثكنات .. كانوا يتصورون أن الثورة قامت من أجل الوفد وليس من أجل مصر ..

وربما كان هذا التفكير سبباً مباشراً للخلاف الذى وقع بين الثورة والوفد .. بل إن ، محاولات النحاس وسراج الدين لتطوى قيادة « الحركة » — فى شخص محمد نجيب — كانت دافعا للصدام بين جمال عبد الناصر — القائد الحقيقى للثورة — وبين قيادة الوفد ..

وكان حزب الوفد بحكم تكوينه الطبقى وانتماء قيادته إلى طبقات يمينية تتعارض مصالحها وتفكيرها مع فلسفة الثورة ومبادئها .. هو مصدر الخلاف الرئيسى بينه وبين الثورة ولذلك يمكن أن يقال أن علاقة الوفد مع الثورة مرت بثلاث مراحل :

* مرحلة الترحيب والتملق ..
* مرحلة التحفظ ..
* مرحلة المعارضة والصدام ..

وقد كان ترحيب الوفد بالثورة قائما على أساس الشعارات التى أعلنتها «حركة» الجيش منذ اليوم الأول عن « احترام الدستور .. والعمل لصالح الوطن فى ظل الدستور » وكان الوفد يرى فى ذلك تمهيداً لعودته إلى الحكم ..

وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو كان النحاس موجوداً فى أوروبا للعلاج وكان معه فؤاد سراج الدين ــ السكرتير العام للوفد ــ ومن شدة اغتباطه وتلهفه لاستلام الحكم قطع علاجه وأسرع بالعودة بالطائرة مع سراج الدين وتوجها مباشرة من المطار إلى مبنى القيادة العامة فى كوبرى القبة لإعلان تأييد الوفد لحركة الجيش . .

وبعدها دخلت العلاقات بين الوفد والثورة فى مرحلة الاختبار الحقيقى حين أبدى النحاس قلقه من عدم عودة الحياة النيابية . . وطلب من فؤاد سراج الدين الاتصال بالقيادة لترتيب مقابلة له مع اللواء محمد نجيب ، عن طريق أحد أقاربه من الضباط الأحرار وهو اليوزباشى عيسى سراج الدين ــ سفيرنا الآن فى الدانمارك ــ ولكن الرد كان مختلفا فقد فهم فؤاد سراج الدين من قريبه أن الضباط ــ أعضاء مجلس قيادة الثورة ــ يريدون الاجتماع معه أولا . .

وتم اللقاء بالفعل فى بيت عيسى سراج الدين بالزيتون وحضره : جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى وكمال الدين حسين وآخرون . . وفى هذا الاجتماع جرت مناقشة كثير من الأمور بصراحة مطلقة ، وواجهت قيادة الثورة سكرتير الوفد بمواقفها الحقيقية وخصوصاً بالنسبة لمشروع الإصلاح الزراعى ، وطلبوا سماع وجهة نظر فؤاد سراج الدين فى تحديد الملكية الزراعية . . وأبدى فؤاد سراج الدين بعض الملاحظات الشخصية والتحفظات على المشروع ، ولكنه أكد فى النهاية أنه يوافق على الإصلاح الزراعى ــ سواء . . بملاحظاته أو بدونها ــ واستمر اللقاء ست ساعات ولكنه لم يصل إلى نتائج محددة . . وكان بمثابة جس نبض من جانب الثورة لآراء الوفد فى الخطوات الثورية التى تنوى القيام بها ومدى تجاوبه معها . . وخصوصاً موقفه من الإصلاح الزراعى . .

صراع داخل الأحزاب :

وفى نفس الوقت كان تطهير الأحزاب يدخل مرحلة حاسمة وبخطى سريعة . .

بعد أن تأكد ضباط القيادة من التعارض بين مبادئهم وبين مصالح الوفد ــ باعتباره

حزب الأغلبية ــ وبعد أن اكتشفوا مدى الهوة التي تفصل بين الفكر الثورى المنطلق وبين النظرة الحزبية الضيقة . .

ولذلك يمكننى أن أقول استنتاجاً من مجرى الأحداث : أن قيادة الثورة عدلت فى ذلك الحين عن فكرة تسليم الحكم للقوى السياسية القديمة وقررت أن تتولى زمام المسئولية بنفسها لكى تحقق الأهداف التى قامت من أجلها ليلة ٢٣ يوليو ــ فقد كان طرد فاروق مجرد خطوة على الطريق الطويل ــ ولكنها احتفظت بموقفها قراراً مؤجلا حتى تتخلص من سيطرة الأحزاب والسياسيين القدامى . .

وفى رأيى أن نداء التطهير الذى وجهته الثورة للأحزاب كان هو السلاح السرى الذى استخدمته لضرب الأحزاب من الداخل وتصفيتها وشق صفوفها وتشتيت قواها ، ووقع فى هذا الفخ ــ الذى وضعه جمال عبد الناصر بمهارة ــ السعديون والوفديون أما الأحرار الدستوريون فقد كانوا أكثر حرصاً وطلبوا أن يتم التطهير عن طريق القضاء . .

وشهد شهر أغسطس أسوأ صورة للصراع داخل الأحزاب من أجل المطامع الشخصية ، وبدأ التناحر والتطاحن فى صفوف الوفد والسعديين . .

وكان الجانب المؤسف فى الصورة أن شباب الأحزاب تصوروا أن المقصود من نداء التطهير وجوه معينة بالذات من القيادات القديمة ؛ وشعروا أن الفرصة الذهبية متاحة أمامهم للقفز إلى الصفوف الأولى وهكذا تحول الأمر إلى مهزلة كبيرة داخل كل حزب . .

والواقع أن خطة تطهير الأحزاب ــ أو تصفية الأحزاب ــ مضت فى خطواتها بذكاء شديد من جانب الثورة . .

وكان يمكن أن يصدر النداء بشكل آخر لو أن الثورة كانت تريد الإبقاء على الأحزاب فيقال : إننا نريد أن يخرج من حزب الوفد فلان وفلان وفلان . . ومن حزب السعديين فلان وفلان وفلان . . ومن الأحرار الدستوريين فلان وفلان . . ولكن إطلاق النداء عاماً للأحزاب : « طهروا أنفسكم » . . فتح الباب أمام الأطماع

الخاصة وأوقع الجميع فى بعضهم . . وفجر الصدامات الكامنة داخل الأحزاب . . وأخذ كل فريق يتربص بالفريق الآخر، ويتبادلون الاتهامات فيما بينهم، وينشرون خباياهم على الملأ . . وهذا هو ما كانت تهدف إليه الثورة - بالفعل - من وراء ندائها بالتطهير . .

وفى نفس الوقت كان هناك صراع آخر يدور بين الأحزاب وبعضها، فقد كان التصور السائد : إن الثورة - أو حركة الجيش - لابد أن يكون لها تجمع شعبي سياسى يعبر عنها وعن مبادئها ويتولى الحكم لتطبيق أهدافها . . وكان حزب الوفد يرى فى نفسه أنه التجمع المؤهل ليكون حزب الثورة بصفته صاحب الأغلبية الشعبية وكذلك كان السعديون يرون أنهم الممثلون الحقيقيون للثورة باعتبارهم الوجه السياسى الأكثر شبابا والأكثر التزاماً بمبادىء سعد زغلول وثورة ١٩١٩، ولكن النوايا الحقيقية للثورة كانت تخالف هذا التصور، فأنها لم تحصر نفسها فى دائرة حزب واحد وإنما مضت تجمع حولها جماهير الشعب من الوفديين والسعديين والدستوريين وتتسلح بالقواعد العريضة . .

وقد عشت هذه الفترة القلقة والحاسمة داخل حزب السعديين . . ورأيت كيف اهتزت قياداته . . وتآكلت قواعده بفعل الصراع والتحلل . . ؟

وكان الاجتماع الذى عقدته الهيئة السعدية لبحث نداء التطهير فى أواخر أغسطس فى مقرها أمام كلوب محمد على - نادى التحرير الآن - صورة واضحة لرد فعل النداء داخلها . . وكان ابراهيم عبد الهادى قد حدد موقفه وكذلك حامد جودة فى لقاءات السعديين السابقة وقال إذا كان المطلوب من التطهير أن نتخلى من مراكزنا فأننا على استعداد للتنحى . . وإذا كان المطلوب الاستعانة بقيادات الشباب فى الصفوف الأولى فإن عندنا عناصر ممتازة من الشباب السعدى يمكنها أن تتولى القيادة مكاننا، ولكن المهم أن تبقى الهيئة السعدية . .

وفى هذا الاجتماع الكبير ردد ابراهيم عبد الهادى نفس الكلام وطرح تساؤلا هاماً أمام الجميع : هل المطلوب هو اختفاء الوجوه القديمة ؟ . . أم المطلوب هو تولى القيادات الشابة . . أننا لانعرف ماهو المطلوب من التطهير على وجه التحديد . .

واستقر رأى زعماء السعديين فى هذا الاجتماع على ضرورة استطلاع موقف قيادة الثورة من التطهير . . وهل يريدون انسحاب القيادات القديمة كلها ؟ . . وهل يرضيهم الطاقم الجديد الذى يحل محلهم من رجال الصف الثانى ؟ . .

ولكن حامد جودة كان يتبنى رأياً آخر وهو : أنه لايجب أن نخضع بهذا الشكل لكل طلبات « الضباط » لأن هذا اللين والتساهل يؤدى فى آخر الأمر إلى انهيار السعديين وكل الأحزاب . . !

وربما لهذا الرأى الجرىء كانت الثورة حازمة وعنيفة فى موقفها من حامد جودة فيما بعد وانعكس ذلك على قيادة السعديين بالتالى . .

وانتهى الاجتماع إلى تشكيل وفد من الهيئة السعدية لمقابلة اللواء محمد نجيب القائد العام وضباط الثورة وكنت واحداً من أعضاء هذا الوفد . .

الفصل الحادى عشر

الأحزاب والثورة وجها لـوجه!!

كان الوفد الذى شكلته الهيئة السعدية للاجتماع بضباط الثورة مكونا من خمسة : عبد الحميد الشرقاوى وسامح موسى وشوكت التونى ، ورابع لا أتذكر اسمه ، وأنا ..

وذهبنا نحن جميعا إلى مقر القيادة العامة فى كوبرى القبة .. للاجتماع باللواء محمد نجيب حسب الموعد الذى حدده لنا . وفى الطريق كانت تدور فى رأسى أفكار كثيرة . فلقد كان السعديون من جانبهم يتوقعون الخير كله من هذا الاجتماع .. وكانوا فى هذا الصدد يمثلون اتجاهين :

اتجاه يمثله إبراهيم عبد الهادى رئيس الهيئة السعدية .. من أن « حركة » ضباط الجيش إما أنها ستتعاون مع الأحزاب جميعا .. أو أنها لن تتعاون مع أحد منهم على الإطلاق وتصفيها جميعا . فإذا تعاونت الحركة مع الأحزاب فسوف يعنى هذا استمرار على ماهر فى السلطة على الأقل كمدنى .. ولاكتساب الخبرة الكافية بالحكم. وإذا قامت الحركة بتصفية الأحزاب فإن هذا سوف يعنى هدما لكيان ديمقراطى ضخم .. ولكنه سوف يعنى أيضا أن يبدأ الضباط حكمهم متحررين من كل مثالب الحياة الحزبية .. ومن كل القيود التى فرضها عليها القصر والاحتلال .

وكان الاتجاه الآخر يمثله حامد جودة نائب رئيس الهيئة السعدية .. وكان يرى أن الضباط سوف يحتاجون بالضرورة إلى الاعتماد على حزب من الأحزاب .. لكى يكون هو القاعدة المدنية لهم من ناحية .. ولأن خبرتهم العسكرية لا تسمح

لهم بممارسة السلطة بأنفسهم من ناحية أخرى . وفى هذه الحالة — ما زال الرأى لحامد جودة — فإن الحزب الوحيد الصالح للقيام بهذه المهمة هوحزب الهيئة السعدية .. لأن الضباط لا يمكن أن يغفروا لحزب الوفد أنه جاء إلى السلطة فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ على حراب الإنجليز .. ولأن الأحزاب الأخرى هى أحزاب .. أقليات ولأن الحزب السعدى هو الوحيد الأكثر قربا إلى مبادئ سعد زغلول وثورة سنة ١٩١٩ .

وبناء على ذلك .. فإن هذا الاجتماع مع ضباط القيادة — الذى أصبحنا فى الطريق إليه أصبح هو الاختبار الحقيقى لصحة أى من هذين الاتجاهين .

ومن ناحية أخرى فقد كانت لى خواطرى الأخرى ، وبصرف النظر عن انتمائى الحزبى ، ولكنى كمواطن يحس بالإعجاب والفخر بهؤلاء الشباب الأقرب إليه سنا وفكرا ، الذين استطاعوا فى خبطة واحدة كسر تلك الحلقة المفرغة التى عشنا فيها حائرين داخل هذا الصراع الدائم بين القصر والأحزاب والاحتلال . لقد كنا — بحكم انتمائنا الحزبى — ندرك من وقت لآخر الفساد هنا والفساد هناك .. وكنا نتمرد أحيانا ونسكت أحيانا .. وكنا نتردد مرة ونحتار دائما .

ثم جاء حادث واحد لكى يقضى تماما على هذه الحيرة .. ويرشدنا إلى طريق جديد مفتوح .. بغير تلك السلاسل الحديدية التى تكبل أقدامنا . حادث واحد — هو قيام الثورة — فتح عيوننا مرة واحدة على أن التخلص من هذه السلاسل مرة وإلى الأبد .. هو أمر ممكن ، وليس بالاستحالة التى كانت تصور لنا .

وفى نفس الوقت فإننا وبسبب نفس انتمائنا الحزبى ، فإننا كنا قد رأينا جزءاً من الصورة الواقعية للحياة السياسية .. وأدركنا أن انتشار الفساد لا يرجع إلى عدم وجود سياسيين شرفاء .. ولكن إلى أنهم رغم وجودهم — فإن فرصتهم لا تتم أبدا .. والقوى الخفية الضخمة لا تتركهم يكملون الشوط إلى آخره أبدا .. هكذا إذن لم يكن عجز بعض القيادات الحزبية يرجع إلى عـــدم رغبة . أو عدم قدرة ولكن أيضا إلى عدم إمكانية .. سببها الحلقة الخبيثة المفرغة التى فرضها علينا القصر الملكى والاحتلال .

والآن زال أحد الكابوسين .. زال الملك .. وأصبح الطريق نصف مفتوح لبداية جديدة تماما من أجل تطهير مصر من الفساد الداخلى .. ومن أجل العمل يدا واحدة لإجلاء المحتل الأجنبي ..

أصبح الطريق مفتوحا .. وأصبح الشعار أيضا مرفوعا : تطهير الأحزاب . وكما شرحت من قبل ، عندما طرحت الثورة شعار تطهير الأحزاب فأنها طالبت به الأحزاب نفسها أولا .. ولم تحدد أبدا ما تريده ثانيا . تطهيرها من من ؟ من العجائز ؟ من الانحراف ؟ من الفساد ؟ ومن هم الفاسدون ؟ ومن هم المنحرفون ؟ من هم كأشخاص .. وكأسماء محددة .

كل هذه الأسئلة تركتها الثورة مطروحة بغير إجابة . .

وكان الاجتماع المقرر بيننا وبين اللواء محمد نجيب كقائد لحركة الجيش يستهدف التوصل إلى هذه الإجابة .. على الأقل بالنسبة لنا كحزب .

كان هذا هو أول لقاء لى مع قيادة الثورة .. ومع جمال عبد الناصر بالذات .. بل أنها كانت المرة الأولى فى حياتى التى أخطو فيها داخل مبنى القيادة العامة فى كوبرى القبة ..

ولم أكن أعرف من ضباط الثورة غير زكريا محيي الدين . . جارى فى كفرشكر الذى تربطنى به صلةقرابة ونسب ، وكماقلت — كنتأراه فى مناسباتمتباعدة . .

أول لقاء مع نجيب وعبد الناصر :

وكنا قد اتصلنا بالقيادة وحصلنا على موعد خاص لمقابلة محمد نجيب .. وكنت يومها أرتدى بدلة بيضاء من قماش الشاركسكين وأرتدى طربوشا بوضع معين — على جنب — وأضع فى جيب سترتى منديلا .. واسمحوا أن أسرد هذه المواصفات بالنسبة لذلك الموقف لأنها كانت السبب فى تحديد ملامح علاقتى مع عبد الناصر لفترة السنوات الأولى للثورة .. ودخلت مع وفد السعديين إلى مكتب اللواء نجيب ، وللوهلة الأولى استقبلنا الرجل بطريقته البشوشة ورحب بنا

بأسلوبه المهذب وأخذ يستمع إلينا بقلب مفتوح .. وكان هذا الانطباع الأول عن قائد« حركة » الجيش كافيا لكى يشعرنا بالاطمئنان.. ولاحظت أن هناك ضابطاً شاباً طويل القامة نافذ النظرات يقف بجواره طول الوقت وظل حاضراً المقابلة من أولها إلى آخرها متابعاً كل كلمة خلالها . .

وسردنا للواء نجيب ما دار فى اجتماع الهيئة السعدية بشكل عام .. ولكننى صدمت بأن أحد زملائى انتهز الفرصة وتكلم بما يخرج فى تصورى عن التفويض الذى منحنا إياه من الحزب ، وكان يتكلم لمصلحة نفسه ويعرض خدماته على حساب الآخرين ..

وللحق فقد كان الرجل ينصت إلينا باهتمام وهدوء شديدين .. وحاولت إنقاذ الموقف وبدأت أشرح مهمتنا وقلت موجها كلامى للواء نجيب :

إن الهيئة السعدية تريد معرفة الأسماء التى تريدون حذفها منها .. ؟

ولم يرد اللواء نجيب ولكن هذا الضابط كان هو الوحيد الذى تصدى بالرد وقاطعنى بحدة : طهروا أنفسكم أولا . . !

ولم يعجبنى طريقته فى الحديث فقلت له : كيف نطهر أنفسنا ؟ . . وما هو المقصود بهذا التعبير الواسع ؟

وعاد الضابط نفسه يقاطعنى مركزاً نظراته الحادةعلى طربوشى ومنديلى وقال زى ماقلنا طهروا أنفسكم . . وبعدين نتكلم . .

كنت جالسا على المقعد واضعا « رجل على رجل » والظاهر أن جرأتى لم تعجب هذا الضابط لأننى عندما استرسلت فى الكلام وقلت :

إننا نريد من القائد العام أن يوضح لنا رأيه .. ثم إننى أحمل رسالة معينة من زعماء السعديين وأريد أن أعود بالرد عليها .. بعد أن طال الحديث دون جدوى حول مفهوم التطهير .. ساعتها أنهى هذا الضابط المقابلة وقال للواء نجيب بلهجة قاطعة :

على كل حال يجتمعوا خارج المكتب . . ويتفاهموا فى هذا الموضوع . . حتى لايضيعوا وقتنا . . !

وهز محمد نجيب رأسه موافقاً ولم يقل شيئاً . .

وتعجبت وقتها من ذلك الأسلوب الغريب الذى اتبعه الضابط معنا — دون سائر الضباط الآخرين — وبالفعل خرجنا من المكتب . .

وخرج وراءنا ضابط آخر وسيم المظهر وعلى وجهه ابتسامة مريحة واجتمع معنا فى الردهة — وظهر فيما بعد أنه حسن ابراهيم — وجاء بعد ذلك زكريا محيي الدين وصافحنى مرحباً ، وانضم إلى الاجتماع . . ولاحظ الاستياء على ملامحى فسألنى : إيه الحكاية ؟ وشرحت له الموضوع بالكامل . . وكيف أن هناك ضابطاً فى مكتب القائد العام ظل يقاطعنى طول الوقت كلما تحدثت مع اللواء نجيب ؟

وظهرت علامات الاهتمام على وجه زكريا محيي الدين وقال لى : ابتعد عنه . . ولاتخطىء فيه . .

ودهشت من كلامه وسألته : ليه . . علشان إيه ؟

فقال لى : انت ماتعرفش الضابط ده يبقى مين ؟

فقلت له : طبعاً . . لا أعرفه ؟

فقال لى بنفس الجدية والاهتمام : ده « جمال عبد الناصر » . . !

وبالطبع لم أكن أدرى ساعتها أنه القائد الحقيقى للثورة . . فقلت له بعدم اكتراث : . . وليكن . . إنما ليه يتصرف معايا بالشكل ده . . !

المهم استمرت المناقشة بعض الوقت مع زكريا محيي الدين وحسن ابراهيم للوصول إلى نتيجة محددة من المقابلة . .

كنت أريد أن أعود برد واضح حتى لاتأخذ مهمة الوفد شكلا آخر . . فقد كنت أرى طموح بعض العناصر فى الهيئة السعدية للاستيلاء على قيادة الحزب ، وكنت لا أريد السقوط فى هذه الدوامة الرهيبة من الصراعات . .

ودارت فى رأسى تصورات عديدة للموقف ، ربما ينتهى الأمر بطرد القيادات القديمة مثل ابراهيم عبد الهادى وحامد جودة ـ وبالتالى يكون رجال الصف الثانى الذين اجتمعوا مع محمد نجيب هم القيادة الجديدة للحزب ـ وأنا واحد منهم ـ وبذلك قد يتهمنا السعديون بأننا ذهبنا إلى القيادة لإزاحة هؤلاء السياسيين القدامى لكى نحل محلهم ولم أكن أرتضى لنفسى بمثل هذا الوضع اللاأخلاقى . . ومن هنا كان إلحاحى للعودة برد لايسبب لى حرجاً . .

ولذلك رجوت زكريا محيى الدين لكى يذهب أحد ضباط الثورة لمقابلة ابراهيم عبد الهادى ويستمع إلى وجهة نظره وينقل إليه رأى الثورة وطلباتها . .

وقال لى : أنه من غير المعقول أن يذهب أحد قادة الثورة إلى أى حزب من الأحزاب المطلوب تطهيرها . .

ومرة أخرى أخذت ألح عليه بالرجاء وقلت له : أبلغ اللواء نجيب بهذا الطلب لإيفاد أحد الضباط للاتصال مباشرة مع قيادة السعديين . . وبهذه الطريقة تخرجوننا من بينكم وترفعون عنا الحرج . . !

وفعلا دخل زكريا محيى الدين إلى مكتب القائد العام ، وغاب بعض الوقت ثم عاد وأخبرنا أن اللواء نجيب وافق على أن يذهب قائد الأسراب حسن إبراهيم لمقابلة ابراهيم عبد الهادى وإبلاغه برسالة قيادة الثورة . .

وتنفست الصعداء . . وشعرت بالارتياح لهذا الحل . .

وركبت سيارتى . . وترك حسن ابراهيم باقى الوفد وركب بجوارى . . وانطلقت إلى نادى سعد زغلول . .

وطوال الطريق امتد الحديث بينى وبين حسن ابراهيم عن تطورات الموقف داخل الأحزاب ولكنه كان حريصاً ولم يفصح بشىء عن نوايا الثورة . . ولم نكد ندخل على ابراهيم عبد الهادى حتى أحسست بالسعادة تغمر كيانه . . فقد جاء إليه أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ـ الشىء الذى لم يحدث مع أى زعيم آخر من زعماء الأحزاب ـ وأغلق علينا الباب وبدأ الحديث بسؤال صريح من ابراهيم عبد الهادى عندما قال : ماهو المطلوب منا ؟

وكان جواب حسن ابراهيم بنفس الكلمتين اللتين سمعتهما من جمال عبد الناصر في مكتب محمد نجيب : طهروا أنفسكم . . !

فتساءل ابراهيم عبد الهادى : هل المطلوب خروجنا بالذات . . ؟

ورد عليه حسن ابراهيم : المطلوب هو إخراج العناصر السيئة وتطهيرها . .

فقال ابراهيم عبد الهادى : من هي العناصر السيئة عندنا في نظركم ؟

وقال حسن ابراهيم : أنتم تعرفونهم أكثر مما نعرفهم . . !

فقال ابراهيم عبد الهادى : لم يكن بيننا من السعديين عناصر سيئة أو ناس وحشين أبداً . .

وكان رد حسن ابراهيم : خلاص . . اسلنوا زى ما انتم . . !

وعلى هذا النحو مضى الحديث طوال المقابلة في دائرة مفرغة . . وكان ينتهى دائماً إلى النقطة التي بدأ منها ولم يؤد إلى أية نتيجة محددة . .

وكان واضحاً أن حسن ابراهيم جاء بنفس الطلب الغامض حول التطهير الذى تراه الثورة . . وكان واضحاً أن جمال عبد الناصر حينما وافق على إيفاد حسن ابراهيم لمقابلة ابراهيم عبد الهادى إنما كان يريد أن يغرقنا في الدوامة التائهة حتى تزداد حيرتنا وتمزقنا من الداخل . . وانتهت المقابلة وودعنا حسن ابراهيم وانصرف إلى القيادة.

وشعرت ليلتها أن الأرض تدور تحت حزب الهيئة السعدية . . !

توقعت هــدف الثــورة :

إننى جلست مع ابراهيم عبد الهادى — ولم أكن أعرف أننى لن أراه بعد هذه المرة إلا بعد سنوات طويلة تغيرت خلالها حياة كل منا تماماً .

لقد سألت ابراهيم عبد الهادى عن انطباعه بالنسبة لاجتماعه مع حسن ابراهيم .

ورد ابراهيم عبد الهادى : أنا مازلت مش فاهم هم — الضباط عايزين إيه . ! !

وسكت أنا قليلا ثم حزمت أمرى وقلت لابراهيم عبد الهادى : لا . . أظن دلوقت ياباشا أصبح واضحاً تماماً هم عايزين إيه !

اندهش ابراهيم عبد الهادى وسألنى مستفسراً : عايزين إيه ؟

قلت له : اللى واضح إنهم مش عايزين الأحزاب نهائياً . لاحزبنا ولا أى حزب آخر .

سألنى ابراهيم عبد الهادى : تفتكر كده ؟

قلت : والله ياباشا ، ده انطباعى فى مقابلتنا النهاردة مع محمـــد نجيب ، وقدتأكد هذا الانطباع من كلام حسن ابراهيم ، كمندوب للقيادة ، معاك . .

وأطرق ابراهيم عبد الهادى قليلا ، ثم قال عندك حق !

لقد خرجت من المقابلة ، ومن نادى سعد زغلول ، عائداً إلى منزلى وأنا غير متأكد تماماً مما إذا كان معى الحق أم لا . ولكنى بدأت بعد ذلك ــ باحساس السياسى أتأكد من ملامح الصورة .

فمن حيث الحزب نفسه ــ بدأت صفوفه تنشق على نفسها بفعل شعار التطهير . . وكان واضحاً أن هذا الأمر محسوب من البداية عندما طرح شعار التطهير . لقد اتخذت الزعامات السياسية الكبيرة داخل الأحزاب موقف الدفاع عن نفسها بعد أن أحست بأن أصابع الاتهام فى فساد الحياة السياسية تشير إليها . ومن ناحية أخرى ، بدأت الزعامات الصغيرة تنفتح شهيتها للقفز إلى كراسى الزعامات الكبيرة إذا أدى التطهير الداخلى إلى إخراجها .

كان هذا فى المرحلة الأولى .

ولكن فى المرحلة الثانية بدأ الشعور ينتشر بأن الأحزاب ــ نفسها ــ ككل ــ أصبحت غير مرغوب فيها فى الحياة السياسية الجديدة .

قد يصبح من الواضح ، بل ومن المؤكد ، أن الثورة تريد التعاون مع نوعيات من الناس لايحكمها الانتماء الحزبى الضيق ، والمشغول بالصراع على السلطة . . وإنما الثورة تريد الآن مواطناً فوق هذه الانتماءات . . وتلك الأحزاب ، يستوى فى ذلك حزب الوفد مع حزب الكتلة . . أو الحزب السعدى مع حزب الأحرار الدستوريين .

لقد بدأت تتضح فى الأفق ملامح ثورة . . وليست ملامح « حركة ضباط » أن المبادىء الستة المشهورة بدأت تشير إلى ذلك، وأصبح واضحاً أن وراء الثورة فكراً شاملا يعرف بالضبط ماهو المطلوب . . وإن كان لايعلنه بوضوح ولامرة واحدة .

ومن ناحية أخرى أصبح الشعب جميعاً يساند الثورة . . وأعطاها قلبه بغير تحفظ. وكانت هذه فى حد ذاتها نقطة تحول ضخمة ومفاجئة . . فعمر الثورة مازال فى عداد الأسابيع ، وهى تواجه فى الحياة السياسية تنظيمات حزبية بعضها له جذور شعبية أصيلة تمتد عشرات السنين خلفاً . وها هو الشعب يعلن تخليه فجأة عن كل هذه الأحزاب واقفاً بكل مشاعره مع ضباط الثورة .

وها هى الثورة من جانبها تطرح على الأحزاب شعار أن تطهر نفسها .

وها هى الأحزاب تقف حائرة بالنسبة إلى المفهوم الحقيقى لهذا الشعار ، وتلك هى التجربة من داخل الحزب السعدى .

فى نفس الوقت كانت الأحزاب الأخرى تغرق فى نفس الدوامة الحائرة .

وكان الصدع الذى أصاب بنيان الوفد بسبب التطهير الذى أجراه لنفسه ، أكبر وأبعد تأثيرا من التمزق الذى أصاب السعديين . .

تمزق فى صفوف الوفد :

فقد اجتمعت قيادة الوفد فى بيت النحاس — فى لوران بالاسكندرية — وناقشت مبدأ التطهير لإرضاء الثورة . . واعترض فؤاد سراج الدين وقال لهم :

إن الوفد يدين نفسه بنفسه بهذه الطريقة ويضعف قوته فى مواجهة بقية الأحزاب . . ولكن النحاس وبقية الأعضاء وافقوا على التطهير . . وقرر الوفد طرد كل من: الدكتور حامد زكى وعبد اللطيف محمود وحسين الجندى وأحمد قرشى والدكتور أمين المغربى وحسن السيد فودة وغيرهم من الأسماء البارزة فى قيادات الوفد . . واستند التطهير إلى أسباب تتصل بعدم النزاهة وبعدم الانضباط الحزبى . .

مثلا خرج أحمد قرشي « باشا » فى التطهير لأنه انضم إلى نجيب الهلالى برغم أنه كان رئيس لجنة الوفد فى أسيوط . . أما الدكتور حامد زكى فقد اتهمه الدكتور محمد صلاح الدين بأنه أفشى أسرار مجلس الوزراء الوفدى واتخذ موقفاً معارضاً للوفد فى إلغاء المعاهدة وكان على اتصال مستمر بالسفير البريطانى وسفراء الدول الأجنبية كما فتح باب الحملة ضد رئيس مجلس الدولة وقام بمحاباة بعض موظفى القصر عندما كان وزيراً للمالية بالنيابة . .

وبالنسبة لفصل عبد اللطيف محمود فقد ظهر أنه كان يضارب فى بورصة القطن عندما كان وزيراً للزراعة . . وأما حسين الجندى فقد حاول إرضاء الملك فاروق وذلك بإثبات نسبه إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام . . وبالنسبة لأعضاء البرلمان الآخرين الذين فصلوا من الهيئة الوفدية فذلك لأنهم « اتجروا بعضويتهم البرلمانية فى عقد صفقات تعود عليهم بالربح » . .

وعلى أثر قرارات التطهير لم يلبث أن تنازعت الوفد الأطماع الشخصية وانقسم إلى ثلاث مجموعات متضاربة :

المجموعة الأولى : ويتزعمها عبد السلام فهمى جمعة ومعه أحمد الحضرى وبعض أعضاء الوفد والهيئة الوفدية . . وكان عبد السلام جمعة يطمع فى خلافة مصطفى النحاس .

المجموعة الثانية : ويتزعمها محمد صلاح الدين ومعه عبد الفتاح حسن وبعض الأعضاء الآخرين . . وكان صلاح الدين يريد أن يخلف فؤاد سراج الدين . .

المجموعة الثالثة : وفيها أحمد أبو الفتح وابراهيم طلعت وبعض شباب الوفد . . وكانت تحمل فى رأسها مشروعات الإصلاح والتطور . .

وبالطبع كانت قيادة الثورة أسعد ماتكون بهذا التمزق الذى أصاب حزب الأغلبية فقد جاءت نتائج النداء الفخ بأسرع مماتتصور وكانت تراقب انهيار الأحزاب وتآكلها شيئاً فشيئاً .

وقال اللواء نجيب للصحف بعد قرارات تطهير الوفد :

« أنه غير راض عن الطريقة التى اتبعها الوفد فى تطهير صفوفه . . وإن عناصر الفساد فى الوفد ماتزال موجودة فى القيادة وأنها لم تمس . . » !

وكان يقصد – بالطبع أن التطهير لم يتناول قيادة الوفد العليا . . أى هيئة الوفد المصرى . . !

ولم يكد ينقضى الأسبوع الأول من سبتمبر حتى كانت الثورة توجه ضربتها القاصمة للأحزاب وللسياسيين القدامى . .

فقد تكشف لها من خلال الممارسة والتجربة استحالة التعاون مع رجال السياسة والأحزاب الذين شاركوا فى نسج مأساة النظام القديم . . وظهر ذلك بوضوح عندما اعترض على ماهر – رئيس الوزراء – على قانون الإصلاح الزراعى ، وجاهر بمعارضته فى اجتماع شامل لكبار الإقطاعيين فى مبنى مجلس الوزراء وكان قد دعاهم لأخذ رأيهم فى المشروع . . ثم سافر على ماهر إلى مرسى مطروح واجتمع بعدد كبير من ضباط الجيش – من المنطقة الشمالية – لكى يخلق رأياً عاماً ضد القانون بعد أن وجد تصميم الثورة عليه باعتباره حجر الزاوية فى مبادئها . .

إقالة على ماهر واعتقال السياسيين :

وكان لابد من الصدام الحتمى بين التفكير الحزبى والتقليدى وبين التفكير الثورى المتحرر . . وكان لابد من أن تتحمل الثورة المسئولية كاملة وكان لابد من المواجهة وتمت إقالة على ماهر مع أنها أخذت شكل الاستقالة وتولى رئاسة الوزارة اللواء محمد نجيب بنفسه حتى يقضى على عملية الازدواج فى الحكم وحتى تنطلق الثورة فى تحقيق مشروعاتها وأهدافها . .

وكانت الخطوة التالية والحاسمة عندما تم اعتقال زعماء الأحزاب – أو الرؤوس الكبيرة وفى مقدمتهم فؤاد سراج الدين وابراهيم عبد الهادى وسليمان غنام . .

وأصدرت الثورة القانون رقم ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ الذى يقضى بضرورة إعادة تنظيم الأحزاب السياسية والزامها بإيداع أموالها فى البنوك للصرف منها وتقديم اخطار بذلك لوزير الداخلية مدعماً ببيان عن نظام الحزب وأعضائه المؤسسين ، وموارده المالية ، وأعطى القانون لوزير الداخلية حق الاعتراض على تكوين الأحزاب . .

وكانت هذه الإجراءات مفاجأة للأحزاب . . وللوفد بالذات . .

فقد كان التصور العام لنداء التطهير – وقتها – أن التطهير منتهى المطلوب من الأحزاب ولم يكن أحد يتصور أن الثورة يمكن أن تمضى إلى حد الاعتقال والمحاكمة لزعماء الأحزاب وكبار السياسيين . .

ومن هنا بدأ الوفد يدور حول نفسه – شاعراً بالخطر الذى يتهدد كيانه وقام بمحاولة لتطهير نفسه بعد خطوات التطهير التى مارسها ضد نفسه وقام النحاس بحل الهيئة الوفدية وأعاد تشكيلها من الأعضاء القدامى بينما فتح الباب أمام العناصر الجديدة التى تريد الانضمام إليه . . ثم وضع برنامجاً متطوراً يتماشى مع شعارات الثورة فى الإصلاح الزراعى والعدالة الاجتماعية وأعلن الوفد نفسه « هيئة سياسية ديمقراطية اشتراكية » . .

ولكن برغم هذه الخطوات فإن التصدع فى بناء الوفد بات واضحاً أمام عيون قيادة الثورة . . وبدأت من جانبها ممارسة مزيد من الضغط حتى ينهار الوفد تماماً ويفقد شعبيته ، وتتخلص الثورة من قوته الجماهيرية . .

والشىء الغريب أن الوفد ساعد على تحقيق هذا المخطط بنفسه – وبدون أن يدرى عندما بدأ يتخلى عن قياداته ويقدم التنازلات المتعاقبة ، فقد تخلى عن فؤاد سراج الدين ومحمود سليمان غنام خلال وجودهما فى المعتقل واستبعد الاثنين – بصفة مؤقتة عند إعادة تشكيله حتى يتضح موقفهما . . وكان فؤاد سراج الدين – وقتها واقعاً تحت ضغوط مكثفة فى المعتقل لكى يستقيل من الوفد فى مقابل الإفراج عنه . . ولكنه رفض فى البداية مناقشة الموضوع من أساسه .

وحينما رأى موقف الوفد منه على هذه الصورة قدم استقالته من الهيئة الوفدية نهائياً وغير مشروطة وأرسلها من المعتقل . .

وكانت هذه التنازلات المتوالية سبباً مباشراً فى إضعاف الوفد — كما كان ابراهيم عبد الهادى سببا فى تفتيت السعديين وتهلهل صفوفهم وكان من الطبيعى أن تتصاعد الثورة بضغوطها وكان من المنتظر أن يكون مصطفى النحاس — زعيم الوفد ذاته — هو الهدف النهائى . .

واتصل سليمان حافظ — الذى كان يقوم بدور العقل القانونى للثورة فى تلك الفترة بالدكتور محمد صلاح الدين وأبلغه اعتراض الثورة على مصطفى النحاس وأنه يجب استبعاد اسمه من جميع التنظيمات الجديدة للوفد . . وكان الطلب لطمة لأكبر رأس فى أكبر حزب . .

ولكن الوفد لم يستسلم تماماً هذه المرة ودخل فى صدام مع الثورة . . وكتب أحمد أبو الفتح فى جريدة المصرى يقول : من له مصلحة فى التخلص من النحاس أكثر من الإنجليز ؟

والواقع أن الدوائر السياسية الانجليزية والصحف الانجليزية كانت تشن على النحاس حملة مركزة وكانت تتهمه بأنه أفسد العلاقات بين مصر وبريطانيا بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ .

ولذلك انتفض الوفديون للدفاع عن الزعيم وعقدت الاجتماعات ودارت الاتصالات بين لجان الوفد فى جميع أرجاء مصر وخرج الوفديون بقرار نهائى :

أن يكون النحاس رئيساً . . أو لا يكون الوفد كله . . !

ووصل التحدى إلى درجة أن الوفد قرر فى اجتماعه يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٢ ألا يقدم إخطاره لوزير الداخلية طبقاً لقانون تنظيم الأحزاب .

ولكن قيادة الثورة واجهت هذا التحدى بنفس الدرجة من العنف ، وكان واضحاً أنها وضعت حزب الأغلبية فى « الفخ » الذى لا يمكنه الخروج منه وفى رأيى أن نزول الثورة فى شخص اللواء محمد نجيب إلى الجماهير كان خطوة بارعة وحركة التفاف حول الوفد والأحزاب لكى تسحب من تحتها تأييد الجماهير . .

واذكر هذه الرحلة التى قام بها اللواء نجيب وضباط الثورة إلى الوجه البحرى وذهب نجيب إلى سمنود – مسقط رأس النحاس – واقتحم معقل الوفد الحصين واستقبله الشعب هناك بحماس لم يشهده غير النحاس . . وكانت الرحلة بمثابة استفتاء شعبى على الثورة واهتزت أعمدة الوفديين . .

وفى أعقابها مباشرة أخذ الوفد يتراجع عن موقف التحدى وقدم اخطاره فى ٦ اكتوبر إلى وزير الداخلية ، وجعل عبد السلام فهمى جمعة رئيساً للوفد واكتفى بوضع النحاس رئيساً فخرياً للحزب مدى الحياة . . وهكذا سقط النحاس من المسرح السياسى لأول مرة . .

وكان هذا التنازل الأخير من الوفد – وتضحيته بالزعيم – شهادة إنهاء الوجود السياسى . . ورفض شباب الوفد هذا الموقف وقدم احمد أبو الفتح وابراهيم طلعت وغيرهما استقالاتهم احتجاجاً على تخاذل الهيئة الوفدية تجاه النحاس . .

كل هذه التراجعات من جانب حزب الأغلبية كانت عاملا مشجعاً للثورة لكى تقدم على خطوتها الحاسمة نحو الحزبية وتوجه ضربتها القاضية . . وفى ١٧ يناير ١٩٥٣ أصدرت قانون حل الأحزاب ومصادرة أموالها لصالح الشعب وقيام فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات . .

وفى نفس الوقت كان جمال عبد الناصر يبحث فى تشكيل تنظيم جماهيرى تطل منه الثورة على الجماهير ويحتوى مبادئها . ومن هنا نبت التفكير فى هيئة « التحرير » لكى تأخذ مكان الوفد والأحزاب وبعد حل الأحزاب بأيام أعلن اللواء محمد نجيب ميلاد هيئة التحرير « باسم الشعب المصرى وباسم آلامه وأحزانه وباسم حريته وكرامته وباسم حقه فى الحياة الحرة الكريمة » ولكن الخطأ القاتل الذى وقعت فيه هيئة التحرير : أن العسكريين تولوا تشكيلها وحدهم وأعطى عبد الناصر مسئوليتها إلى الصاغ ابراهيم الطحاوى والصاغ أحمد طعيمة . . !



بعد أول لقاء لى مع اللواء محمد نجيب عام ١٩٥٢ بالبدلة الشركستين البيضاء والمنشة والطربوش المعووج والمنديل المطل من الجيب العلوى . وكان حاضرا هذا اللقاء جمال عبد الناصر .

وقال لى فيما بعد أنه لم يكن يعجبه شكلى !!

الفصل الثانى عشر

وقال: جمال سالم
أنا لا أسمح لك!!

لم يكن أحد يصدق ما حدث بعد خمسة وأربعين يوماً من الثورة . .

ولم يكن الفلاحون المعدمون أنفسهم يتصورون أنه سيجيء اليوم الذى يتسلمون فيه خمسة أفدنة ويصبحون ملاكاً للأرض التى عاشوا على ترابها عبيداً للإقطاع . .

أبداً . . كان الأمر مجرد حلم بعيد المنال . . بل أنه كان ضرباً من المستحيل . .

ولو قلت أن نجوم السماء كانت أقرب من الوصول إليه . . فإننى أقول بعض الحقيقة . .

ولو قلت أن الفلاحين أنفسهم لم يصدقوا حرفاً واحداً من كلامنا فى بادىء الأمر ــ بل أن معظمهم أخذ بجانب الحيطة والحذر حتى يرى مدى تحقيق الوعود ــ فإننى أنقل صورة من الواقع الذى رأيته بعينى وسمعته بأذنى . .

ولا أنسى ما قاله لى واحد منهم ليلة توزيع أول دفعة من الأراضى على الفلاحين بطريقة بسيطة وذكية : « يا بيه ما تغلبوناش معاكم . . إحنا لا عاوزين أرض ولا حاجة . . وقولوا لنا بس عاوزين ندفع كام إيجار الأرض دى كل سنة . . ؟ »

ومن هنا أستطيع أن أقول : إن الإصلاح الزراعى هو نقطة « التحدى » الحقيقى لثورة يوليو . .

كان طرد فاروق . . وتطهير الحاشية . . وحل الأحزاب . . وعزل السياسيين عبارة عن مقدمات للثورة الحقيقية التى غيرت الخريطة على أرض مصر . .

ولكن كان تطبيق الإصلاح الزراعى هو المرحلة الأكثر أهمية وخطورة . . وكان يبدو لأول وهلة كالنقش على الماء . . أو الرسم فى الهواء . .

والواقع أن أكثر الناس تفاؤلا كان لا يتصور إمكان الوصول إلى التنفيذ العملى لقانون الإصلاح الزراعى . . وكانوا يتساءلون : ثم ماذا ؟ . . ماذا بعد أن تأخذوا آلاف الأفدنة من كبار الملاك ؟ . . وماذا بعد أن تضع الحكومة يدها على الملكيات الكبيرة ؟ . . وماذا تفعلون بهذه المساحات الشاسعة التى كان يزرعها هؤلاء الملاك بإمكانياتهم غير المحدودة ؟

ولولا أننى كنت من أشد الزراعيين إيماناً بهذه الفكرة منذ شبابى . . ولولا أننى كنت أرى فيها حلم حياتى . . لما تحملت تلك الصعاب التى واجهتها عندما تصديت لمسئولية الإصلاح الزراعى . . ولما ضحيت بدخلى ومناصبى فى الشركات التى كنت عضواً فى مجالس إدارتها . — وكان هذا الدخل يصل إلى ١٢ ألف جنيه فى السنة — كل ذلك لكى أتفرغ للفكرة التى آمنت بها طريقاً للعدالة الاجتماعية وتطبيقاً عملياً للثورة . .

ولكن لماذا أسبق سياق الأحداث ومسارها التاريخى ؟ . . ولماذا أقفز إلى النتائج مرة واحدة ؟

لقد كانت المرحلة التالية بعد تطهير الأحزاب ثم حلها . . هى صدور قانون الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ — تاريخ لا ينسى — وتم تحديد الملكية الزراعية بمائتى فدان . . وكان الأمر كله مفاجأة للسياسيين القدامى وكبار الملاك . . لأنهم تصوروا أن « حركة » الجيش قد توقفت عند حد معين هو : طرد الملك . .

وكان على ماهر — رئيس الوزراء الذى جاء به ضباط الثورة إلى الحكم يعارض الإصلاح الزراعى — بالصورة التى أرادتها الثورة — وكان يرى فيه قفزة إلى المجهول وكان الرجل معذوراً فى مخاوفه بحكم التفكير التقليدى للسياسيين ورجال الأحزاب وكان من المحتم أن يصطدم التفكير الثورى المتحرر بذلك التفكير المتحفظ . .

واقتنعت الثورة بأن ممارسة المسئولية هى قدرها . . ولا مفر من مجابهة الأمور وتولى سلطة الحكم بنفسها . .

وبدأ دورى مع الإصلاح :

واستقال على ماهر . . وجاءت أول حكومة للثورة برئاسة محمد نجيب . .

وكان عبد العزيز عبد الله سالم وزير الزراعة فى هذه الحكومة . . وللعلم فإن الرجل له مكانة خاصة وتقدير كبير فى نفوس الزراعيين . . وكان يحظى بثقتهم أيضاً . . وكنت أعرفه عن قرب ، بحكم أنه من رواد الزراعيين فى مصر . . ومن الخبراء القلائل فى تربية الحيوانات . . وكانت له اهتماماته الخاصة بتطوير حياة الفلاحين ، وضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية فى الريف .

وفى أحد الأيام بعد صدور القانون اتصل بى عبد العزيز عبد الله سالم وقال لى : هل قرأت قانون الإصلاح الزراعى جيداً ؟

وكان جوابى عليه إننى اطلعت عليه – مثل غيرى – فى الصحف . . ولكنه قال لى باهتمام :

لا . . المسألة أكبر من ذلك . . أريدك أن تدرسه معى وتفكر فى الخطوات العملية لتنفيذه . . وتعطينى تصورك لكيفية تطبيقه على الطبيعة . . خصوصاً وإننى أعلم مواقفك فى مجلس النواب – من قبل – من أجل الإصلاح الزراعى . . وهذا هو الذى جعلنى أفكر فيك . . ودفعنى إلى الاستفادة من دراساتك حول هذا الموضوع.. وأخذت أعيد قراءة القانون – بالتفصيل– ومن زاوية مختلفة : كنت أتخيله فى رأسى واقعاً ملموساً . . وكانت حروفه تتحول أمام عينى إلى تطبيق عملى..

وعكفت على دراسة نقاطه المختلفة : من تحديد الملكية . . إلى الاستيلاء على الأرض الزائدة . . إلى إعادة توزيعها على الفلاحين وأسلوب زراعتها . .

وبدأت أناقش عبد العزيز عبد الله سالم فى التطبيق وقلت له :

هل تعرف مدى الصعوبات التى تعترض طريق التنفيذ للقانون ؟ . . والمتاعب المنتظرة مع كبار الملاك والفلاحين ؟

وهز الرجل رأسه موافقاً على التساؤل وقال لى :

أعرف ذلك تماماً . . ولكن يجب أن نضع فى حسابنا أنه الاختبار الحقيقى للثورة . وأن الإصلاح الزراعى هو الوجه الاجتماعى الجديد الذى تطل به على الشعب . . وإذن يمكنك أن تدرك مدى أهميته بالنسبة لرجال الثورة ومدى حرصهم على نجاحه .

وشيئاً فشيئاً تكونت فى ذهنى صورة متكاملة لكيفية تطبيق الإصلاح الزراعى . .

ولابد لى أن أعترف بالفائدة التى خرجت بها من تجربتى فى سنوات شبابى فى « كفر الأربعين » بين الفلاحين ومن خلال احتكاكى اليومى بمشاكل الزراعة . .

ولابد لى أن أعترف — أيضاً — بمدى الخبرة التى اكتسبتها من خلال ممارستى البرلمانية فى مجلس النواب عندما وقفت وحدى فى مواجهة العاصفة العاتية دفاعاً عن الإصلاح الزراعى واقتناعاً كاملا بفكرته . .

كلها عوامل ساعدتنى على صياغة الصورة الواقعية لما بعد تحديد الملكية الزراعية . . وأصبحت كما لو كنت أقرأ كتاباً مفتوحاً أمامى وموضحاً بكل الخطوات والتفاصيل . .

وبعدها تشكلت اللجنة العليا للإصلاح الزراعى . .

عبد الناصر يعترض على اسمى :

وكما فهمت كان الهدف منها يتركز فى التخلص من المعوقات الإدارية العتيقة . . وإنقاذ القانون من براثن الروتين الحكومى والبيروقراطية . . وكان مجلس قيادة الثورة يريد أن يتخطى الإصلاح الزراعى جميع الحواجز ويكون نموذجاً للعمل الثورى . .

ورشحنى عبد العزيز عبد الله سالم لعضوية هذه اللجنة . .

وكان مجلس الثورة قد وزع الاختصاصات داخله حتى لا تتضارب المسئوليات بين أعضائه . . وتولى قائد الجناح جمال سالم مسئولية الإشراف على الإصلاح الزراعى . . وعندما اختارنى وزير الزراعة عبد العزيز عبد الله سالم لتلك المسئولية قال : إنه يريد الاستفادة من خبرتى ودراستى السابقة لموضوع الإصلاح الزراعى .

وذهب جمال سالم وعرض الترشيح على جمال عبد الناصر.. وكان تعليقه مفاجأة غير متوقعة . . وكما عرفت فيما بعد قال عبد الناصر :

« هو سيد مرعي ده . . اللى كان لابس البدلة الشاركسكين البيضاء . . وعاوج الطربوش . . وحاطط منديل مدلى من جيبه . . ؟

كانت هذه هي الصورة التي رآني بها أثناء مقابلتي له لأول مرة في مكتب اللواء محمد نجيب في القيادة . . وظلت هذه المواصفات عالقة في ذاكرته ولم ينسها أبداً ، خصوصاً بعد أن اصطدمت به خلال الحديث عن تطهير الأحزاب . .

وقد ذكرني الرئيس عبد الناصر بهذه الصورة أكثر من مرة — بعد أن توطدت العلاقة بيننا فيما بعد — **وكان يقول لى ضاحكاً كلما تذكر هذه الواقعة :**

« إنى لا أنسي منظرك وأنت جالس أمامي وتضع رجلا على رجل . . ونفختك وعوجتك للطربوش خلتنى لا أستريح لك ولا أستخف دمك وقتها . . » .

« لكن إنت كمان كنت بتقاطعنى . . وتهاجمنى بدون مناسبة . . » .

وابتسم الرئيس عبد الناصر وقال لى :

« لو قدرت يومها . . كنت شيلتك إنت والكرسى اللى قاعد عليه . . ورميتك من الشباك . . » .

المهم اعترض جمال عبد الناصر — وقتها — على اسمى وقال مرة أخرى لعبد العزيز عبد الله سالم :

« إسمع . . إن هذا الشخص الذى يرتدى البدلة البيضاء ويعوج الطربوش . . لا يصلح لأى شيء ولا أوافق على عضويته لجنة الإصلاح الزراعى . . » .

وحاول عبد العزيز عبد الله سالم أن يدافع عنى وقال لجمال عبد الناصر وجمال سالم وباقى أعضاء مجلس الثورة :

« إننى لا أرشح سيد مرعى عن صداقة شخصية ، وإنما عن اقتناع كامل بأنه الوحيد من الزراعيين الذى له دراية بالموضوع . . والمصلحة تقتضى أن نستعين بخبرته الزراعية ودراسته للإصلاح الزراعى بصرف النظر عن شكله أو أسلوبه فى الكلام . . . » .

ولكنهم رفضوا الترشيح . . ولم ييأس عبد العزيز عبد الله سالم وعاود الكرة فى جلسة أخرى مع جمال سالم وأقنعه بأن يرانى أولا ثم تشكل اللجنة بعد ذلك وأخذ يدافع عنى بحماس . . وهنا أتوقف قليلا لكى أقول . . إننى لم أعرف شيئاً من هذه التفاصيل من عبد العزيز عبد الله سالم ، فقد كان حريصاً على إخفائها عنى وظل متمسكاً بى ، ولو كنت عرفت ذلك لرفضت عضوية اللجنة ، لكننى ظننت أنه يتمسك بترشيحى باعتبار أننى طالبت من قبل الثورة بالإصلاح الزراعى وتحديد الملكية . .

أزمة مع جمال سالم :

ومضت الأحداث فى طريقها . . وتكونت اللجنة العليا للإصلاح الزراعى . .

ولم يكن يدور فى ذهنى أن الاجتماع الأول لها سيبدأ بأزمة عاصفة . . وأن اللقاء الأول بينى وبين جمال سالم سوف ينتهى بخناقة عنيفة . .

وهكذا شهدت هذه القاعة الواسعة فى مبنى المتحف الزراعى ثانى صدام لى مع أعضاء مجلس قيادة الثورة :

كان الأول مع جمال عبد الناصر فى القيادة العامة . .

وجاء الثانى – بعده – مع جمال سالم فى اللجنة العليا للإصلاح الزراعى . .

ويشاء القدر أن تتحول تلك القاعة – فيما بعد – إلى غرفة مكتبى عندما كنت وزيراً للزراعة فى الوزارة المركزية . .

المهم ذهبت إلى الاجتماع الأول وفى يدى ملف كامل ملىء بالدراسات والبحوث عن قانون الإصلاح الزراعى وتطبيقاته . . . ووجدت نفسى بين الدكتور

عبدالرزاق السنهورى والدكتور عبدالجليل العمرى وعبد العزيزعبداللهسالم وغيرهم من أعضاء اللجنة . . وجلست معهم فى انتظار بدء الاجتماع . .

وفجأة توقفت سيارة جيب عسكرية أمام المبنى ونزل منها ضابط طويل يرتدى نظارة سوداء . . وظننت أول الأمر أنه مندوب القيادة ولكن وزير الزراعة عبد العزيز عبد الله سالم مال على أذنى وقال لى : أنه جمال سالم عضو مجلس الثورة . والمسئول عن تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى . .

وعندما دخل الغرفة كانت العصبية واضحة فى قسماته وحركاته . . وكانت المرة الأولى التى أراه فيها بعد ما سمعت عنه عدة مرات من قبل . .

وبدأ الاجتماع وأخذ جمال سالم يتحدث عن القانون . . وأهدافه . . ونتائجه . وقبل أن يسترسل فى حديثه تدخلت وقلت له :

اسمح لى أن أحدد فى الأساس نقطة هامة . . إن هذا القانون فى حاجة إلى تعديل .

وظهرت معالم الضيق الممزوجة بالدهشة على وجه جمال سالم وسألنى : ما هو التعديل الذى تقصده . . ؟

فأخذت أشرح وجهة نظرى من خلال دراستى العميقة للقانون . . وقلت له . .

إن التعديل الذى أرى إدخاله على القانون ينصب على التطبيق . . بالنسبة للدورة الزراعية . . وأيضاً بالنسبة لطريقة توزيع الأراضى . . وإقامة الجمعيات التعاونية الزراعية . . لأنها كلها عوامل مؤثرة على الزراعة وقد تؤدى إلى انخفاض الإنتاج .

ونظرت إلى أعضاء اللجنة ووجدتهم ينصتون إلى كلامى وتابعت شرح رأيى وقلت لهم :

كما لابد أن نتوقف قليلا بالفحص والدراسة أمام بنك التسليف ودوره بعد تغييره إلى بنك تعاونى يعطى القروض للمزارعين دون ضمان الملكية الزراعية . . و . . و . . ومضيت أتكلم باستفاضة فى جميع النقاط الحيوية للقانون ووضعت أمام الأعضاء دراسة كاملة لكل الخطوات التنفيذية . . وقلت فى النهاية :

فى اعتقادى أنه لو لم توضع تلك الاعتبارات فى الحسبان عند تطبيق الإصلاح الزراعى فإنه يكون مجرد حبر على ورق . . !

ولاحظت أن جمال سالم ينصت لى طول الوقت ولكن كانت تبدو على وجهه علامات الضيق والانفعال المكبوت . .

ولم أكد أنتهى من كلامى حتى حدثت المفاجأة غير المتوقعة . . ووجدت كل شىء على مائدة الاجتماع يطير فى الهواء . . فقد ضرب جمال سالم المائدة بقبضة يده فى عنف وعصبية وصاح هائجاً فى وجهى :

إننا لسنا تحت أمرك . . ولسنا على استعداد لسماع كلامك . .

ثم انطلق يقول فى ثورة عارمة :

إنت واهم إذا تصورت أننا جئنا إلى هنا لكى نغير ونبدل وندخل تعديلات على الإصلاح الزراعى فى أول اجتماع لنا . . وما تقوله يعتبر تخريباً للقانون . . وكل آرائك لا تؤدى إلى أى نتيجة . .

ولوح جمال سالم بقبضة يده فى الهواء وازدادت ثورته وعصبيته وقال محتداً :

هذا القانون لن يعدل فيه حرف واحد . . لأنه يمثل أوامر مجلس قيادة الثورة ولابد أن ينفذ كما هو . . بدون تعديل أو تغيير . . !

كنت أحاول طوال الوقت ضبط النفس ولكن أعصابى لم تستطع أن تحتمل أكثر من ذلك . . ووقفت فى مواجهته وقلت له :

اسمع . . أنا لست ضد الإصلاح الزراعى . . وما قلته لمصلحة القانون أولا وأخيراً . . وإذا لم تثبت أقدام القانون من ناحية التطبيق العملى . . فإنه سوف يسقط ويفشل تماماً . . وما أقوله يصلح القانون أكثر مما تقوله أنت . . !

كان الذهول والدهشة يسيطران على باقى الأعضاء الحاضرين وكانوا يترقبون نتيجة هذا الصدام الخطير بينى وبين عضو مجلس الثورة . .

وانتفض جمال سالم من ردى وقال لى :

أنا لا أسمح لك أن تكلمنى بهذا الشكل . . ولا بهذا الأسلوب . .

وازدادت حدة غضبى وقلت له :

. . وأنا أيضاً لا أسمح لك بأن تكلمنى بهذه الطريقة . . أنت طيار وأنا مزارع . . وعندما يجىء الحديث عن الطيران تتكلم أنت ، ولكن عندما يكون الحديث عن الزراعة أتكلم أنا . . لأنك لا تفهم فيها . .

وهاج جمال سالم وفوجئت به يقلب المائدة مرة أخرى ويضرب بقبضة يده عليها والجميع من حولنا صامتون . . مذهولون . . ولا ينطقون بحرف واحد . . وأحسست بالموقف يتطور إلى أسوأ . . ولم أشأ أن يمضى الصدام إلى أبعد من ذلك . . وجمعت أوراقى وقلت له :

لا داعى لأن نتشاجر معا . . المسألة لا تستلزم هذا الغضب . . إننى مستقيل من هذه اللجنة . . والسلام عليكم . .

وخرجت من قاعة الاجتماع بعد أن أيقنت أنه لا فائدة من إمكان التعاون مع هذا الرجل . . وانصرفت إلى بيتى وكنت فى حالة عصبية عنيفة . . وجلست وحدى فى غرفة المكتب أفكر فيما حدث مع جمال سالم ، وقلت لنفسى : لو أن الثورة أرادت أن تنفذ جميع خطواتها بهذا الأسلوب . . فإن من الصعب عليها أن تعثر على الرجال المخلصين ذوى الخبرات الذين يقبلون بالتعاون معها . . كنت حزيناً وآسفاً لما حدث . . ولكن لم يكن هناك بد من وقوع هذا الصدام . .

زيارة فى منتصف الليل :

كنت متعباً ومرهقاً من أحداث ذلك اليوم العاصف . . ولم تكد تجىء الساعة الحادية عشرة مساء حتى أويت إلى فراشى واستغرقت فى النوم . .

وفجأة أفقت من نومى على رنين متواصل لجرس الباب . . وتصورت لأول وهلة أننى أحلم . . وفركت عيونى وتطلعت فى الساعة : كانت الواحدة صباحاً . .

ومازال رنين الجرس متواصلا . . وخرجت بملابس النوم وحافى القدمين وأنا أسائل نفسى : من ياترى هذا الزائر القادم بعد منتصف الليل . . ؟

وفتحت الباب . . ورأيت آخر شيء يمكن أن أتوقعه فى تلك الليلة بالذات . .

كان جمال سالم واقفاً أمامى يحمل حقيبة أوراقه والعصا تحت إبطه . . وكانت تبدو عليه علامات الإرهاق والتعب الشديدين ووجدته يقول لى :

هل تسمح لى أن أدخل . . ؟

وأفسحت له الطريق ودعوته لدخول غرفة المكتب . . وألقى بنفسه على أول مقعد وقال لى بصوت منهك وخافت :

تصور أننى لم أذق لقمة واحدة منذ الصباح . . ! .

وشعرت على الفور بأن هذا الرجل العصبى الصعب له قلب طفل صغير . . ودعوته إلى العشاء فهز رأسه وقال لى بطريقة أهل الريف البسيطة السمحة :

لا أريد أن أتعبك . . خصوصاً بعد ما حدث بيننا اليوم . .

وأيقظت زوجتى من النوم لإعداد العشاء ، وبعد أن انتهى من طعامه أخذنا نتحدث بصراحة وقال لى : أنا لم يعجبنى سلوكك معى فى اللجنة . .

فقلت له لا داعى للعتاب فى هذا الموضوع ، وإذا أردت أن تأخذ رأيى فى موضوع ما فى أى وقت . . . . يمكنك أن تزورنى أو أجيء إليك ونتفاهم معاً فى هدوء دون أن نثير مثل هذه المناقشات فى اجتماعات اللجان . . وأحب أن أقول لك أن حديثى فى الاجتماع بهذه الصراحة والوضوح لم يكن إلا حرصاً منى على القانون . .

وابتسم جمال سالم وقال لى :

أقول لك الحق . . إنك أعجبتنى أكثر من أى واحد آخر فى اللجنة لأن عندك شجاعة فى الرأى أكثر منهم جميعاً . .

ووجدتنى أقول له :

إذن . . هل شجاعة الرأى تدعوك لأن تكلمنى بهذه الطريقة المهينة أمام الحاضرين وتقلب مائدة الاجتماع مرتين . . ؟

وأخذ جمال سالم يعتذر عما حدث وقال بأسلوب الفلاح الشهم :

من أجل ذلك . . حضرت لك فى بيتك . . والآن أريدك أن تتعاون معى وتنسى ماحدث . .

قلت له : لامانع عندى . . ولكننا سنتشاجر مرة ثانية . .

وبرقت عيناه بوميض خاطر سريع وقال لى : عندى فكرة لمنع هذا الصدام .. وهى أننا نعين عضواً منتدباً لهذه اللجنة ـ بمعنى أن يكون عضواً مسئولا عن أعمالها ـ وإذا لم ينجح فى مهمته نقطع رقبته . . وستكون أنت هذا العضو المنتدب . .

وقلت لجمال سالم : إننى أقبل ذلك وأتحمل هذه المسئولية . . ولكن بشرط ألا يتدخل أحد فى عملى ..

ووافق جمال سالم وقال لى : إننا لن نعينك فى الاجتماع القادم . . ولكنك ستكون العضو المنتدب للجنة فى الاجتماع الذى يليه مباشرة . .

وعلمت فيما بعد أنه كان لابد أن يؤخذ رأى جمال عبد الناصر فى هذا التعيين .. ومر الاجتماع الثانى فى هدوء ولم تحدث أية مشادة بيننا . . وصدر بالفعل فى الاجتماع الثالث قرار التعيين وأصبحت عضواً منتدباً للإصلاح الزراعى . . وبدأت المسئولية الكبرى والحقيقية . .

كان وزير الزراعة هو رئيس اللجنة العليا للاصلاح الزراعى وكان جمال سالم عضواً فيها يمثل مجلس قيادة الثورة . . وانتقل مقر اللجنة بعد ذلك إلى قصر عابدين ..

وجاءنى جمال سالم وطلب منى أن نبحث جدول الأعمال معاً قبل عرضه على اللجنة ـ للتنسيق بين آرائنا ـ وكانت الموضوعات التى نتفق عليها هى التى تعرض على اللجنة أما الموضوعات التى نختلف عليها فكانت تؤجل إلى جلسة أخرى حتى يقنع أحدنا الآخر بوجهة نظره . . وهكذا بدأت مرحلة عمل ثورى جاد ومثمر وقد تأكدت من خلالها حقيقتان .

- أنه من الممكن إنشاء جهاز عمل تنفيذى فى مصر لايخضع للروتين ولايكون أسير البيروقراطية واللوائح ، ويعمل على درجة عالية ومتطورة من الكفاءة .

• إنه من المستطاع نجاح مشروع ضخم – مثل الإصلاح الزراعى – دون الاعتماد على الدولة ودون أن يأخذ مليما واحداً من ميزانية الحكومة وعلى العكس كانت ميزانية الإصلاح الزراعى تحقق دخلا للدولة . . ويكفى أن أقول : إن هذا العمل الكبير بدأ بثمانية موظفين فقط وحقق خطواته الأولى الناجحة بجهاز صغير دائب على العمل ليل نهار .. بينما وصل عدد موظفى الإصلاح الزراعى الآن إلى أكثر من تسعة آلاف بعد أن وقع تحت سيطرة الروتين . .

تنفيذ قانــون الإصلاح :

كما قلت فى البداية . . لم يكن الطريق سهلا ولا مفتوحاً أمام الإصلاح الزراعى . .

ولم تكن الخطوات التالية لتحديد الملكية الزراعية واضحة المعالم . . محددة التفاصيل . . حقيقة صدر القانون . . ولكن كيف يمكن تنفيذ القانون ؟

كانت هناك صعوبات متكاثفة على مدى مئات السنين . . وكانت هناك حواجز أكبر من المستحيل .

ولذلك سار قانون الإصلاح الزراعى – خلال الأسابيع الأولى لوجوده – يخطى ببطيئة متثاقلة كادت تودى بحركته كلها وتصيبه بالشلل . . ثم أخذ يتدرج فى الطريق المرسوم حتى تخطى كل العقبات وبدأ يقف على قدميه . .

وكانت نقطة البدء فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٢ عندما وقع وزير الزراعة ١١٢ رسالة وجهها إلى الملاك الذين قررت اللجنة العليا الاستيلاء على الزائد من أرضهم طبقاً للحد الأعلى للملكية الزراعية وهو مائتا فدان . . . . وهذه الرسالة التى تحمل رقم واحد فى ملف الإصلاح الزراعى تعتبر وثيقة تاريخية هامة لأنها الحد الفاصل بين الإقطاع والعدالة الاجتماعية على أرض مصر . . كان نص الرسالة :

« تنفيذاً للمادة ١ ، ٢ ، ٣ من قانون الإصلاح الزراعى رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ قد قررت اللجنة العليا للاصلاح الزراعى أن تستولى على المساحة التى حددها القانون من أرضكم . . وقد انتدبت اللجنة السيد . . . .

مندوباً عنها للتعرف على المنطقة ومعاينة الأراضي — سواء كانت مؤجرة أو منزرعة على الذمة — وذلك حتى يتسلم من اللجنة الفرعية محاضر الحصر والتقدير التى حددتها المادة ١٢ من هذا القانون . . وإننا نهيب بوطنيتكم أن تقوموا بتسهيل مهمته ، ومعاونته فى العمل على زيادة الإنتاج ، إذ أننا فى عهد يجب أن تتضافر فيه الجهود لزيادة انتاجنا القومى والمحافظة على الثروة الزراعية» وكانت ساعة الصفر فى الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم . .

وفى اليوم الأول لتطبيق قانون الإصلاح الزراعى . ومع أضواء الفجر الزاحفة على الأفق انطلق من وزارة الزراعة ٢٢ مندوباً يحمل كل واحد منهم اسم منطقة معينة وبياناً بالأراضى التى يتضمنها قرار الاستيلاء . . وأيضاً يحمل معه شيكاً مسحوباً على البنك الأهلى . أما المناطق فقد حددت حسب الأراضى التى تتجاور قطعها بقدر الإمكان وتتراوح مساحتها بين ألفى فدان وعشرة آلاف فدان وكان بعضها غريباً فى تكوينه . . ففى إحدى مديريات الصعيد مثلا امتدت منطقة أحد المندوبين عشرات من الكيلومترات وكان عليه أن يذرعها جميعاً ويستولى على قطعة منها يفصلها عن الأخرى مسيرة ساعة . ثم قطعة ثالثة تبعد بمسيرة عدة ساعات وهكذا .. أما الشيك الذى زود به كل مندوب من هؤلاء لمواجهة الطوارىء فقد كانت قيمته لاتزيد على خمسين جنيها . . وذلك لأن وزارة المالية لم تعتمد فى ذلك الوقت أكثر من ١١٠٠ جنيه فقط لتنفيذ قانون الإصلاح الزراعى والانفاق على الـ ٢٠٠ ألف فدان التى تقرر الاستيلاء عليها فى الدفعة الأولى أى أن ماخصص للانفاق على الفدان الواحد كان ستة مليمات . ويتضح من ذلك مدى المعجزة التى حدثت على هذه المساحات الشاسعة من الأراضى إذا قورن هذا المبلغ البسيط بميزانية العام الأول للاصلاح الزراعى والتى تضمنت ملايين الجنيهات وكلما تأملت هذه الإمكانيات المحدودة الضعيفة التى سافر بها مندوبو الإصلاح الزراعى بعد مرور تلك السنوات — كلما أحسست بالجهد الخارق والعمل المخلص الذى بذلته مجموعة من الرجال — فى صمت وإنكار ذات — لتحقيق حلم الملايين وأمل الثورة . . وهنا كان التحدى .

ولو ألقينا نظرة فاحصة على خريطة الأرض الزراعية فى مصر قبل صدور قانون الإصلاح الزراعى فإننا نجد من خلال الأرقام والإحصائيات أن الذين يملكون فداناً فأقل حوالى ٢ مليون و ١٨ ألف مزارع ، بمساحة قدرها ٧٧٧٨٦٥ فدانا بينما كان الذين يضعون أيديهم على أكثر من مائتى فدان لايزيدون على ٢١٣٦ من كبار الملاك ومساحة أراضيهم أكثر من مليون و ١٧٦ ألف فدان .

وعندما صدر قرار الاستيلاء الأول على الأراضى الزائدة بلغ ما يملكه ١١٢ مالكاً حوالى ١٨٧ ألف فدان .. بالإضافة إلى مساحة الأراضى التى تم الاستيلاء عليها من أسرة محمد على — بعد مصادرة أملاكهم — وجملتها حوالى ٥٩ ألف فدان .

أما الاستيلاء الثانى فقد جاء فى أول نوفمبر ١٩٥٤ وشمل ١٢٨ مالكاً وكانت مساحة الأراضى الزائدة حوالى ٨٣ ألف فدان . .

والاستيلاء الثالث بعده بسنة واحدة فى نوفمبر ١٩٥٥ وشمل ٤٨٣ مالكاً وكانت مساحة الأراضى المستولى عليها ١٣٦ ألف فدان ، وزعت على الفلاحين المعدمين .

وكان الاستيلاء الرابع قبل أول نوفمبر ١٩٥٦ على حوالى ٦٠ ألف فدان . .

وعلى هذا النحو مضت عجلة الإصلاح الزراعى تشق طريقها وسط الصعاب والصخور . . ويكفى ماحدث للمندوبين الذين انطلقوا إلى مناطقهم خلال الاستيلاء الأول فإنهم حينما وصلوا إليها وجدوا أمامهم أكواماً من المشاكل التى لابد لها من حلول عاجلة : عشرات من ماكينات الرى توقفت لأن عطلا مفاجئاً حدث بها ، أو لأن المالك أخطر شركات البترول التى يتعامل معها بأنه أقفل حسابه بعد الاستيلاء على الأرض ولم يعد مسئولا عن زراعتها وريها . . آلاف من الفلاحين المستأجرين أخذوا يطالبون بالسماد والبذور ونفقات الحرث والرى بعد أن توقف كبار الملاك عن مساعدتهم وإمدادهم باحتياجاتهم وقالوا لهم .. اذهبوا إلى الثورة ، والأدهى

من ذلك أن الموسم الزراعى الجديد كان قد حل فعلا ولا سبيل إلى الانتظار أو الإمهال وأيضاً فإن عمليات التأجير تحتاج إلى موظفين ودفاتر وعقود ومعاينات بدلا من الدوائر والتفاتيش التى كانت تقوم بهذا العمل . .

وفى وسط هذا الخضم بحث مندوبو الحكومة فى جيوبهم فلم يجد الواحد منهم غير الخمسين جنيها التى أخذت تتبخر فى دقائق وبقى الحال كما هو فلم تصلح ماكنيات الرى بالمنطقة ولم يصل الديزل والسولار إليها ، ولم تتحرك عصا الساحر لتحضر السماد والبذور .

وأمطرت القاهرة بوابل من البرقيات وصلت جميعها وكأنها كانت على ميعاد وصيغت فى عبارة واحدة تطلب البذور والتقاوى والسلف أو المصاريف النقدية .

مشكلة تسليف الزراع :

كانت الهيئة التنفيذية تتألف فى ذلك الوقت من ثلاثة أقسام . قسم يتولى سكرتيرية اللجنة العليا ، ويتلقى ذلك السيل من المشاكل لينسقها ويعرضها ويحصل على حلولها وقسم يستولى على الأرض الزائدة ، وقسم يدير المزارع ويشرف على تأجيرها .

وقد لجأت الهيئة التنفيذية إلى بنك التسليف الزراعى تطلب منه أن يسعف المندوبين بحاجتهم . . ونظر البنك فى دهشة إلى هؤلاء الذين طلبوا منه أن يقرضهم مئات الألوف من الجنيهات وسأل إذا كان لديهم من الضمانات مايجعله يطمئن ولما لم يجد لديهم شيئاً . . صرف النظر عنهم .

ثم لجأت الهيئة التنفيذية إلى مصلحة الوقود فى مد ماكينات الرى فى أراضى الإصلاح بحاجتها من الوقود ، فنظرت مصلحة الوقود فى دهشة إلى هذا الطلب الذى لم تصحبه تفاصيل الاستهلاك السابق واللاحق ولا ماركات الماكينات ولا عمرها .. إلى آخر هذه التفاصيل التى تحتاج إلى سنوات لإعدادها .

ولم يقف الأمر عند ذلك بل لجأت الهيئة التنفيذية إلى مصالح حكومية أخرى لتدبر لها قطع الغيار ومعدات النقل فى المزارع وغير هذا وذاك مما تتطلبه إدارة

العمل . وهزت المصالح الحكومية رؤوسها آسفة لأن هذه الطلبات لم تستوف إجراءاتها الروتينية ، وأهم ركن لم تستوفه منها أنه لا يوجد بند فى الميزانية يسمح بصرف هذه الطلبات منه .. على فرض قبولها .

كل هذا لم يثن من عزم الهيئة فلجأت إلى ديوان الموظفين تستأذنه فى تعيين العدد اللازم من المفتشين والنظار والكتبة الذين لابد لمندوبى الحكومة منهم للإشراف على هذه المساحات الواسعة من الأرض . والتى يجب أن تؤجر فورا لحوالى ستين أو سبعين ألف مستأجر ، فقال لابد أن يسبق ذلك اعتماد فى الميزانية وربط درجات لهذه الوظائف .

وفى وسط هذه الأعاصير المظلمة لاح بريق من أمل ، فقد أخذ مندوبو الحكومة يحصلون إيجار الأراضى من الفلاحين ، ذلك الإيجار الذى يسلم للصيارف وهؤلاء بدورهم يسلمونه لخزائن المديريات .

ولما أرادت الهيئة التنفيذية أن تعتمد على هذه المبالغ فى تسيير أمورها عجبت المالية من جهل الهيئة التنفيذية ، وقالت أن المبالغ المحصلة قد أدرجت فى إيرادات الدولة ولا سبيل إلى الصرف منها إلا بقانون .

وتواضع الإصلاح الزراعى وطلب من وزارة المالية بعض دفاتر ومساطر وأقلام رصاص يستعملها المندوبون فى قيد ما يحصلون عليه من أموال الإيجارات حتى يصل الصراف على الأقل ، وأعربت المالية عن أسفها مرة أخرى لعدم استطاعتها إجابة هذا الطلب لأنها لم تحسب له حسابا عندما وضعت ميزانية الأدوات الكتابية .

ولكن الذين شرعوا قانون الإصلاح الزراعى كانوا يؤمنون به إيمانا لا تزعزعه الصعوبات مهما تكاثفت ، والقانون إجراء ثورى ترتب على حركة الجيش وتغيرت من أجل صدوره وزارة .. وما كان يمكن للذين أصدروه أن يتركوه يهوى على الصورة التى بدت كآبتها فى الظاهر .

وهنا أخذت حكومة الثورة على عاتقها مهمتين :

أولا : الخروج بالإصلاح الزراعى عن دائرة الروتين الحكومى وذلك بإصدار القانون رقم ١٣١ لسنة ١٩٥٤ ، بتعديل المادتين ١٢ و ١٣ من القانون .

ثانيا : عمل كل شئ للمحافظة على الإنتاج وتخطى جميع العقبات التى قد يؤثر التغافل عنها فى محصول هذه المزارع المستولى عليها .

وبدأ التنفيذ .. فضمنت الحكومة الإصلاح الزراعى لدى بنك التسليف فى مليون جنيه ، وأبيح للجنة العليا حق التعيين فى وظائف الكتبة والنظار والمفتشين الزراعيين فى حدود مرتبات معينة .

وكان هذا الاعتماد المالى بمثابة النور الأخضر أمام بنك التسليف الزراعى الذى أخذ يمول المناطق بحاجتها حتى بلغت قيمة ما سحب منه فى العام الأول ٦١١ ألف جنيه .

تحديات فى وجه الإصلاح :

ودارت عجلة الإصلاح دورتها دون هوادة لتعيد الحق لأصحابه والأرض لمستحقيها ، ومضت فى حركتها لا تعرف الملل فحياة الأرض لا تعترف إلا بالكفاح والمجهود المتواصل .

ولقد مر مشروع الإصلاح الزراعى بمراحل عديدة فى تنفيذه ، فكان فى تطور مستمر ينتقل من عملية إلى أخرى يوما بعد يوم .

وفى المرحلة الأولى زاد الموقف تعقيدا وصعوبة لأن كثيراً من الملاك لجأوا إلى القضاء ومجلس الدولة يطلبون الغاء قرار الاستيلاء على أراضيهم مستندين فى ذلك إلى حجج مختلفة .. وكان بعضهم يقولون : ألم يقل القانون إن الملكيات التى تخضع للاستيلاء فى العام الأول هى أكبر الملكيات وفى العام التالى الملكيات الأصغر فى المساحة وهكذا .. ؟ والبعض الآخر يقولون .. إن ما تم الاستيلاء عليه من أرضهم لابد أن يقل فى مساحته عن أرض فلان وفلان ، وهذا تخط

لحدود القانون .. ولم يكن هناك سجل عينى للأرض الزراعية وتطور الملكيات الزراعية فى مصر حتى نتبين من خلاله الحقيقة وكانت غالبية الأراضى ما زالت مسجلة بأسماء الأجداد ..

وهكذا برزت المشاكل الطارئة والأزمات المفاجئة على طريق التنفيذ .. وبدا فى وقت من الأوقات أن تلك الصعوبات المتكاثفة ستطحن تحتها قانون الإصلاح الزراعى وتدفنه بالحياة .. وإلا كيف يواجه هذه الأعاصير والمقاومة المضادة له ؟

كانت هناك مقاومة من الروتين الحكومى ..
ومقاومة أقوى من كبار الملاك ..
ومقاومة من الظروف المحيطة بالتنفيذ ..

وكان لابد من مقاومة الموقف بسرعة وإصرار .. وبحثت اللجنة العليا المشاكل من كل زواياها ، وقلت لجمال سالم .. إن هذا هو الاختبار العملى لفاعلية القانون .. ووقف مجلس الثورة فى مواجهة التحدى الخطير .. إما أن يصمد الإصلاح الزراعى ، وإما أن يفشل نهائيا ..

وقامت اللجنة العليا بتجربة الاعتماد على وطنية بعض كبار الملاك فى هذه الفترة الحرجة .. ونجحت التجربة وتغلب الدافع الوطنى على أى اعتبار آخر .. وظل بعض الملاك ينفقون على أراضيهم المستولى عليها حتى وصل حساب الوقود وحده بالنسبة لمجموعة منهم ١٨٠ ألف جنيه .. ثم صدر قرار الاستيلاء على الماكينات الزراعية وماكينات الرى وعلى قطع الغيار الموجودة فى مخازن بعض الملاك ، وأنشئت لجنة قضائية برئاسة مستشار وعضوية مندوبين من مجلس الدولة والشهر العقارى والمساحة والإصلاح الزراعى للنظر فى المنازعات التى تنشأ بين الإصلاح وبعض الملاك بسبب تطبيق القانون على ألا تكون قراراتها نهائية إلا بعد تصديق اللجنة العليا ..

وعلى هذا النحو تخطت اللجنة العليا جميع حواجز الروتين ووضعت الحلول

لكل مشكلة واستطاعت أن تحل محل الدوائر والتفاتيش الزراعية الكبيرة فى فترة قصيرة وتمسك بالدفة وتمارس الإشراف الكامل – بجدارة واقتدار – على مساحات الأرض المستولى عليها ..

وكانت اللجنة العليا تقوم بهذا العمل الكبير تحت العيون المفتوحة لخبراء الاقتصاد فى مصر وفى العالم .. وكان الجميع يرقبون خطواتها ويرصدون تحركاتها بين المشاكل والأزمات وكان البعض يقول : إن الإصلاح الزراعى مصيره إلى الفشل حتما لأن تفتيت الملكية سيؤدى إلى انخفاض الإنتاج .

وكان البعض الآخر يقول : إن المستأجرين لن يسددوا التزاماتهم ولن يدفعوا هذه الإيجارات والقروض التى عليهم .. وإن اللجنة العليا لن تسلم السندات وفوائدها إلى الملاك وكان هناك فريق ثالث يقول : إنه كان من الأسلم أن تترك الأرض فى حيازة الملاك ويكتفى بزيادة الضريبة المفروضة عليها .. وغيرها .. وغيرها ..

ولقد واجهتنا صعوبات شديدة مع بعض الملاك الفقهاء ، وأذكر من بينهم مثلا عطية شنودة .

ولعل هذا الموقف يمثل واحدا من أصعب المواقف التى تعاملنا فيها مع مالك من الملاك الذى كان يحاور ويناور كثيرا من أجل الاحتفاظ بكل شبر من أرضه ، وأراد أن يستغل الاستثناءات الواردة فى المادة الثانية من القانون والتى تقع تحت بنود ستة يستغلها إلى أبعد الحدود – وبحيث لا تبيح للدولة فرصة الاستيلاء على فدان واحد من أرضه التى بلغت حوالى ٧,٠٠٠ فدان .

وأذكر أنه فى أول أيام الثورة بادر وذهب إلى الرئيس محمد نجيب يعلن تبرعه بعشرات الألوف من الجنيهات ومئات الأفدنة من أجل إقامة منشآت خيرية دينية وكنائس ومستشفيات فى منطقة إدفو حيث تقع غالبية أراضيه وحضر إلى وقابلنى حاملا معه جريدة نشرت بها صورته مع الرئيس محمد نجيب وذكر حديثا طويلا دار بينه وبين محمد نجيب فى هذا الوقت والعلاقة القوية التى تربطه

به ثم أضاف أنه قدم مذكرة لسيادته تتضمن عدم الاستيلاء على أرضه وتخصيصها للأغراض الدينية والخيرية .

ودارت مناقشة بيني وبينه حول حتمية دراسة هذا الموضوع من الناحية القانونية وأنه لا يمكن أخذه على هذا الوضع نتيجة مقابلته لرئيس الدولة وتقديم مذكرة له ونشر صورة فى الجرائد لهذه المقابلة – لكني للأسف شعرت بأن فى كلامه شيئا من التهديد بإعادة مقابلة محمد نجيب ، وأنه سيشكو الإصلاح الزراعى له ، وهنا كان لى معه موقف لا أود أن أتعرض له هنا ، ولكن ما أود أن أقوله أننى أرسلت لجانا فنية لدراسة المنشآت الصناعية التى يرغب فى الاحتفاظ لها بمساحات كبيرة من الأراضى وكذلك معاينة الكنيسة الكبيرة التى طلب تخصيص مساحة من الأراضى الزراعية للإنفاق عليها وغير ذلك من المرافق التى عرضها فى ذلك الوقت ..

وللأسف الشديد عادت اللجان تقرر أنه لا يوجد شيء من ذلك على الإطلاق.. وكانت هذه اللجان على جانب كبير من الدقة إلى حد أنها قامت بتصوير هذه المنشآت وكيف أنها لا تعدو جدراناً أربعة من الطوب الأخضر على مساحة أمتار قليلة وأرفقت هذه الصور بالتقارير التى قدمت إلى اللجنة العليا التى قامت بدورها بإصدار القرار المناسب فى هذا الشأن بعدم الموافقة على أى من طلباته .

وموقف آخر – من المواقف الصعبة كان مع أسرة مفيد – كانت البيانات المقدمة للجنة العليا للإصلاح الزراعى عن ممتلكات أسرة مفيد من الأراضى الزراعية تمثل صورة من أصعب الأمور الخاصة بتحديد المساحات الواجب خضوعها للاستيلاء حيث أنها وردت إلى اللجنة العليا ، وجاء بعدها بوقت قصير بيان آخر من ناظر الزراعة الذى كان يعلم كل كبيرة وصغيرة وكل شبر وكل موقع لهذه الأراضى ، وعندما درست البيانات المقدمة من الأسرة وتلك المقدمة من ناظر الزراعة ظهر أن ثمة فروقا واسعة بين الاثنين ، فروقا تمثل مئات الأفدنة .

وكنا فى الإصلاح الزراعى فى موقف إما أخذ الموضوع بحسن النية أو أخذه بالشدة ..

وكان لابد من إجراء دراسة وبحث على الطبيعة لتحديد موقف هؤلاء الملاك من القانون ومدى دقتهم في تقديم البيانات وصدقهم فيها ، وعندما أوفدت لجنة لذلك إلى بلدة أبو كساه حيث تقع أراضي أسرة مفيد — وعندما تقابلت اللجنة مع رأس هذه العائلة وناقشته في الموضوع لم يكن أمامه من خيار إلا أن يعترف بأن نظار الزراعة أكثر دقة ودراية منه بحدود الأرض ومواقعها وأنه لا يعلم عن أرضه شيئا وطلب أخذ البيانات الأخيرة على أنها تمثل الواقع وقرر أنه حسن النية في ذلك .

وكان طبيعيا ألا يؤخذ تنفيذ القانون تقديرا وتنفيذا على أساس حسن النية من عدمه . وأنه لو سار الأمر على هذا الأساس لأدى إلى تسيب وتراخ أو إهمال أو إساءة إلى النظام مما قد يفسد ويعطل تنفيذ أحكامه ، لهذا راجعت القانون وتبين المادة ١٧ منه التي تقرر عقوبات على من يقوم بتعطيل أحكامه ليست بالشمول الكافي مما قد يترتب عليه عدم فاعلية القانون . وفعلا أعد مشروع قانون وقدم لمجلس قيادة الثورة وصدر القانون رقم ٤٩٥ لسنة ١٩٥٣ ويقضي بتعديل المادة ١٧ لتكون على النحو الآتي :

« يعاقب بالحبس كل من يتعمد من مالكي الأراضي التي يتناولها حكم القانون أن يحط من معدنها أو يضعف تربتها أو يفسد ملحقاتها بقصد تفويت تمام الانتفاع بها وقت الاستيلاء عليها وكذلك يعاقب بالحبس كل من يتصرف تصرفا يخالف المادة الرابعة مع علمه بذلك .

وكذلك يعاقب بالحبس كل من خالف أحكام الفقرتين الثانية والثالثة من المادة الرابعة مكررة » .

وكان سبب صدور هذا القانون ٤٩٥ لسنة ١٩٥٣ هو ذلك الموقف وتلك الواقعة ، على أنني قد أقول هنا شيئا سأعود له فيما بعد ، فبعد تطبيق هذه المادة كان من الممكن أن يعفى الدولة من توقيع الحراسات على كثير من ممتلكات الأشخاص فهي صارمة وحازمة وإجراء ووسيلة قانونية فعالة لا يمكن أن يفلت منها أي من يحاول تهريب أراض من قوانين الإصلاح الزراعي .

هناك نماذج كثيرة جدا تمثل مواقف معينة وتفهما من بعض كبار الملاك لقانون الإصلاح الزراعى لم أشأ أن أتعرض لها هنا مكتفيا بتلك الحالات – فهناك مثلا حالات كثيرة حاول بعض الملاك تهريب أراضيهم من عمليات الاستيلاء ، أو تعطيل الاستغلال الزراعى فى الأراضى التى خضعت للاستيلاء أو منع المرافق الخاصة باستغلال الأراضى من أداء وظيفتها فى خدمة الأراضى المستولى عليها أو الادعاء بالتصرف فى مساحات منها قبل صدور قانون الإصلاح الزراعى أو بالمبادلة عليها مع الغير أو برهنها لبعض الدائنين – وغير ذلك كثير وكثير ..

المعدمون يتحولون إلى ملاك :

وبعد ذلك جاءت الخطوة التالية . . والأكثر دقة وصعوبة .. وأقصد توزيع الأراضى المستولى عليها .. وتحويل المعدمين إلى ملاك ..

وكانت المشكلة الرئيسية التى واجهتنا عند توزيع الأراضى على الفلاحين هى : عدم الثقة .. لم يكن واحد منهم يثق فى أنه سيصبح مالكا يوما ما ، ولم يكن أحد منهم يتصور أن أرض فاروق وطوسون والبدراوى ستوزع عليهم .. ولم يكن أحد منهم يتخيل أنه سيضع يده على شبر واحد من التفاتيش الملكية ودوائر الأمراء وكبار الملاك .

وكنت ألمح فى عيون الفلاحين ما لا تقوله ألسنتهم فى معظم الأحيان : لماذا تضحكون علينا ؟ ولماذا تمنوننا بالأحلام الوردية ؟ إننا راضون بحالنا ، ولا نريد أكثر من قطعة الأرض التى نزرعها بالإيجار أو بالمشاركة .

والواقع أننى كنت ألتمس العذر لهم فى ذلك التصور الخاطئ ، وفى المخاوف ، والشكوك .. لماذا ؟ لأن تراكمات مئات السنين من الظلم والقهر الاجتماعى لا يمكن أن تنتهى فى غمضة عين ، ولأن معاناة الفلاح المطحون وعامل التراحيل الأجير فى التفاتيش والدوائر لا يمكن أن يوضع لها حد بقرار على الورق .

لقد كان أول توزيع للأراضى على الفلاحين فى مارس ١٩٥٣ ، وكان ذلك فى رأيى بمثابة بدء الثورة الاجتماعية على أرض مصر .. وخرجت من القاهرة يومها

قافلتان لتوزيع شهادات التمليك على المعدمين .. القافلة الأولى من أعضاء مجلس الثورة برئاسة جمال عبد الناصر وتوجهت إلى شمال الدلتا .. والقافلة الثانية من ضباط القيادة برئاسة محمد نجيب وتوجهت إلى البحيرة لتوزيع الأراضى فى بلدة (معنية) .. وذهبت أنا مع القافلة الأولى ورافقت عبد الناصر وضباط قيادة الثورة إلى بلدة دميرة ، وشق عبد الناصر طريقه بصعوبة وسط الاستقبال الحماسى للفلاحين الذين كانوا لا يصدقون أن أرض أفندينا عمر طوسون سوف توزع عليهم ويمتلكونها : ١٦ ألف فدان مرة واحدة .

شىء لا يتقبله بسهولة عقل الفلاح البسيط ، هل هذا معقول ؟ أرض دائرة طوسون فى تفتيش دميرة يمتلكها المعدمون الذين كانوا يعملون عليها كالقطيع أجيالا بعد أجيال .. وكان غالبيتهم يهزون رءوسهم فى صمت .. غير مصدقين لقرار التمليك .

وكنت قد سبقت القافلة وأمضيت الليلة السابقة فى التفتيش لكى أشرف على الترتيبات وأحدد القطع التى يتم توزيعها على خريطة كبيرة بالأرقام .. ووجدت أن هناك مهمة أخرى تنتظرنى فى دميرة وأخذت أحاول إقناع الفلاحين بأن شهادات التمليك حقيقية وأن التوزيع سيتم عليهم بالفعل بعد ساعات ، وإن كل شهادة عليها نمرة القطعة التى أخذها المالك الجديد .. وكانت الخريطة الموضوعة على المنصة توضح القطع وأماكنها وأرقامها حتى يكون التوزيع سهلا ومحددا ، وقضيت الليل أشرح لهم أن التوزيع حقيقى وأننا جادون فى تمليكهم للأرض وأن المسألة ليست مظاهرة أو تمثيلية .. ولكنهم كانوا يقولون لى : إننا نعرف أنها أرض طوسون ، والحكومة وضعت يدها عليها ، قولوا لنا كم قيمة الإيجار الذى تريده الحكومة منا ؟ .

وما زلت أذكر ذلك الحوار الغريب الذى دار بينى وبينهم فى تلك الليلة . .

واحد منهم تشجع وقال لى : والنبى يا بيه يا بتاع الإصلاح الزراعى .. قول لنا دوغرى هاتخدوا كام إيجار الفدان ، وبلاش تحيرونا معاكم وتوعدونا بتوزيع الأرض وشهادات التمليك .. دى أرض أفندينا طوسون يا بيه ؟

وقلت له : أنا فلاح مثلكم .. وأرجو أن تصدقونى .. لا تتشككوا فى كلامنا .. هناك قانون صدر بالفعل لتمليك الأرض لكم .. والشهادات ستوزع عليكم .. وكل شهادة فيها نمرة القطعة والحوض والحدود .. ولن نلزمكم إلا بقسط بسيط اسمه قسط التمليك والمسألة واضحة تماما .

واحد آخر سألنى : طيب .. هل أنتم حاتدونا الشهادات كلنا ؟ وحتوزعو الأرض كلها ؟

وقلت له : مش ممكن طبعا .. لأن المساحة كبيرة ١٦ ألف فدان .. ولا يمكن توزيعها مرة واحدة .. وقيادة الثورة حاتوزع نماذج من الأرض .. وبعدها يتوالى التوزيع على دفعات وتصبحون جميعا ملاكا .

واحد ثالث سألنى : طيب .. وإيه يضمن لنا إنكم حتوزعوا الأرض على الباقين ؟ و .. و .. وسلسلة لا تنتهى من الشكوك والتساؤلات الحائرة ..

وفى يوم توزيع الشهادات توجه عبد الناصر مع أعضاء مجلس الثورة إلى المنصة، ووقف الفلاحون فى بادئ الأمر مترقبين اللحظة التاريخية وكأنهم لا يصدقون عيونهم ، ولم يكد جمال عبد الناصر يوزع الشهادات على خمسة فلاحين وأمسكوا بأيديهم بوثيقة الحياة الجديدة — وثيقة التمليك — حتى هجم باقى الفلاحين على المنصة بدافع من حسهم .. فقد تحول الحلم إلى حقيقة .. وأصبح الخيال واقعا .. وانقلبت المائدة التى وضعت عليها الشهادات ، والخرائط .. وضاع صوت عبد الناصر وهو يخطب وسط حماس الفلاحين وفرحتهم الغامرة .

واتجهت القافلة بعد ذلك فى نفس اليوم إلى الزعفرانة لكى تقوم بالتوزيع الثانى لأرض الإصلاح الزراعى هناك .. هناك حكاية أخرى — وقعت بعدها بفترة — وتبين إلى أى حد كان عنصر الثقة مفقودا عند الفلاحين ..

ليس عن عدم اقتناع بوعود الثورة وخطواتها وقراراتها .. ولكن عن عدم التصديق للواقع الجديد الذى يبسط ظلاله فى كل مكان ..

والواقعة حدثت فى المطاعنة مركز إسنا بجوار تفتيش أرمنت .. بعد توزيع جزء من أرض الملك فاروق هناك .. وكان الاتجاه فى هيئة الإصلاح الزراعى إلى ضرورة تقديم يد المساعدة للملاك الجدد من الفلاحين ومعاونتهم بالبذور والأسمدة والماشية .. ولذلك قررت اللجنة العليا إمداد المطاعنة بالماشية اللازمة لتحسين الزراعة وأرسلنا ١٠٠ جاموسة لتوزيعها على صغار الملاك .. وذهبت بنفسى لكى أشرف على التوزيع وكانت فرحة الفلاحين غامرة وتفوق الوصف .. وأمضيت ليلتى بالاستراحة الخاصة بالإصلاح والمجاورة لاصطبلات الخاصة الملكية .. وفى الصباح ذهبت لمشاهدة هذه الاصطبلات ووجدت فيها حوالى ٨٠ جاموسة وتصورت فى البداية أنها من مواشى الملك وتعجبت : لماذا يتركونها حتى ذلك الوقت فى الاصطبلات .. ؟ .. ولكننى لاحظت أن عليها علامات الإصلاح الزراعى المميزة بالأرقام التى وضعت على الماشية الموزعة على الفلاحين. واستدعيت الموظفين المسئولين فقالوا لى : إنها بالفعل من المائة جاموسة التى وزعتها بالأمس على الملاك الجدد .. وأنهم أرجعوها مرة أخرى فى الصباح الباكر لأنهم لا يريدون الاحتفاظ بها .. كان هذا التصرف آخر ما يمكن أن أتوقعه من الفلاحين .. ما الذى حدث ؟ .. وما الذى جعلهم يرفضون الماشية المقدمة لهم بلا مقابل ؟ وعندما واجهت الفلاحين وسألتهم عن السبب سكتوا قليلا ثم قالوا فى نفس واحد : مش عايزين جاموس ..

وتعجبت من تفكيرهم وحاولت أن أبين لهم أن هذه الماشية لمعاونتهم فى الزراعة ولزيادة إنتاجهم وتحسين أحوالهم، وكان تعليقهم : بس ماقلتوش تمنها كام ؟ .. وفهمت السبب على الفور وقلت لهم : خايفين من إيه ؟ .. الجاموس عندكم فى بيوتكم وحظائركم ومش ممكن ناخده تانى .. وحانبقى نقول لكم على نظام الدفع بعدين ؟ ولكنهم لم يقتنعوا ورفضوا استلام الثمانين جاموسة مرة أخرى

أسوق هذه الواقعة نموذجا من المعاناة التى تعرض لها الإصلاح الزراعى من الفلاحين — أيضا —مع أنه صدر من أجلهم .. وكان لابد من تفهمها وتخطيها وكانت هنالك قبل كل شىء التحديات التى واجهها الإصلاح الزراعى عند التنفيذ مع

كبار الملاك .. وقد تصديت بنفسى لحلها .. وكان هدفى الأساسى أن يمضى تنفيذ القانون فى يسر وسهولة وبدون استخدام القوة أو العنف حتى لا تحدث هوة من الحقد والانتقام بين الملاك والفلاحين .. وكنت حريصا على منع أى صدام دموى فى الريف لأنه يتنافى مع طباعنا وتقاليدنا .. وكنت لاريد أن يتكرر حادث عدلى لملوم فى المنيا .. وكنت مقتنعا منذ اللحظة الأولى : أن ثورة يوليو بيضاء .. ويجب أن تظل بيضاء .. وربما كان أسلوب التصرف الذى اتبعته مع البدراوى باشا عاشور دليلا واضحا على فلسفتى فى تطبيق الإصلاح الزراعى ..

أزمة مع البدراوى عاشور :

كنا قد أرسلنا مندوب الإصلاح إلى البدراوى باشا فى قصره — فى بهوت — لكى يتسلم الأرض الزائدة .. وكان الرجل صديقا لأبى وأعرفه جيدا عن قرب .. ودخل عليه المندوب وقال له بأسلوب الموظف المكلف بالتنفيذ : أنا جاى يا باشا عشان استلم الأرض بتاعتك .. وبالطبع دهش البدراوى من جرأة هذا الموظف وتأمله طويلا وقال له فى سخرية : إنت .. انت جاى تستلم الأرض بتاعت البدراوى؟ وقال له المندوب الذى لا يحمل فى جيبه سوى شيك بخمسين جنيها لزراعة الأرض : أيوه .. دى أوامر الحكومة .. ومعايا جواب التنفيذ .

فشخط فيه البدراوى صائحا : روح يا فندى أنت بلاش مسخرة .. روح قول للجماعة إللى بعتوك .. إن الأرض دى أرض البدراوى .. فاهم يعنى إيه .. ماحدش يستجرى يحط رجله فيها .. وإلا حاقطعها ..

واتصل بى المندوب تليفونيا وأبلغنى بما حدث — وبما كنت أتوقعه بالفعل — و طلبت منه أن يبقى مكانه وقلت له إنى قادم بنفسى لمقابلة البدراوى .. وبعدها وجدت جمال سالم يطلبنى بالتليفون ويسألنى : انت رايح تستلم أرض البدراوى.. وحاولت إخفاء ما حدث وأخبرته أننى جهزت كل الترتيبات حتى لا يزداد الموقف تعقيدا .. ولكن جمال سالم قال لى : بلغنا أنه ستكون هناك مقاومة من ناحية البدراوى ومتاعب فى تسليم الأرض .. وطمأنته وقلت له : لا تقلق ولاتشغل بالك بهذا الأمر وسأعالج الأمور بطريقتى .. وكل شئ سينتهى على ما يرام ..

فقال لى جمال سالم : عموما إننا سنضع قوة من الجيش فى المنصورة وتكون تحت تصرفك لو حدثت أية متاعب مع البدراوى .. وركبت سيارتى وذهبت بمفردى إلى قصر البدراوى بدون حرس أو جيش .. ودخلت على البدراوى عاشور — ومعى المندوب — وكان يرتدى جلبابا أبيض وحوله عدد كبير من أفراد الأسرة .. وقلت له : إنت ليه ياباشا ما بتسلمش مندوب الإصلاح الأرض الزائدة عن حد الملكية .؟

ونظر لى البدراوى فى دهشة من كلامى بحكم معرفتى السابقة به وقال لى : إنت اللى جاى تستلم الأرض .. ؟

فقلت له فى هدوء وحزم : أيوه .. وده قانون .. ولازم ينفذ وأنا مقتنع به ..

نظر لى البدراوى معاتبا وقال لى : إنت عارف إننى صاحب أبوك ..

لم يتصور أنه من الممكن أن يكون أنا الذى يقوم بهذا العمل .. ومضت فترة صمت ..

ثم عاد البدراوى يتكلم ويسألنى : ممكن أعرف هاتزرعوا الأرض دى إزاى .. فين الجرارات ووابورات الحرث وفين ماكينات الرى .. والا حتسيبوها أرض بور .. ؟

فقلت له : والله دى شغلتنا يا باشا .. وعارفين كويس هانزرع أرضك إزاى .

واستمر الحديث بيننا ثلاث ساعات كاملة فى محاولة لإقناعه بالتسليم .. ولكن بلا جدوى ، ولما لاحظ أننى أتكلم بجدية أخذ يدخل فى تفاصيل فرعية .. فقلت له : عموما أنا عملت الواجب وجئت بنفسى .. وأنت رفضت تسليم المندوب الأرض .. وأحس فى لهجتى نبرة تهديد خفية — ورضخ البدراوى أخيرا للأمر الواقع وقال : طيب بس أنا لى شروط .. إنكم تتركوا القصر مع المائتى فدان ..

كنت أريد الوصول إلى حل وكنت أحاول منع الصدام بأى شكل حتى لا تشتعل النار مثل ما حدث فى بهوت من قبل .. فقلت له : موافق نسيب لك القصر .. فقال وتسيبوا التليفونات .. فقلت له : موافق بس أنت عندك ثمانية

خطوط .. عاوزين منهم خط تليفون واحد للإصلاح الزراعى .. وعاد البدراوى يتشدد وقال مصرا : لا يمكن .. ولا خط ..

قلت له : يلزمنى مقر لمندوب الإصلاح الزراعى فى المنطقة ..

فقال : خذوا مكان كاتب الدائرة .. وكان عبارة عن غرفتين بالطوب النيئ القديم .

وقبل أن أغادر القصر قال لى البدراوى باشا عاشور : لى طلب أخير .. إن موظفين الإصلاح ما يقربوش من السراى ..

قلت له وأنا أحاول كبت غيظى : تأكد .. أن أى واحد فيهم لا يريد أن يدخل هنا أبدا ..

وتوجهت من هناك مباشرة إلى المنصورة ومن محافظة الدقهلية اتصلت بالقاهرة وكان أول طلب عاجل : تركيب خط تليفونى فورا فى مكتب الإصلاح الزراعى .. كنت أعرف مدى تأثير هذه الخطوة على الفلاحين من أجل حفظ هيبة الإصلاح الزراعى وتأكيد سيادة الدولة وقدرتها على التنفيذ .

وهكذا دخلت فى التحدى المباشر مع أحد رؤوس الإقطاع الكبيرة وأردت أن أثبت للجميع أن الثورة قادرة على إعادة صنع الحياة فى ريف مصر .. وبنينا أول قرية نموذجية فى « درين » وصارت من أهم مناطق الإصلاح الزراعى ومعالمه المميزة فى شمال الدلتا .. ودارت العجلة دورتها فى باقى المناطق ومضت فى حركتها دون هوادة .. ويوما بعد يوم كان العمل يتطور وينمو بظلاله الوارفة التى تحمل الحق والعدل ..

إذن .. جاء الإصلاح الزراعى نقطة تحول جذرية فى المجتمع المصرى .. ومرحلة انتقال من فلاح مقهور ضائع تحت سيطرة الإقطاع ، إلى فلاح مالك لأرضه ومصيره .. وهذه الملايين الكادحة التى ظلت مغلوبة على أمرها مئات السنين مهددة بالأمراض المتوطنة ومرهقة بالفقر والجهل والحرمان الطويل — شعرت لأول مرة بآدميتها وكرامتها واستردت ، إرادتها وحريتها ..

ولعلى لا أغالى إذا قلت : إن الإصلاح الزراعى كان مفتاح الثورة الاجتماعية ومنطلق حركتها بعد ذلك فى اتجاهات أخرى ..

لهذا كنت أدرك منذ البداية أهمية هذه الخطوة الواسعة للثورة .. وكان ذلك سر حماسى وتمسكى برأيى حول أسلوب العمل والتطبيق .. وكان أى خطأ فى التنفيذ كفيلا بالقضاء على ذلك الإنجاز الضخم فى مهده .. وكان أى التواء فى العمل كافيا لإجهاض المشروع من أول خطوة ..

ومن هنا جاء التدقيق من جانبى فى انتقاء العناصر الصالحة للعمل وتحمل المسئولية بمفهوم متفتح وسليم وبأسلوب مبسط وخال من التعقيدات الروتينية.. وللحق تفهم جمال سالم وجهة نظرى وأعطانى حرية حركة وثقة كاملة .

لقد أردت أن أثبت من خلال الإصلاح الزراعى – نظرية هامة : أنه يمكن أن يتحقق فى مصر مشروع حيوى كبير بدون أن يقع أسير القيود البيروقراطية .. وكانت الطريقة التى وضعنا بها ميزانية الإصلاح الزراعى نموذجا سابقا لأوانه على مشروعات الدولة ..

لم يكن فيها باب أول وباب ثان وباب ثالث .. إلى آخره كما هو المتبع فى ربط الميزانية العامة وكانت هذه النقطة مثار خلاف بينى وبين الرئيس جمال عبد الناصر – ولكن الميزانية قامت على أساس المصروفات والإيرادات من تحصيل الأقساط المستحقة من الفلاحين ولم نأخذ أية أموال أو دعم من الدولة .. كذلك لم يكن هناك درجات أو ترقيات دورية بحكم الأقدمية – كما هو الحال فى وظائف الحكومة – وإنما كانت الكفاءة والقدرة والجهد هى المعيار الأساسى للتعيين والترقية وكانت العلاوات والمكافآت بمثابة الحوافز المنطلقة بلا حدود . ولذلك عندما أعطينا سلطات للمندوبين فى مناطق الإصلاح تحسنت الزراعة وارتفع الإنتاج وبدأ نوع من الاستقرار .. خصوصا بعد اتباع نظام مندوب المنطقة – ويمكن ترقيته حتى يصل إلى وكيل وزارة – وكان ذلك أسلوبا جديدا

وقفزة متطورة فى العمل .. وهكذا تكون جهاز على درجة عالية من الكفاءة والقدرة ..

كانت القضية بالنسبة لى – كما قلت – فكرا والتزاما .. مسئولية ومصيرا .. أن تكون ثورة بكل المعانى والقيم .. أو لا تكون ..

أن تكون تغييرا بالقول والعمل .. أو تقف جامدة فى مكانها ..

وكانت مناقشاتى مع جمال سالم – باعتباره حلقة الاتصال مع مجلس قيادة الثورة – تدور باستمرار حول هذا المفهوم .. ومن هذا المنطلق كان إصرارى على عدم تدخل أية جهة أخرى فى عملى حتى لا تعوق انطلاق التطبيق ..

ومهما حدث فى الإصلاح الزراعى بعد ذلك من معوقات وتراكمات وانتكاسات. ومهما قيل عن الأخطاء التى وقعت خلال سنوات سيطرة مراكز القوى .. فإنه لا يمكن إنكار التغيير الكامل الهائل الذى أحدثه الإصلاح الزراعى على أرض مصر .. ولا يمكن تجاهل التحول العميق الذى قام به وانسحبت آثاره على مستقبل الملايين .. الكادحة فى صمت .

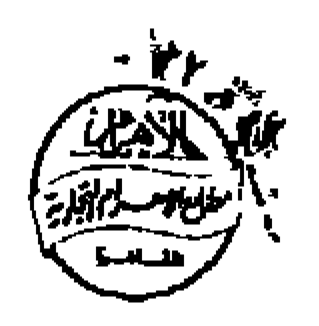


فى لقاء مع الفلاحين لتسليمهم شـــهادات تمليك الاراضى بعد أن أصبحوا لأول مرة فى ظل الاصلاح الزراعى أسيادا للارض وكانوا دوما عبيدها .

فهرس الكتاب

الجزء الاول

رقم الايداع ١٩٧٨/٥٢٢٩
الترقيم الدولى ٤ـ٤٤ـ٧٢٩٦ـ٩٧٧ ISBN



هذا الكتاب

وجـه مصر الحقيق كان فى الريف . . وغالبية المصريين كانوا هناك ، حيث الفقـر والضنك والمعاناة والأمية والأمراض ، وكان الفلاح المصرى مقهوراً محاصراً ، بين جشع المرابين ، واستغلال تجار المحاصيل .

فى هذا المناخ ، فتح سيد مرعى عينيه ، وعاش طفولته . ومع أن أسرته كانت من طبقة الملاك ، إلا أن انتماءه تجاوز الأسرة ، وهى اللبنة الأولى فى الوطـن ، وكان انتماؤه بوجدانه إلى الوطن الكبير . . وانطبعت فى ضميره صورة الفلاح المقهور الصامت الصابر . .

وفى مرحلة الصبا ، انتقل سيد مرعى مع أسرته إلى القاهرة ، للتعلم فى مدارسـها ، وكان قدره أن تكون إقامته فى حى العباسية ، حيث ثكنات المستعمرين . .

ومتنقلا مع الأسرة من القاهرة إلى الريف ، بدأ يتفتح وعيه السياسى ، وبدأت التساؤلات التى لم يجد لها إجابات ! !

إلى أن تخرج فى الجامعة من كلية الزراعة فعاد إلى الأرض ، إيماناً منه بأن قوة مصر ورخاءها فى ريفها والتصق بالأرض والتحم بفلاحيها لمدة اثنى عشر عاما متصلة حتى بلغ السن التى تؤهله لدخول البرلمان ، فكان أصغر نائبٍ فى سنة ١٩٤٤ ، ليرفع صوت الفلاح المصرى مدافعاً عن حقـوقه ومصـالحه ، ولتحقيق الإجـابات عن كثير من التساؤلات التى امتلأت بها أحاسيسه طفلا ، ورأسه صبياً وشاباً جامعياً . .

وهكذا ظل متنقلا بين ريف مصر وفلاحيها ، والقـاهرة وسـياسييها ، باحثاً عن الإجـابات عن التسـاؤلات ، حـتى قامت ثورة ٢٣ يوليو ، فبدأت الإجـابات بتحقيق آماله فى إصلاح الحياة الاجتماعية للفلاح المصرى ، حيث وجـد المهندس سيد مرعى نفسه يقوم بصناعة أعظم إنجازات الثورة فى المجال الاجتماعى ، بتنفيذ قانون الإصلاح الزراعى ، الذى كان نقطة تحول جذرية فى المجتمع المصرى ! كيف حدث هذا ؟

فى الجزء الأول من « أوراق سياسية » يحكى المهندس سيد مرعى قصته مع مصر ، بدءاً من تاريخ مولده ١٩١٣ ، حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ .

وهذه الأوراق تمثل جزءاً هاماً من تاريخ كفاحنا الوطنى والسياسى والاجتماعى ، نقدمها للقراء ، وبصفة خاصة للشباب ، حتى يتناقش فيها مع الآباء ، لعل فيها بعض الدروس المستفادة .

والله ولى التوفيق ،

الناشر

مطابع الأهرام التجارية

